نور السبوع

عيد مبارك

سيدة الخبز

رواية

مكتبة

الفارابي

سيدة الخبز

مكتبة | 1230

عيد مبارك كل عام وأنتم بخير

بين نداء الثورة والسلطة تضيع سارة بين عدنان الوالي وماهر الكرواتي، وبكفّ الحق الغائب الهزيل، يحاول خالد المساعدة لكنه عاجز تمامًا أمام الشعب التائه الذي أقامت فيه سيدة الخبز ثورة دون أن تدري، فطفى على سطحها الصادقون كأوس الذي خسر كل شيء ولا يزال متمسكًا بحلم الحرية، والمنتفعون كقادة بعض الأحزاب التي التفّت حول الوالي، فانتقلت البلاد من شرّ إلى خراب، وسقطت في زيف الشعارات، ثم إلى مشأمة الاحتلال. انتصار خُدعت كما الباقون، غير أنها تشبثت بكل صدق بما تبقّى من ذلك المزيج الذي ضمّته الى صدرها وهي تعلم أنه - رغم كل شيء - بريء من دهماء ما سبق.

نور السبوع، فلسطينية ولدت في مدينة الناصرة المحتلة، حاصلة على درجة الماجستير في الهندسة، تقيم في مدينة رام الله. هذه الرواية باكورة أعمالها الأدبية.

نور السبوع

مكتبة 1230
عيد مبارك كل عام وأنتم بخير

سيدة الخبز

(روايــة)

دار الفارابي

الكتاب: سيدة الخبز
المؤلف: نور السبوع
لوحة الغلاف: سالي يعيش

مكتبة .. سر من قرأ
٢٩ ٦ ٢٠٢٣

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: أيار ٢٠٢١

ISBN: 978-614-485-123-4

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونيًا عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

ما أمتع المأساة في رواية، لكن حاول أن تشاهد مقطع تعذيب أو أن تقابل أمّ شهيد أو أن تقع في بئر الكآبة، عندها فقط قد يقتلك ما تقرأ.

ما أريد قوله هو أنَّ التاريخ لن يغفر لنا إنْ لم نقل شيئًا..

إهداء

إلى أمل ومحمد – أمي وأبي اللذين لم يفلتا كفي منذ اللحظة الأولى، وإني على يقين أنهما لن يفعلا.

وإلى محمد – زوجي الذي أخذ بكفي الأخرى وأدخلني عالم الحب.

وإلى محمد عبد الله جرادات، من جعلني أدرك أنه مهما بلغ المرء من حدّة البصر، فعلى أحد أن يخبره كيف تبدو عيناه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-١-

«خذ الشفرة يا رجل»، جاءه ذلك الصوت الغليظ من خلف باب زنزانته ليخرجه من غيبوبة الألم التي تصيبه كلما عاد من جلسة تعذيب، فتح عينيه على آخرهما إلّا أنه لم يجد شيئًا، إنه بالكاد يرى في هذا الظلام المطبق، عاد الصوت وهو يقول «إنّها هنا تحت الباب» نظر خالد تحت الباب، لمعت الشفرة في عينيه نورًا أزعجهما، فعاد الصوت وهو يقول «نصيحة يا ولدي، اقطع عرضيًّا هكذا تَمُتْ أسرع»، أهمَل خالد الصوت وقال «أريد ماءً»، كان العطش يشق حلقه ولسانه، حتى إنه يشعر بأنه لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة أخرى، بل ولا يستطيع أن يبتلع ريقه فلا شيء هناك، كانت كل خلية في جسده ترجو قطرة واحدة، وكل جرح يجاهد أن يلتئم يطلب ماء، دماغه دمه وكل شيء. عاد الصوت الغليظ «انتظر وجبتك أو اشرب من المرحاض، الماء وفير هناك» رجع برأسه إلى الجدار إلّا أنَّه انغرس برأسه وآلم جروحه، فنتوؤه خشنة جدًّا وهو لا يرجو سوى أن يتكئ على شيء، أي شيء.

تحسس ذراعه، كانت ضخمة إلى الحد الذي لا يمكن أن تكون

ذراعه، قد تكون مكسورة لا يدري، إنها تؤلمه جدًّا لكنه لا يعرف ما الذي يؤلمه فيها أكثر، الكسر، الحروق، ذلك الجزء المقطوع بسكين، ظفره المقلوع، أنّ بألمٍ يبحث عن صبر، متى تأتي وجبة الطعام اللعينة تلك؟ لا يريد شيئًا منها سوى كوب الماء وأن يحاول ربما التعرف إلى الوقت من هذا اليوم. لم يمضِ الكثير من الوقت حتى أتى الطعام، وها هو كأس الحياة، يقف بشموخ بجانب بيضة وثلاث حبات من الزيتون ورغيف خبز يابس جدًّا لكنه أفضل من ذلك العفن الحامض الذي يأتيه أحيانًا! هو الصباح إذًا امتدت يده الأصلح من أختها إلى كوب الماء، إلّا أنها ولا يعرف كيف ولا لماذا زلّت من يده وسقطت، رأى القطرات تنسكب في الهواء، هي والكأس تصل وتستقر إلى الأرض، زحف تجاهها كالمجنون علّه يجد في قاعها شيئًا، إلّا أنها كانت فارغة إلّا من ثلاث قطرات، نعم إنه يعرف أنهن ثلاث فهو مستعد ليدفع من عمره لأجل قطرة ارتشفهن وصرخ بغضب عارم لم يصرخه حتى في أشد ساعات التعذيب، ودفع بقدمه صينية الطعام ليختلط ما فيها أيضًا بالزاوية الأخرى من أرض الغرفة، ثم سقط على الأرض ولعق ما يمكن لعقه من الماء المختلط بالتراب والدم والغبار، لكنه لم يرتوِ، شعر بذلّ ما فعل، شعر بنفسه كلبًا يلعق الماء عن قدم صاحبه ورغم ذلك لم يرتوِ، استلقى على ظهره المليء بالقروح وبكى طويلًا جدًّا بصمت، دار برأسه يحدق إلى ظلام تلك الزنزانة الذي يشقه نور أحمر يأتي من مصباح صغير ضعيف القدرة كانت هذه الزنزانة عالمه كلّه منذ

زمن لا يذكره، عالمًا مظلمًا صلبًا موجعًا، إلّا أنَّه وبطريقة ما يحاول ما استطاع أن يصادقه ليعتبره منزله، نظر ولا شيء هناك، جدران رمادية عفنة وخشنة، وأرض من الإسمنت عليها بطانية واحدة، إمّا أن تنام فوقها وإما تضعها فوقك وتنام على الأرض، نظر إلى الضوء الأصفر الذي يأتيه من أسفل الباب الحديدي، كان النور يسلّيه أحيانًا، وكثيرًا ما يبعث الأمل في القلب المتعب، لكنه الآن وفي ساعة الإحباط هذه يسلّط عيني خالد المتعبتين على شيء واحد يقع تحت نوره، «الشفرة»! نظر إليها طويلًا، أشاح ببصره بعيدًا، لكنه ما لبث أن أعاده إليها، حاول مجددًا إزاحة وجهه عنها إلا أن عينيه استقرتا أخيرًا عليها مد يده السليمة فلم تطلها، زحف على جنبه رغم الألم المجنون حتى وصلها، أمسكها بضعف ووضعها في مسار نور الزنزانة الأحمر ليراها، عاد الصوت الغليظ، صوت مملوء بالخمر والسجائر والكثير من دماء الأبرياء، قال له «صدقني لن تؤلمك كثيرًا، اقطع بسرعة، شكّة إبرة وينتهي كل شيء، ستغيب أسرع مما تعتقد ثم ستنتقل إلى نعيم العدم». أهمَلَ خالد الصوت مجددًا، لكنه لم يزح عينيه عن تلك الشفرة، كم مرة حلق ذقنه، كم مرة أعطته هذه الشفرة النعومة المطلوبة! لكنه لم يكلّف نفسه يومًا الإمعان في النظر إليها، إنَّ لها شكلًا هندسيًّا جميلًا، وفيها فراغ يشبه بطريقة ما صورة تخطيط نبضات القلب، ربما هذه إشارة إلى وجوب إيقاف نبضاته، لكنه رآها مرة أخرى بشكل قالب نرجيلة جميل، كم يشتهي واحدة! ثم نظر إلى الحواف الصلبة، حاول أن يقرأ شيئًا، دقق

جيّدًا في الأحرف إلّا أنه لم يستطع. كيف دخلت هذه إلى هنا؟ أَلَيْس هذا من سابع المستحيلات! أتراه يهذي؟ أم أن هذا العالم المجنون سريع التغيّر والانحدار، ولمَ يطلب إليه السجان أن يقتل نفسه! لو علم المحقق بهذا لأنزل به أشد أنواع العقاب، يبدو إذًا أن كلًّا يغني على ليلاه بدا له الجسم الصلب الصدئ فمًا ذا أسنان حادة وغير متناسقة أبدًا، بدأ الفم يكبر ويكبر قبل أن يصيح فيه «لن أؤلمك، أنا هنا لأنهي كل شيء، كن شجاعًا ولا تخف، انظر إلى حوافي، إنها حادة جدًّا، ستنهي ما عليها بسرعة». قال خالد «لكنني عطش، لا أريد أن أموت قبل أن أشرب ماءً». قال الفم الحديدي «أعدك بعدها أنني سآخذك إلى مكان جميل جدًّا ستأكل فيه وتشرب قبل أن يهبط ضغطك ويتوقف قلبك وينتهي كل شيء». أمسك خالد بالشفرة ووضعها على حرفها وقرر أن يجرب الألم، إنه بالتأكيد أقل ألمًا من ذلك الذي يراه في غرف التعذيب والتحقيق، نعم سيجرب، أخذها ثم كشف عن أحد القروح في ساقه، وببطء وتلذذ غريب أمرّها بجواره، لم يصرخ، حتى إنه لا يشعر أنه تألم فجسده يؤلمه سلفًا من كل جانب. نزف دمًا إلا أنه ضغط على ساقه بيده حتى توقف زحف حيث المرحاض، اتكأ عليه وقام، من حسن حظه أن هذا المرحاض يحتوي بيت ماء منفصلًا وظاهرًا، فتح غطاءه ببطء، كان مليئًا ببيوت العناكب والأتربة والحشرات الميتة التي لا يدري من أين جاءت لكنه قرر أن يشرب، أزاح كل شيء بيده، ثم غسلها داخل الصندوق ثم غرف بها وشرب حتى ارتوى من دون

قرف أو تقزز أو أي شعور سلبي آخر، أمسك بالشفرة التي أمامه، فكر أن يحتفظ بها لكنه يعلم أنها عبثٌ ستحميه من كل هؤلاء، إنّ خطرها بين يديه أكبر بكثير من فائدتها، رماها في المرحاض وأدار فوقها الماء حتى اختفت إلى رحلة أخرى لا تعنيه.

***

صفّق بيديه وهو يغني، اتجه نحو غرفة أخته التي لا تستيقظ رغم إيقاظ صفية الطويل لها، وقف بقرب الباب ودق عليه موسيقى محببة، غطت رأسها بغطاء الفراش لكنه استمر بالدق حتى صرخت وأمرته أن يخرج، ثم غطت رأسها مجدّدًا لكنه اقترب وكشف عن وجهها الغطاء وهو يقول لها: «إذا لم تستيقظي الآن يا سارة لن أوصلك إلى الجامعة». قالت بصوت نعس: «لا أحتاج إليك، لدي العم سعد». «العم سعد أخذ سيادة الوزير لأن سائقه مريض، إذا لم تتجهزي خلال نصف ساعة سأغادر إلى شركتي وأنتِ ابقي في المنزل مع السيدة صفية، قد تقدمين لها أيضًا يد المساعدة في أعمال البيت». قالت بتكاسل: «أمري لله سأقوم». غادرت دفء السرير بتثاقل، غسلت وجهها ووضعت بعض مساحيق التجميل، ثم لبست ثيابها ونزلت الدرج لتناولها صفية فنجان قهوتها وتسألها إن كانت تريد أن تتناول شيئًا، لكنها قبّلتها شاكرة وغادرت، كان أدهم ينتظرها في السيارة فدخلت بسرعة قبل أن يعلّق على تأخيرها المعتاد عن كل شيء، قالت: «يبدو أن أمي سبقتنا»، ضحك وهو يقول: «السيدة هيلدا أيقونة مهمة لهذا المجتمع، جمعياتها النسائية

تأخذ منها كل وقتها». ضحكت خلفه وقالت: «معك حق». وضعت سارة بعض الموسيقى ثم رفعتها بحماسة إلّا أنَّ أدهم أخفض الصوت قليلًا على غير عادته، فنظرت إليه وقد بدا شاردًا، فسألته باهتمام: «ما بك يا أدهم، هل كل شيء بخير؟». «كل شيء جيد لا تقلقي»، لكنها لم تقتنع، كان هناك شيء من القلق على وجه أدهم الأبيض، بدا مصفرًّا متجهمًا فقالت: «أنت تعرف بأنك تستطيع أن تخبرني دومًا، هل أمور الشركة بخير؟».

- كل شيء بخير يا سارة، بعض القصص الصغيرة التي لا تستدعي القلق.
- أعتقد ذلك، فمعالي السيد ماهر دائمًا ما يجد الحلول.
- نحن محظوظان بأن لدينا والدًا مثله، لكانت أكلتنا الضباع، قالها أدهم وصمت كلاهما.

سارا في السيارة طويلًا قبل أن يصلا ذلك الازدحام المروري المعتاد، لكن أدهم اتخذ مخرجًا مروريًّا عن يمينه، وبعد أمتار قليلة وقف على نقطة دائمة للشرطة، أخرج بطاقة بحوزته فرفع أحد أفراد الشرطة يده محيّيًا قبل أن يرفع اليد الإلكترونية التي تغلق الشارع فمرّا بسلام.

«هذه الأخرى واحدة من بركات معالي السيد الوزير»، قال أدهم. لكنّ سارة لم تعلق، شيء ما داخلها يخبرها أن هذا الشيء فيه بعض من الظلم للآخرين الذين يقفون في ذلك الازدحام لساعات ربما، لم

لا يتم فتح الطريقين معًا وتوسيعهما ليسمحا معًا بتدفق طبيعي لمرور السيارات. سارا ما يقارب الخمس دقائق في طريق ممهدة بشكل جيد ومشجرة بعناية، ثم عادا إلى الطريق العام مجددًا لكنهما كانا قد تجاوزا ذلك الازدحام الخانق. في تلك اللحظة دقّ هاتف أدهم، كان والدهما، أجاب أدهم:

- أمرك يا معالي الوزير!
- أين أنتما؟
- لقد اقتربنا من الجامعة، سأنزل سارة وأتوجه إلى الشركة مباشرة.
- جيد! كلمني حالما تصل هناك. ثم أضاف موجهًا الكلام إلى ابنته «سارة! سعد سيأتي لأخذك عند الثالثة كوني على البوابة الثانية».
- صباح الخير يا أبي! سأفعل بالتأكيد.

وصلا بوابة الجامعة، ودّعت أخاها ونزلت متوجهة إلى كلّيتها قبل أن تسمع جلبة عالية قريبًا من السور؛ ثلاثة من رجال الأمن وامرأة في منتصف العمر بفستان طويل له زنار تصيح فيهم، وهم يدفعونها بعيدًا عن عربة لها عليها خبز وبعض الأطعمة على ما يبدو، اثنان أحاطا بها قبل أن يرفع الثالث العربة ليلقي بما فيها على الأرض، خبز وخضار كلها تناثرت فوق الرصيف، لطمت المرأة وصرخت، لكنهم استمروا بإبعادها عن الطريق، الغريب في الأمر أن لا أحد من المارة قال أو

فعل شيئًا، أما سارة فكانت تراقب باهتمام، تتمنى أن تذهب وتفعل شيئًا لكنها كما الجميع تعرف أن الأمر أعقد من أن يحلّ بتدخلها، داس رجال الأمن الطعام ودفعوا بالمرأة إلى الرصيف، فارتطم رأسها بالأرض وراح ينزف. بكت وهي تصيح: «انتقم الله منكم، ماذا تريدون منا، أن نسرق أم نشحد؟». أليس عجيبًا كيف يقف الجميع ينظرون إلى هذا المشهد الظالم تمامًا وهم العشرات بينما مَن أمامهم هم ثلاثة فقط، حتى لو كانوا رجال أمن! إنهم ثلاثة وحسب، ولو تدافعوا عليهم لداسوهم تحت أقدامهم، فكّرت سارة بأنه لا يحق لها أن تستعجب للأمر، فهي واحدة من الجمع الساكت، إما أن تتقبل ما يحدث وإما تنتفض، دماء المرأة تسيل على وجهها ولا يد واحدة تمتد إليها لتنهض، لكن سارة مشت نحوها بهدوء حَذِر وغضب خائف ثم وقفت أمام الرصيف ومدت كفها إلى المرأة لتنهض ثم قالت: «اهدئي يا أمي، سيصلك حقك، أعدك بذلك». إلا أن صاحبة المصيبة كانت أكثر إدراكًا ووعيًا بأن كل الوعود في هذا البلد كاذبة، ناحت وهي تقول: «عندي في البيت كوم لحم ينتظرون قوتًا، وأنا ما أجرمت أنا بعت خبزًا للمارة، انظري ماذا فعلوا، انظري إلى الطعام على الأرض، لقد داسوه يا ابنتي، والله ما بعت شطيرة واحدة، والله ما لدي فلس واحد والآن ليس لدي قطعة خبز سليمة»، احتوتها سارة قبل أن يقترب رجل أمن منهما ليقول: «تعلموا أن تحترموا الطرقات أيتها الحيوانات الضالة، هذه الأحياء لا تليق بكم». شيء ما في النفس البشرية يجعلها تصبر

طويلًا، لكنها أمام الغضب تمتلك سلطة صغيرة جدًّا لتكبح لجامه، لم تستطع أن تحتمل أكثر فوجدت نفسها تجيبهم بصوت عالٍ مسموع: «أنتم هم الكلاب الضالة، أنتم ومَن وراءكم ومَن وضع أمثالكم لحماية هذا الوطن»، كان مشهدًا استثنائيًّا بحق! في دولة مثل (أرض العرب) هذه لا يمكن لأحد أن يقول شيئًا، إنها ورغم أنها واحدة من أغنى دول العالم، وثاني أكبرها مساحة، لكنها أرض لا يقول أحد فيها إلّا ما يقول حاكمها، ومَن يعارض فالمقصلة فقط هي مصيره، وأمام الجمع ليتعظوا! في أحيان أخرى يختفي المعارضون إلى الأبد من دون أن يعلم عنهم أحد شيئًا وسارة تعلم ذلك جيّدًا، صاح شخص آخر من بعيد: «يا كلاب يا همج»، ارتفعت أصوات المارة بقليل من الاستهجان تجاه رجال الأمن، عبارات تنديد بدأت بالصدور لا يعلم أحد من أين، وأصبح الوضع يقترب من الفوضى، فخاف رجال الأمن مما قد يحدث وأطلق أحدهم النار في الهواء فهاج الشارع وماج، بعض طلاب الجامعة غضبوا من إطلاق النار فارتفعت أصواتهم، وآخرون خافوا منه فركضوا بعيدًا. اقترب أحد رجال الأمن من سارة، وأمسك بها لكنها دفعته بقدمها وضربته بحقيبة يدها قبل أن يطرحها أرضًا ليتمكن منها ويأخذها معهم إلى حيث لا يدري أحد.

***

سبعة أيام أخرى، صمد فيها وحده في الظلام ذي النجمة الحمراء، فتح الحارس بعدها الباب الثقيل ودخل بحذائه الضخم، وقف فوق

رأس خالد الممدد على الأرض، دفش كتفه بحذائه فتألم، لكنه لم يقل شيئًا، لم ينطق ولم يئنّ. « قم أيها الكسول، حان وقت التمرين»، قام خالد بصعوبة بالغة ونظر إلى وجه سجّانه وهو يحاول الابتسام ويقول: «صدّق أو لا تصدّق أشتاق إليه». «اخرس يا هذا وامشِ بهدوء». دفعه بقوة إلى الأمام ومشى به في سراديب الموت المؤجل، سمع أنينًا، وتأوهات وبكاء، ورغم أنها جميعًا لا تأتي إلّا من عمق الوجع إلا أنها أسعدته كثيرًا، فهو يسمع صوت بشر، لقد ظنّ دماغه في الفترة الماضية أنه حيّ في عالم الأموات، إنه يشتاق إلى أي شخص حي، ظالم أو مظلوم، يشتاق إلى المحقق وحتى إلى السجان المسؤول عن تعذيبه، لقد اشتاق إليهم جميعًا إنه مستعد للموت تحت أيديهم، نعم! المهم أن يموت بين بشر، إن كان حقًّا يستطيع أن يطلق عليهم ذلك. مرّ بجوار تلك الغرفة المغلقة، إنّه يعرفها جيّدًا، غرفة استخراج الأقوال بالزرادية على أنواعها، زرادية كبس، زرادية بأسنان، زرادية ذات رأس مدبب، كلها تعمل جنبًا إلى جنب مع المطارق والقطّاعات والمفكات لمصلحة الدولة، اختبرها وهو يعلم أنه سيعود إليها قريبًا، دخل غرفة تليها بعدة غرف وجلس أمام المحقق، نظر إلى وجهه وفي ملابسه طويلًا، كم اشتاق لرؤية شخص مرتب ونظيف، كم تمنّى أن يستحم. أشعل المحقق سيجارة قبل أن يمدها إلى خالد وهو يقول: «تشرب؟». هزّ خالد رأسه موافقًا إلّا أنه قال: «أريد ماء قبل أي شيء». نفث المحقق دخان السيجارة في وجه خالد وقال: «حاضر يا سيدي ولا يهمك.. يا

حديد! هات كأس ماء إلى خالد». تحرك السجان ذو الجسم الضخم وأحضر كوبًا من الماء ووضعه أمام المحقق فقال الأخير: «اشرب يا خالد». مقع خالد الماء مقعًا، لكنه أبدًا لا يرتوي. «أريد كأسًا أخرى» قال خالد. «أنت تأمر، أعد ملأها يا حديد». شرب خالد وشعر أخيرًا أن شيئًا بدأ يسري في عروقه، لقد كان ذلك الماء عذبًا لا يشبه الماء الذي يأتونه به إلى زنزانته، مدّ المحقق إليه السيجارة وهو يقول: «تفضل يا سيد خالد». أخذ خالد ينفث سيجارته بصمت، يتلذذ بها لا يقول شيئًا، والمحقق ينظر إليه ويبتسم ثم قال: «إذا أردت أحضرنا لك بعض القهوة»، نفخ خالد دخان سيجارته وقال مبتسمًا: «هذا كرم مبالغ فيه، مَن يقول لا لفنجان قهوة». قام المحقق ودار حول خالد الجالس على كرسيه المعدني وهو يقول: «أرأيت يا خالد، نستطيع أن نكون أصدقاء». سحب خالد نفسًا عميقًا من سيجارته وقد بدأ يعلم أن الوقت الهنيء بدأ بالنفاد، ثم أخرج الدخان وهو يهز رأسه موافقًا بسخرية وهو يكرر: «أصدقاء!»، قرفص المحقق ليقابل وجهه وجه خالد وهو يقول: «فقط قل لي مَن وراءَك وأعدك بأن تخرج من قبرك هذا إلى الأبد، ستذهب إلى السجن الجماعي، حيث البشر والطعام والشراب والسرير». «قلت لك أنا وحدي، ليس معي أحد ولم أفعل شيئًا». وقف المحقق ونظر إلى وجه خالد بغضب، سحب سيجارته من يده، تنفسها مرة ورفع دخانها إلى السماء ثم أطفأها في الجزء العاري من كتف خالد، ثم ثنى نفسه ونظر إلى وجهه كأنه تنين وقال: «هل تعتقد أنك قادر على أن تهز جذع

شجرة واحدة من أرض العرب! لن تهدموا أبدًا هذه القوة التي بنت نفسها بنفسها أتفهم!». قال خالد بهدوء: «لا أظن أن هناك عاقلًا واحدًا يسعى إلى هدم وطنه، لكن بعض المرتزقة الذين يريدون مكاسب شخصية قد يفعلون، وأنا بالتأكيد لست منهم». ثم استطرد «لكن أرجو أن تراجع نفسك فقد تكون تعمل لدى أحدهم». أمسك المحققُ خالدًا من شعره وشدّه إلى الوراء وهو يقول: «اسمع أيها القذر، لكل شيء في الدنيا نقطة انكسار، وسنصل إليها يا خالد. مرّ عليّ العشرات من أمثالك كلهم تكلموا، لكنهم جميعًا كانوا أغبياء أن أجلّوا أنفسهم حتى انهاروا تمامًا». إلا أن خالدًا قال: «حتى تصلها لن أقول شيئًا». صاح المحقق بغضب باسم حديد الواقف بجانبه، فجاء الرجل ورفع خالد من قميصه لينظر إلى وجهه وهو ينتظر أمر المحقق. نظر خالد إلى وجه الموت مجددًا، بالتأكيد اسمه ليس حديد، لا يمكن أن تكون أمه قد أطلقت عليه هذا الاسم عندما ولدته، ترى ما اسمه! هل يمكن أن تكون العلاقة بينهما متوطدة إلى هذا الحد ثم يأتي اليوم الذي يغادر فيه من هنا حيًّا أو ميتًا من دون أن يعرف اسمه! إنه يأخذ كل مرة شيئًا من روحه، من صحته وعمره، إن من أدنى حقوقه أن يعرف اسمه. «خذه إلى التمرين، علّ هذا المحشو في رأسه يعمل بما فيه مصلحته». قال المحقق موجهًا أمره إلى حديد. أخرجه حديد إلى الممر متوجهًا به إلى أحد غرف التمرين المجاورة، التي خرج منها بعد مدة بدت له دهرًا بالكاد يرى وبالكاد يسير، بل وبالكاد يعي، وقد أمر حديد اثنين من الحرس لنقله

إلى مستشفى السجن، ورغم آلامه المبرحة إلا أنه شعر بسعادة عارمة، فالذهاب إلى المشفى يعني أنه سيرى نور الشمس قليلًا وسيشعر به ولو للحظات، ويعني أنه سيحصل على بعض الهواء النقي، كل ما يتمناه الآن هو أن يبقى يقظًا من دون أن يفقد الوعي حتى يصل إلى البوابة الرئيسة، ورغم أن كل أمانيه السابقة كانت قد ضُربت بعرض الحائط إلا أن هذه تحققت. مشى بأصفاده مع حراسه بعيدًا عن العذاب، ليطببوا له جروحًا رسموها بأيديهم، ضحك في سرّه على هذا التناقض العجيب قبل أن يغمض عينيه بألم متحاشيًا أشعة الشمس التي سطعت فيهما فجأة، لقد انتظرها طويلًا ولا يريد أن يخسرها لكنه حقًّا لا يستطيع أن يفتحهما، تنفّس بعمق محاولًا أن يتمسك بنعمة الانتعاش، ثم وقبل أن يدفعه أحد الرجال إلى عربة صغيرة حديدية لنقل السجناء، سمع جلبة وحوارًا فيه صوت أنثى، يا إلهي هل ما زالت تلك الكائنات معنا هنا على الأرض؟ لا يذكر آخر مرة سمع فيها صوتًا بهذه العذوبة، إنه حيّ حقًّا فتح عينيه هذه المرّة إلى الحدّ الذي تسمح لهما جروحه به، كانت هناك مقابله، يقطع بها رجلان الطريق ليأخذاها إلى مركز الاعتقال المجاور للسجن والمقابل للمستشفى التابع له، يدفعانها بقسوة وهي تقول: «عندما تعرفان من أكون ستتمنيان لو قطّعت أيديكما»، وقبل أن يرفع رأسه هبت إلى جوار العربة كنسيم برائحة ورد، ثم قبل أن تتجاوزها التفتت إليه وتلاقت عيناه بعينيها العسليتين لثانية أو أقل قليلًا أو ربما أكثر، لكنها كانت كفيلة بأن تمنحه عمرًا إضافيًّا يقاوم فيه من جديد. ثم

مضت وهو يسمعها تقول لرجال الأمن الممسكين بها: «سأحرص أن يصيبكما ما أصاب ذلك المسكين». ثم ومن دون أن يدرك اختفت هي خلف المبنى وهو في العربة التي مضت به أمتار قليلة قبل أن توصله إلى المشفى فاقدًا الوعي.

لم يدرِ بعد ذلك، كم يومًا بقي في غيبوبته على سرير ذلك المشفى أو بعد ذلك فوق أرض زنزانته السوداء، لكنه رآها ألف مرة وسمع صوتها طويلًا وكثيرًا، تحدث إليها في كل شيء، وأخبرته ألف مرة أنها ستجعل السجان يواجه ما واجهه، كم أراد أن يصدقها، لقد صدقها في الواقع. أجابها مئة مرة أنه ليس مسكينًا وأنه يعي تمامًا ما يصيبه وهو اختاره عوضًا عن الخيانة وذلّ العيش، حذّرها من أن تخاف من المحقق أو ترتجف أمامه، قال لها: «إنهم هم الخائفون، هم السجناء ونحن الأحرار، لا تخافي من السجّان، ليس شيئًا شخصيًا ما بينكما إنما هو عبد سيّده»، لا يدري إن كانت قد أدركت ما يريد أن يقوله أو لا، لكنه خائف أن يصيبها ما أصابه. هل كان يدري خالد وهو غارق في غيبوبته يفكر في وجه هذه الغريبة القريبة أنه سيكون هو أيضًا يومًا ما سجّانها! وأنه سيغلق عليها الباب تمامًا كما يفعل سجّانه الآن، وسيحضر لها الطعام والماء على صينية قديمة! يضعها على أرض غرفة مغبرة وباردة! ربما لو جاءت الدنيا كلها لتخبره بذلك لصدّق روحه وكذبهم، إنها أجمل وأرق وأنقى من أن يصيبها أحد بعذاب، رائحتها لا تزال عالقة في عقله، فكل ما اشتمه في الأشهر الأخيرة كان القذارة

والعرق والصديد، أما هذه فكانت عبقًا من عنبر أو ياسمين، تبدو هذه الفتاة من مكان آخر لا يعرف عن جماله شيئًا. رشقه الحارس بماء بارد نفض جسده من كل تلك الأحلام الوردية، أيقظه على وجع جديد، وصبر جديد وعطش جديد.

****

بعدما اعتقل رجال الأمن سارة، ذهبوا بها إلى إحدى سياراتهم، جلس أحدهم أمام المقود والثاني بجواره، أما سارة والأخير فجلسا في المقعد الخلفي. ألقوا في وجهها السباب كثيرًا، ثم انطلقوا إلى نقطة تحقيق، نظر السائق إلى عينيها كثيرًا من خلال مرآته، أما مَن كان بجواره فلم يلتفت أمامه قطّ، إنما بقي يتلصص على أجزاء جسدها المكشوفة والمغطاة ويُسمعها ما لا يمكن لأحدٍ احتماله، أما من بجوارها فقد تجرأ ومدّ يده! انتفضت وصرخت، لكنه بصوت ساخر يدّعي البراءة قال بأنه كان يحاول أن يضع لها حزام الأمان ليس إلا. ضحك عليها ثلاثتهم أما هي فبدأت بالارتجاف. مَن يكون هؤلاء! أمن البلد؟ أمان الوطن والمواطن؟ أهؤلاء من كنا نلوّح لهم بأيدينا ونحن صغار! مَن نضرب لهم التحية أثناء مرورنا، مَن نشكو لهم إذا ما سرق أحد بيوتنا أو أهان كرامتنا أو داس طرفًا من شرفنا! ها هي اليوم تعرفهم عن قرب، أو تظن ذلك!

عندما دخلت غرفة الضابط في مركز الاعتقال، قال كأنه يعلم بكل ما جرى على ذلك الرصيف:

- أهلًا أهلًا، بالمصيبة الجديدة.
- لكن سارة قالت بقليل من الخوف:
- أنا لم أفعل شيئًا!
- اخرسي! لا كلام هنا إلا بإذن. كلكم لم تفعلوا شيئًا، كم أتمنى مقابلة مَن يفعلون.
- اسألهم هم ما الذي فعلوه! كيف يلقون برزق سيدة بسيطة في الشارع؟
- لأنها في الشارع! أتريدين الآن أن تعلمّينا القوانين!
- لا تدري من أين أتت سارة بكل تلك الجرأة لتقول:
- هناك حد أدنى من الإنسانية! كان بإمكانهم مطالبتها بالمغادرة.
- آه.. جيل جديد، يفتي في كل شيء! اجلسي يا فتاة، على هذا الكرسي المعدني.
- تابعت وهي تجلس:
- هذا عدا عن التحرش الذي تعرضت له أثناء قدومي إلى هنا.
- التحرش!

قام من وراء مكتبه واقترب منها وهو يقول لها مبتسمًا بمكر: «لم تريْ شيئًا بعد يا صغيرة». ثم أمسك شعرها الكستنائي وأرجَع رأسها للوراء وهو يقول:

- تريدين القيام بثورة إذًا.
- أنا؟!

- أنتِ جعلت الشارع يضج! وستعاقبين على ما جرى أشد العقاب، ثم صرخ في وجهها صوتًا شعرت أنه ثقب طبلة أذنها «مع مَن تتعاملين يا فتاة؟».

- لا أحد. واللهِ لا أحد!

- كان لا يزال يمسك بشعرها وهو يصيح فيها ليخيفها أكثر:

- ما هذا الذي حدث إذًا؟

- أنا استفزني ما رأيت فقط.

- عاد إلى مكتبه وجلس على الكرسي وهو يقول:

- آه.. نعتذر على إزعـاج حضرتكم أيتها الصغيرة، والله لأجعلنّك تتمنين لو أنكِ ما أتيتِ إلى الدنيا. هاتِ اسمك الكامل.

- سارة..

ثم بترت عبارتها ثانيتين تقريبًا وهي تستشعر القوة التي سيسقط بها الاسمان التاليان على آذان الحاضرين ثم رفعت ظهرها قليلًا وقالت:

- سارة ماهر الكرواتي!

كان قد أمسك قلمًا وورقة يستعد لكتابة اسمها، وحين نطقت الاسم ساحت أوصاله وتبدّل لون وجهه في ثوانٍ، فقد غدا يعلم أن رجاله الأغبياء أوقعوه في ورطة لا مخرج منها، وأنه الآن سيكون ضحية السادة الكبار، لم يستطع أن يقول شيئًا، إلّا أنه نظر إلى عيون رجال

الأمن الثلاثة، ثم قام وصفع كلَّ واحد منهم على وجهه، ومن دون أن يقول شيئًا كان الثلاثة يعلمون مقدار الخطأ الذي اقترفوه، فأنزلوا رؤوسهم إلى الأرض معتذرين إلى المحقق أما هو فقد ارتجف حرفيًّا وتاه مع نفسه لا يدري ما عليه أن يفعل، أجلس سارة على كرسيه بلطف من دون أن يقول شيئًا، ورفع سماعة الهاتف وهو يقول: تستطيعين الاتصال بوالدك ليأخذك إلى البيت بسلام، ثم نادى الحاجب وطلب منه أن يسأل الآنسة إذا ما كانت ترغب في شرب شيء. كانت سارة تراقب كل ما يحدث بذهول! أي نظام متهرّئ هذا؟ ما أتعس مَن لا يحتمي بأحد إذًا! وما أكبر حظها! لقد كانوا جبابرة منذ لحظات، كان سيصيبها ما أصاب ذلك الذي كان يقف أمام مبنى السجن بجروح قديمة وجديدة، كانوا سيفعلون بها ما لا تفعله الوحوش، لكنهم بعد أن عرفوا مَن تكون أصبحوا يرتعدون كأرنب واقع تحت الخطر بعيدًا عن جحره، لمَ لا يوصلونها إلى المنزل وحسب؟ إنهم حتى لا يفكرون بالكذب على والدها، مستسلمون تمامًا لما سيحدث، لا سبيل لمراوغة قد تخطئ فتخسرهم كل شيء بما في ذلك أرواحهم.

في الوقت الذي أخذه والدها ليقطع المسافة إلى مركز التحقيق ذاك، كان الجميع يعامل سارة كأنها صاحبة المكان، وبعد قليل من الوقت اتصل أحدهم بالضابط وقال شيئًا ما كان وجه الضابط كفيلًا بتوضيحه لكلّ مَن لم يسمع مِن الحضور. وما إن وصل والدها حتى ارتمت سارة بين ذراعيه وبكت، نظر إليهم جميعًا نظرات غضب

لا تبشّر بخير، سألها إن كان قد أصابها أذى فأخبرته بكل ما حدث، وأشارت إلى كل واحد منهم وهي تحدثه عن دوره فيما جرى. أشار إليها والدها بالخروج مع حرسه حيث السائق سعد ينتظرها ليعيدها إلى المنزل، ووعدها أمامهم جميعًا أن تحصل المرأة على الرصيف على تعويض كامل، وبعدما خرجت، أمر رجال الأمن الثلاثة بالمغادرة وأغلق الباب عليه وعلى المحقق هناك.

- اسمع أيها الضابط، أنت تعرف أنك هنا تغطي مكانًا مهمًّا في حماية هذا المكان، والتقارير حولك ممتازة، أنت تنجز لنا من الأعمال ما ينجزه خمسة ضباط مجتهدين دفعة واحدة، وعليه سأتغاضى عما بدر منك تجاه ابنتي، إلا أنني لا يمكن أن أتهاون بما حدث معها هناك في سيارة الأمن خلال قدومها إلى المركز.
- تهلل وجه الضابط سعادة حتى كاد يبكي فرحًا:
- هذا كرم كبير منك معاليك! أنت تأمر ونحن ننفذ.
- رجلا الأمن اللذان جلسا في المقدمة يتم فصلهما من دون منحهما أية أتعاب، ويمنعان من العمل في أي وظيفة حكومية، أما ذلك القذر الذي جلس في الخلف مع ابنتي فأريده أن يختفي إلى الأبد من دون أن يدري عنه أحد شيئًا إلى يوم القيامة، وجِدْ أنتَ الطريقة المناسبة لذلك.
- حاضر سيدي! أوامر أخرى؟

- هذا آخر تجاوز سأسمح لك به، وأنت تعرف التتمة.
- لا تقلق يا سيدي! لن تكون هناك هفوات أخرى، أعدك.
- سنرى!

ثم التفّ بظهره عنه وخرج. عند الباب نظر إلى رجال الأمن الثلاثة بعيني صقر ينوي الانقضاض على فريسته، لكنه أطالها عند ذلك الذي أعطى الضابطَ أمرًا بإخفائه إلى الابد، ثم وضع يده على كتفه وربت بها عليه مرتين قبل أن يشيح ببصره ويغادر.

****

-٢-

جلس عدنان على أريكته يأكل بعض حبات من العنب ويرفع قدميه على مقعد صغير منجّد خصيصًا لهذا الغرض، كان يطالع مواقع التواصل الاجتماعي ويقلّب الشاشة أمامه على بعض قنوات المعارضة خارج البلاد، قبل أن يأتيه أحد رجاله المقربين يدعى ريان ويضع هاتفه أمام وجهه وهو يقول: عليك رؤية هذا. نظر عدنان إلى الفيديو على جهاز ريان يعرض صورة لفتاة تقاوم رجال الأمن لأنهم ألقوا بعربة سيّدة على الأرض بكل ما تحتويه. ضحك عدنان وهو يقول:

- رائع ها هي دعواتنا تؤتي ثمارها.
- إلا أن ريان جلس قبالته مبتسمًا:
- ليست هذه هي المفاجأة.
- ماذا إذًا؟
- لو أنك تعرف من تكون هذه الفتاة؟

عدّل عدنان جلسته:

- مَن تكون؟
- ابنة ماهر الكرواتي.

- ماهر الكرواتي وزيرالداخلية؟
- بالضبط.
- أنزل قدميه عن المقعد ولمعت عيناه بسعادة تنسج بسرعة الكثير من الخطط في مخيلته.
- ما الذي تعرفه عن هذه الفتاة؟
- إنها طالبة في جامعة العلوم البريطانية.
- هزّ رأسه ثم قال:
- أرسل إليّ الفيديو الآن وغادر إلى عملك.
- أمرك!

أمضى عدنان ساعات وهو يشاهد الفيديو المصور بواسطة أحد هواتف المارة، والذي بدأ ينتشر مثل النار في الهشيم على مواقع التواصل الاجتماعي تحت عنوان «ابنة وزير الداخلية ترفض طغيان النظام». أعاد المقطع عشرات المرات، ذلك بعد أن نقل الصورة إلى تلفازه ذي الأربع والثمانين بوصة، دقق في كل شيء، في تقاسيم وجهها وجسدها الجذاب لكنه دقق أكثر في صراخها ودفاعها عن السيدة وإلقاء القبض عليها، يجب عليه أن يفهم أكبر قدر يستطيعه حول شخصيتها. هذه الفتاة ورقة رابحة لا محالة، المهم أن يحصل عليها بذكاء. رفع هاتفه واتصل بصديق له يعمل في مجال الإعلام، طلب منه أن يحدد له موعدًا لإلقاء محاضرة عن الديمقراطية في جامعة العلوم البريطانية في أقرب فرصة، ثم اتصل بآخر طلب منه أن يحضر إليه

البرنامج الدراسي لطالبة في الجامعة نفسها؛ سارة ماهر الكرواتي. بعد ذلك قام وفتح حاسوبه المحمول ثم بحث عنها في كل مواقع التواصل الاجتماعي. بدأ بالاطلاع على كل ما يخصها، يجمع ما يستطيع من معلومات حولها، ما تحب وما تكره، إلى ماذا تميل ومن ماذا تنفر، صورها والأماكن التي ترتادها، كل شيء. ساعات أخرى مرت وهو يحفظ كل ذلك في ملف خاص، إنها الآن هدفه القادم.

***

خرج أدهم من الباب المؤدي إلى الحديقة الخلفية لمنزله يرتدي سروالًا قصيرًا ويحمل على صدره العاري منشفة متجهًا حيث تجلس سارة تطالع كتابًا دراسيًا، صاح باسم صفية وطلب منها فنجانيْ قهوة إيطالية، ثم وضع بجانبها أحد رجليه في ماء الجاكوزي الخارجي المجاور لحمام السباحة في الحديقة، تحسس حرارة الماء وهو يقول:

لا شيء يضاهي مثل هذا الانتعاش والارتخاء بعد يوم عمل شاق.

كان الماء يتدفق بقوة من كل تلك الثقوب مصدرًا صوتًا هادئًا محببًا إلى النفس ومريحًا للأعصاب.

وجّه كلامه إلى سارة مباشرة بعد أن تجاهلته في المرة الأولى:

- ترى ماذا تطالعين؟

قالت من دون أن تلتفت إليه:

- إدارة الأعمال الدولية.

رفع حاجبيه بإعجاب قبل أن يقول:

- حالما تنهين دراستك ستعملين معي جنبًا إلى جنب في إحدى الشركات، وإن أثبتِّ جدارتك منحتك إدارتها.

لم ترفع رأسها عن الكتاب ولم تعلق.

قاطعتهما صفية وهي تضع فنجان القهوة أمام سارة التي شكرتها وآخر أمام أدهم الذي قال لها:

- صفية! لقد نسيتُ إحضار خفّ الاستحمام، هلّا أحضرته؟

قدّمت صفية تحية الطاعة وغادرت لتحضر ما أمرها به أدهم قبل أن ترفع سارة رأسها إليه لتقول:

- حتى هذا ستحضره صفية!
- هذا ما تأخذ عليه أجرًا.
- عادت لتحدق إلى كتابها من دون أن تقول شيئًا.
- ما بكِ يا سارة؟ لمَ هذا التجاهل أنا هنا أتحدث إليك؟
- عندي اختبار بعد ثلاثة أيام، أحيانًا يكون هناك ما هو أهم من مجرد التحدث إليك عن الوصف الوظيفي لصفية.
- عدنا مجددًا إلى الدفاع عن المساكين.
- أغلقت الكتاب وقد استفزتها جملته الأخيرة كما توقع تمامًا.
- أنا أعلم أن أبي وأمي هما من أرسلاكَ إليّ. لا أفهم! ما الذي لا يعجبكم فيما فعلت!
- مدّ ذراعيه عن آخرهما على حافة الجاكوزي الساخن و مدّ رجليه وقال باستخفاف:

- إضافة إلى أنكِ كدت تلطخين سمعة والدك وتثيرين ضجة حوله، فنحن نعتقد أنك أصبحت ناضجة بما يكفي لتفهمي كيف على فتاة مثلك أن تتصرف.
- كيف أتصرف؟ كل هذا لأنني ساعدت سيدة تبيع الخبز على الطريق.
- لا! هذا لأن مَن سَبَبْتِهم بهذه الطريقة يعملون تحت الجهاز الذي يعتبر والدك مسؤولًا عنه كما أظن.
- ما شأن أبي! هؤلاء رجال أمن قذرون وعلينا معاقبتهم.
- تمّ!
- ماذا؟
- والدك فصل الرجلين اللذين كانا معك في السيارة، إنهما في بيوتهما الآن يسفان التراب طعامًا لهما ولأسرتيهما.
- تقصد الثلاثة؟
- الثالث قطعت رقبته!
- ماذا؟
- كما سمعتِ.

ثم أمرَّ إصبعه على رقبته بسرعة إشارة إلى عملية قتل.

شهقت عاليًا وهي تقول:

- قتلوه؟

هزّ رأسه بإيجاب قبل أن تقول هي بصوت عالٍ:

- بأي حق؟

إلا أن أدهم أخفض صوته لينبهها إلى ارتفاع صوتها وهو يقول

- لقد تجرأ ومدّ يده عليكِ يا سارة. لا أحد يفعل هذا مع ابنة ماهر الكرواتي.
- صحيح! لكن أن يصل الأمر إلى قتله! هو لم ينلْ مني شيئًا.

ضحك وهو يقول:

- يا أختي يا صاحبة القلب الذهبي، مثل هذا يستحق أن يذوق الموت ألف مرة قبل أن يقتل، وأعتقد حسب توصيات الوالد أنهم قد فعلوا ذلك حقًا.
- يا إلهي!

عدّل أدهم جلسته وقال بصوت حازم صادق ومحب:

- اسمعي أيتها البلهاء،على هذه الأرض يعيش نوعان من الناس؛ المساكين والعظماء. لقد خلقك الله من النوع الثاني وعليه عليكِ أن تلتزمي بنظامه! ماذا تريدين من هؤلاء البسطاء؟ إنهم ساذجون لا يرون أبعد من أنوفهم، همّهم أن يأكلوا خبزًا آخر النهار، و لأكون صادقًا معك أعتقد أنهم عبءٌ على أرض العرب، لكن لا يجب أيضًا الاستهانة بهم، إنهم لو انقضّوا علينا فسيقطعونا تحت أسنانهم إربًا. ثم شرد قليلًا قبل أن يكمل: «أتذكرين ذلك اليوم عندما سألتني إن كان

شيء ما يقلقني؟ نعم يا سارة هذا ما يقلقني، ويبدو أنه حان الوقت لتعلمي ما الذي يدور حولك؛ هؤلاء الأغبياء يتكتلون على شكل عصابات يريدون الإطاحة بالحاكم وحاشيته وهذا يعني نحن يا سارة، إنهم يرغبون بأن يحكم هذه الأرض أغبياء مثلهم. بطريقة أو بأخرى فإن هؤلاء أعداؤنا يا سارة، وكلما ألهيناهم بلقمتهم أكثر، أراحوا أدمغتنا من عوائهم. عليكِ أن تفهمي أن هذه الأرض خلقت للنخبة من أمثالنا فقط، وعليه دَعي كل شخص فيها يعِشْ دوره، المسكين يبقى مسكينًا والعظيم يبقى عظيمًا، ولا تؤمني أبدًا بإمكانية خلط هؤلاء معًا».

بقيت تنظر إلى عيني أخيها تحاول فهم ما يقول! عظماء ومساكين! لقد ظنت طويلًا أن العظماء هم مَن يعملون من أجل المساكين، لكن يبدو أن المعادلة هنا مقلوبة، المساكين إذًا مراتب الكبار، يتم تكديسهم ودوسهم والارتقاء على أكتافهم! تنحنحت وقالت:

- أبي لا يزال غاضبًا مني.
- إذًا عوّضي عليه ليلة الأربعاء.
- كيف؟
- تجهزي جيدًا للحفل يا سارة، سيكون دولة رئيس الوزراء حاضرًا وبالطبع نجله فادي.

فهمت ما يرمي إليه فقالت:

- لن أذهب. وهما فليذهبا إلى الجحيم.

لكنه قال بنفاد صبر:

- افهمي يا سارة، لا تظني أن فادي واقع في غرامك، لكنه شاب ذكي وهو يفهم المعادلة تمامًا، ويدرك أنه إن لم نتكاتف ونحمي بعضنا بعضًا فإن كل القوى المدمرة في الخارج ستسيطر علينا.
- وأنا كبش الفداء!
- لستِ كبش فداء، فادي لا ينقصه شيء، إنه يدير أربع شركات كبيرة ومعه درجة دكتوراه في إدارة الأعمال، وهو ابن وزير الدفاع ورئيس الوزراء، هل تعلمين معنى رئيس الوزراء! هل تعتقدين أنك لو درت أرض العرب كلها لتبحثي عن مثله ستجدين؟
- ماذا لو لم يكن يرغب بي هو أيضًا.
- لا تخافي! لا أحد يمكن أن يقول لا لفتاة مثلك أبدًا. ثم إن والدي و«دولته» قد اتفقا تقريبًا، وفادي لديه دراية بالأمر.
- كل هذا من دون علمي! كيف تفعلون ذلك.
- نفعل ماذا! لكلٍّ منا هنا دوره يا سارة! أنا أدير شركات أبي من دون أن أجادله في طبيعة العمل الذي أحب أو أكره، وسأتزوج كما يأمرني. إن أردتِ أن تحتفظي بمكانتك على هذه الأرض عليكِ أن تفعلي ما يتحتم عليك فعله. لهذا أيتها الرائعة، كوني

جميلة تلك الليلة وافردي له هذا الوجه قليلًا، لا داعي لوجه البوم الذي تلبسينه كلما قابلك.

رجعت بظهرها إلى الخلف وهي تنظر إلى شفق المساء الأحمر الذي امتد على طول السماء؛ يا إلهي ليس فادي! إنها لا تحتمل التحدث إليه دقيقة واحدة، وهم يريدونها أن تعيش عمرها كله معه! لم لا يرى الجميع كم هو ثقيل الروح وعديم الظل. قطعها صوت أدهم وهو يغادر الماء ويلف نفسه بالمنشفة التي بجواره ويتجه نحوها:

- ماذا قلتِ؟
- سأحاول.

ابتسم ابتسامة نصر وهو يقول:

- هذه أختي ابنة أبي وأمي، سيدة هذه الأرض، سندي وظهري في الدنيا.

ثم اقترب وقبَّل جبينها وغادر.

تركها وقد أشعل في صدرها فتيل الحيرة، لطالما كان أدهم الأقرب إليها في العائلة. أخوها الأكبر وصديقها الأصدق، لكنه للمرة الأولى يتحدث إليها بفلسفته الخاصة حول ما يدور حوله. بدأ يشبه والدها نوعًا ما، إلا أن تصريحاته واضحة ومخيفة. والدها غاضب إلى حد أنه لم يخاطبها منذ عادت من مركز الشرطة ذاك، لم يعاتبها أو يسألها شيئًا أكثر مما سألها أمام ذلك الضابط، إنه يصمت وحسب إن ظهرت حوله. أما أمها فهي تؤمّن على ما يقول والدها من دون أن تنحرف عن ذلك

مرة واحدة، إنها تعرف الذي جرى، لم تناقشها فيه ولم تبدي أي ردة فعل إيجابية أو سلبية حوله، تتصرف معها كأن شيئًا لم يكن. عادت إلى أدهم الذي يصدقها القول والاهتمام دومًا، لقد جعلها تشعر بأنها قامت بأفظع عمل يمكن لإنسان أن يؤذي به عائلته! لكنها لم تفعل شيئًا، هي فقط مدت كفها إلى محتاج وهو الآن يطلب إليها أن تجعل نفسها كبش فداء طلبًا للغفران، وإلى مَن إلى فادي! إنها على استعداد أن تتزوج والده الستينيّ على أن تتزوجه هو. لا تدري كيف في عشرين دقيقة قلب أدهم كل المفاهيم التي تحملها رأسًا على عقب! هو مَن كان يأمرها بأن تكون حرّة وعزيزة وكريمة، مَن يدفعها للمشاركة مع والدتها في الكثير من الأعمال الخيرية التي تستهدف الفقراء من هذا الشعب، يطلب إليها الآن أن تتزوج من فادي حتى لا ينقلب الفقراء عليهم! ويصنف البسطاء على أنهم أعداؤها. غطّت وجهها بكفيها، ليتها ما ذهبت إلى الجامعة ذلك اليوم! ليتها بقيت في سريرها تحت الغطاء الدافئ وتركته يمضي إلى عمله من دون أن ترافقه، ليتها لم تمدّ تلك اليد إلى تلك المرأة، لا! ما كانت تستطيع أن تفعل، لو أعاد المشهد نفسه ألف مرة ما فعلت إلا ما فعلت. عادت إلى أمنيتها السابقة، ليتها فقط لم تذهب.

***

دخل من بوابة الجامعة كثعلب يبحث عن فريسة بعينها، تحدث إلى بعض رجال الأمن على البوابة فعرفوه، كان قد أتى لزيارة المكان عدة مرات قبل اليوم بعد أن أخذ موعدًا لإلقاء محاضرة حول

الديمقراطية للطلبة في أحد المدرجات، ركن سيارته حيث أشار إليه أحدهم في المكان المخصص للضيوف، كان على غير عادته قد جاء وحده، وقاد سيارته بمفرده، يجب أن يبدو رجلًا طبيعيًّا أمام الجميع. وضع نظاراته الشمسية على عينيه ومضى برزانة كبيرة حيث يستدعي مخططه. كان تأخر قليلًا على أحد الجسور في الطريق بسبب مرور بعض السياسيين الكبار. «لا بأس» قال في نفسه بعد أن نظر إلى ساعته، لم يمضِ الكثير من الوقت على الحادية عشرة، لكنه خائف أيضًا أن هذه الدقائق السبع التي أضاعها كانت لسوء حظه قد أحضرتها وغيّبتها قبل أن يصل! وصل باب الكافتيريا المرجوّة ووقف على الباب الكبير ينظر إلى المكان بفراسة، يحدّق إلى كل من يمشي ومن يقف ومن يجلس. لم يجدها فتوجه إلى نقطة الشراء، واشترى كوب قهوة ثم جلس. ستكون داخل المكان في أي لحظة فهي تأتي كل يوم إلى هنا، تأخذ كوبًا ساخنًا من مشروبٍ ما، لا يبدو أن لديها واحدًا مفضّلًا بعينه، تشتريه وتمضي إلى المكتبة أو تجلس مع بعض الأصدقاء في الكافتيريا، كان هذا هو النمط الذي تتبناه في الأيام الثلاثة الماضية كما جاءه في تقرير أحد رجاله، ومن المفترض الآن أن لديها ساعتين من الوقت الحُرّ قبل أن تتابع محاضراتها! هكذا أخبره الجدول. إذًا فقد درس خطواتها جيّدًا، هَدّأ نفسه وصبّرها فهي حتمًا ستأتي، يعمل القدر دومًا لحسابه وسيفعل الآن أيضًا. ها هي! تقف عند نقطة البيع وتشتري شيئًا، ترك فنجانه الساخن على الطاولة وأصلح هندامه الذي اختاره بعناية ومضى حيث تقف، إنها تطلب الموكا! ما تكون الموكا يا ترى؟

كان يظنّ أنه يعرف كل شيء وإن لم يشرب، إلا أن هذا يبدو له مبهمًا! يبدو إذًا أنه لا يعرف شيئًا. تجاهل دورها متعمدًا وهو يطلب فنجان قهوة آخر بدلًا من ذلك الذي تركه يبرد على إحدى طاولات المكان. لم تقل شيئًا، لكنها رفعت عينيها إليه بتعجب فيه اعتراض مكبوت، وكان هذا في الحقيقة كل ما يريده؛ أن تراه. اعتذرت النادلة إليه وطلبت منه الانتظار حتى يحين دوره بعد الآنسة، فاعتذر إليها كأنه ما كان منتبهًا، ثم التفت حيث سارة واعتذر منها بلباقة مدروسة. قبلت اعتذاره من دون أن تقول شيئًا، ثم التفتت إلى النادلة تأمرها بإنهاء طلبه أوّلًا إن استطاعت فهو كما يبدو ضيف هنا، أعطته النادلة قهوته فشكرها وهمَّ بالمغادرة، قبل أن يعود حيث سارة ويسألها إن كانت تستطيع أن ترشده إلى مكان مدرّج الثقافة الحرّ لأنه لا يعرف المكان جيّدًا، حاولت أن تدلّه شفهيًا لكنها تعرف أنها عبثًا تحاول فهو لا يعرف عن الكليات هنا شيئًا. أشارت إليه بالانتظار حتى تأخذ مشروبها، إلا أن الموكا كانت بالفعل جاهزة. نظر إلى الفنجان وحاول من دون قصد أن يلتقط شيئًا من رائحته. سارت معه حتى باب الكافتيريا وأشارت إليه كأنها ترسم طريقًا في الهواء تدلّه على أقرب خريطة للجامعة، لكنه في الحقيقة لم يسمع شيئًا فهو يعرف المكان جيّدا، شكرها وهمّ مجددًا بالمغادرة، قبل أن يعود ليلتفت إليها ويسألها وهو يعرف:

- ماذا لديك خلال الساعة القادمة؟

لم تجب وقد توجست من لحن سؤاله قبل أن يضحك بعفوية مصطنعة ويقول:

- أعني إن لم يكن هناك شيء مهم، أتمنى أن تنضمي إلينا في محاضرة سألقيها بعد نصف ساعة حول الديمقراطية ودور الطبقات الغنية في تطبيقها وتنمية الوعي بضرورة ذوبان الطبقية أمام الديمقراطية الحقيقية. وهي بالطبع تستهدف توعية طلاب هذه الجامعة العريقة إلى دورهم في تعزيز سبل الديمقراطية في الأماكن التي قد يشغلونها مستقبلًا.

إنه حقًّا موضوع يعنيها، خصوصًا الآن، لكنها يجب أن تنهي ما عليها قبل حفل الليلة:

- لا أدري يبدو الموضوع مشوّقًا حقًّا، لكن يجب أن أتوجه إلى المكتبة عليّ أن أتقدم لامتحان مهمّ غدًا، وأنا بحقّ أحتاج إلى الدراسة.

حيّاها برأسه، وهو يقول: بالتوفيق، سنخسر حقًّا عدم وجودك هناك.

كان يحادثها بعناية وثقة، وشيء في صوته وعينيه يدعوانها إليه شخصيًّا.

- سأحضر. قالت له.
- رائع. نلتقي هناك إذًا، أتمنى أن يكون ما سأقوله لافتًا ليبقيكِ حتى النهاية كي أستطيع أن أستمع إلى رأيك وانطباعاتك حول المحاضرة.
- أنا واثقة من ذلك.

شاهدها وهي تغادر وبارك لنفسه نجاحه المعتاد في الحصول

على ما يريد، بقيت خطوة واحدة يا عدنان وستكون هذه أسرع عملية استحواذ قمتَ بها على الإطلاق، إنها كما يعتقد تفتقر إلى الصديق الذي يشاركها أحلام السلام العالمي والتوافق والتعاون بين طبقات المجتمع المختلفة، هذه فتاة تحلم بالسراب وهو شخصيًّا مَن سيقدّمه إليها.

لم تبتعد كثيرًا عن الكافتيريا، إلا أنها اختارت مقعدًا قريبًا من المدرج الثقافي وفتحت كتابها وبدأت تطالع وتستعجل نفسها كي تستطيع إنجاز ولو جزء بسيط مما كانت تنوي إنجازه قبل أن تلتقي ذلك الرجل! كانت تقرأ دقيقة وتعيد شيئًا مما قال في رأسها دقيقتين، تقرأ سطرًا ثم تنظر إلى ساعتها تعاين الوقت المتبقي لتلك المحاضرة. يالعجائب الأقدار! إنها الآن في أمسّ الحاجة إلى محاضرة كهذه، قد تحمل لها بعض الأجوبة على الأسئلة التي تدقّ أبواب عقلها الذي يقف صامتًا لا يجيب، بعد حديثها مع أدهم تكاد لا تتعرف إلى نفسها، و هي في الحقيقة لا تمتلك أحدًا قد يفكر معها بالعمق ذاته الذي ترغب. إن أصدقاءها أبعد ما يكونون عن مثل هذه المواضيع، إنهم يتسابقون على شراء السيارات الفارهة ويتباهون بالماركات التي يلبسون أو في أحسن الأحوال يتحدثون عن علاقات عابرة أو عن سبل لفت انتباه مَن وقعوا ضحية الإعجاب بهم. حانت الساعة، لكنها بقيت متعمدة تجلس في تلك الزاوية، لا تدري لمَ لا تريد أن تكون أول الحاضرين، شيء ما يقول لها انتظري قليلًا وادخلي حين يكون الجميع قد جلس. تأخرت قليلًا لكنها أيضًا لا تريد أن تضيّع الكثير مما سيقول! دخلت المدرج وسمعت

صوته يضجّ في المكان، بحثت عن مكان قريب من المنصة فلمحها، كان قد قال كلّ شيء لا يهمه قوله أمامها، وأجّلَ كل الأقوال التي ستجذبها إلى أن رآها، جلست وهي تطالعه باهتمام؛ قميص أسود أزراره بيضاء ناصعة ومرتبة بانتظام، يكشف تحته عن جسد ذي بنية رياضية واضحة، مثني الأكمام يكشف عن ذراعين سمراوين قويتين كثيفتي الشعر. يرافقه سروال يحمل اللون نفسه يلتفّ حوله حزام أسود يتوسطه (إبزيم) فضي يعكس بقوة أضواء المدرج الساقطة عليه، ويليق بإطار الساعة الفضية في يده والحذاء الأسود المطلي بعناية. كان فصيحًا ذا حضور طاغٍ وتعابيره قوية وجريئة، صوته يظهر في مكبر الصوت، ذو رنة رجولية محبّبة وقريبة. تحدّث كثيرًا عن الطبقات المسحوقة التي تنتظر المنقذ على هذه الأرض، و كيف أن الأثرياء إن كانوا لا يريدون أن ينفقوا أموالهم على هذه الفئة فإن من دورهم أن يمدّوا لهم يد المساعدة للنهوض بأنفسهم وإنجاز دور فاعل داخل مجتمعهم بدل أن يكونوا عبئًا عليه! وأول خطوة في تحقيق ذلك هو السماح لهم بحرية التعبير والفضفضة، ومنحهم القليل من الطبشور ليرسموا أحلامًا تخصهم، وأن تتم مشاركة الأذكياء منهم بالجهد والتفكير والإدارة ومنحهم القروض ليبدؤوا مشاريعهم الصغيرة، فلا شيء سينهض بالدولة اقتصاديًا كالمشاريع الصغيرة، ولا شيء سيقود إلى استقرار البلاد كتعاون مدروس بين الطبقتين. كانت تصغي باهتمام! ما أجمل ما يقوله هذا الرجل، هذا رجل قد يخفق قلبها له، إنها تشعر كأنه يحاور فؤادها الحائر، وها هو ينظر إلى عينيها كلما سنحت له الفرصة ولا تبالغ إن قالت لنفسها إنه يبتسم لها كلما نظر.

إنها تشعر أن هناك شيئًا ما غير اعتياديّ يشق طريقه بينهما، ها هو ينظر إليها مجددًا وهو يتحدث عن الفجوة التي اتسعت اليوم بين الفقراء والأثرياء، و كيف أنه من الجميل أن يقدم الأغنياء أموال التبرعات إلى الفقراء، لكن ليس بالطريقة التي تقوم عليها الجمعيات اليوم، فهذا لا يكفي. إنها تطعمهم وتكسوهم لكنها لا تساعدهم ولا تعلّمهم أن يبدأوا شيئًا وحدهم أبدًا. كم تشبهها أفكاره! هذا شخص تستطيع أن تتحدث إليه بعمق عن كل ما كانت تفكر فيه في حين لم تجد لها مستمعًا. أنهى محاضرته في أربعين دقيقة لم تشعر بها سارة إلا أنها تطير سعادة بما تسمع، وتحت تأثير سحر الكلام ربما أيضًا تطير حبًّا. غادر الطلبة وبدأ هو بلملمة أوراقه، أما هي فبقيت تجلس مكانها تنظر إليه وتعلم يقينًا أنه سيخاطبها، لا يمكن أن تخطئ المرأة حدسها حين يخبرها أن رجلًا ما يريد التحدث إليها. رفع رأسه وقال بصوت رنّ صداه في أرجاء المكان الفارغ: « لم تغادري بعد!». «أنت أردتني أن أبقى حتى النهاية لتسمع رأيي». ابتسم وهو يقول: «يشرّفني ذلك، لكنك بحاجة أن تنزلي عن ذلك الكرسي كي نستطيع متابعة الحديث». قامت من مكانها ونزلت ببطء أنثى تتباهى بجسدها أمام رجل، لم يبعد عينيه عنها حتى وصلته وتعارفا؛»عدنان الوالي»، أستاذ في التنمية الاقتصادية في جامعة العرب، «سارة الكرواتي» طالبة في كلية الاقتصاد. ظهر لها كم فوجئ عندما علم أنها ابنة الوزير الثائرة على رجال الأمن لتدافع عن سيّدة تحاول أن تجد قوت يومها، وشعرت كيف أصابته الدهشة والإعجاب معًا، كان يتصنع في طيّات صوته الفخر وهو يقول لها بأنه

أشجع عمل رآه منذ سنوات، ثم طلب أن يحصل على رقم هاتفها كي يخبرها بمواعيد وأماكن محاضراته المشابهة إذا كانت ترغب بالحضور، حصل على موافقتها وعلى رقمها وهو واثق أنه حصل على جزء لا بأس به من قلبها. لقد نال اليوم مبتغاه ونجحت خطوته الأولى بامتياز.

***

«أخرِس صوتك يا خالد، لا تقل شيئًا! مُت. اقطع أعصابك مزّقها، وارقص على صوت المطارق لكن لا تقل شيئًا، فإن علموا بطربك غيّروا أسلوبهم. ارقص بصمت لا تظهر لهم إلا الأسى، واجعل سلامك نائمًا في القلب فإن علموا انسجامك غيّروا أنماطهم، وأنت لن تحتمل شكلًا جديدًا، فاسعد بصوت الطبل كأنه إنذار ثورة، وانظر إلى نار العذاب كأنها شمس تُحَيي خضرة المروج التي تشتهي، أو تشرق فوق بحر لامع من الأحلام. ابكِ إذا أردت لا تخجل فإنهم لا يعرفون الفرق بين الدمع أو الدم، بين الخوف أو التماسك أو التلوي، لن يسجلوا لك رقمًا قياسيًّا في كبتِه فابكِ، لا تقلق إنهم لا يرون شيئًا فيك، إنهم يبحثون عن الكلام فافعل كل شيء دونه لكن لا تقل شيئًا. ولا تتنكر للنعمة يا خالد، إن اللاوعي ملجأ رائع في الأزمات، كم ممن ماتوا لم يعرفوا إليه سبيلًا، كم مِمن خارج القضبان يدفعون المال على شحّه ليدوروا دورة واحدة في دهاليزه البعيدة، وأنت تعيش هناك طويلًا وكثيرًا، فاشكر حظك أنْ أعطاك من نعمه الكثيرة!».

دار حواره ذاك مع روحه أو قرين لها لا يدري من يكون إلا أنه كان دومًا الصديق الوفي الذي لا يفارقه في غرفة التعذيب. لكنه الآن وتحت رجفة صعقةٍ تسري في خلاياه بأمرٍ من حديد أتاه صوت صاحبة العينين العسليتين:

«احتمل يا خالد! سأقطع يديه وسأصيبه بما أصابك يا مسكين!».

دار حول العتمة يلحق بصدى الصوت ويصيح: «قلتُ لكِ لست مسكينًا».

«بل مسكين يا خالد، قل لهم ما يريدون أن يسمعوه وانجُ بنفسك».

عاد قرين الروح يقول له: «أخرِس صوتك يا خالد ولا تقل شيئًا».

يصيح خالد: «لكنني ما عدت أستطيع، لو كنتَ مكاني لاستسلمت قبل الآن بكثير».

لكنّ صوت حديد الغليظ قاطعهم جميعًا وهو يقول: «لستُ مكانك أيها الوغد الحقير».

يعود صوتها يغريه: «إذًا فقل لهم يا خالد، قل لهم وتعال إليّ. ألم تشتقْ إلى وجهي وصوتي وعينيّ؟ سأقطع يديه وأصيبه بما أصابك وأغني لك كثيرًا أيها المسكين، فقط قل له ما يريد أن يسمعه وتعال».

صاح كثيرًا، خافت من صوته فابتعدت، ناداها يعتذر، فالألم لا يسمح له بالصبر كثيرًا من دون صراخ، لكنه سيحاول ألا يفعل ذلك في وجهها مجددًا، سيتمالك نفسه قدر المستطاع.

ناداها «لن أصرخ لا تخافي، تعالي غنّي لي، لا تتركيني هنا مع

حديد، يكاد يكسرني، يكاد يصل يا هذه وإذا وصل سأقول كل شيء. سأقول».

يقاطعهما صوت حديد مجدّدًا: «ستقول إذًا، هيا انطق أريد اسمًا، اسمًا واحدًا».

قالت له: «قل إذًا».

«ما سأقوله قد يقتل الأمل الأخير في أرض العرب».

قالت تثنيه: «لا يتعلق الأمل بفرد واحد يا خالد، قل وارحم نفسك أنت تهلكها، قل وسأصيبه بما أصابك وسأقطع يديه».

«لا تقولي مسكين».

«لم أقل».

«اقتربي لمَ أنتِ بعيدة جدًّا؟».

«أخاف أن تصرخ في وجهي».

اقتربت قليلًا لكنه طلب منها أن تقترب أكثر.

«لن تصرخ؟»، سألته.

«لن أفعل».

عاد صوت حديد الغليظ يقول: «لن تفعل؟! تتلاعب بي أيها الساقط المنحطّ، حسنٌ إذًا لتذهب أنت والأسماء إلى الجحيم، سأجعلك تزور الموت الآن يا خالد».

عاد قرين الروح يقول: «أخرِس صوتك يا خالد، و لا تقل شيئًا، مُت. اقطع أعصابك مزقها».

كتم صوته وقطع أنفاسه لا يريد أن يصيح في وجهها القريب،

رآها تنظر إليه وهو يكاد يفلت الصبر من بين يديه، علم قرين الروح أن حديدًا وصل أو كاد يصل، تماسك خالد يائسًا لكنه أفلت الصبر وصرخ في وجهها، صوتًا وحشيًّا مرعبًا رحلت على إثره إلى الأبد، وسكت أمامه قرين الروح لا يملك له شيئًا. لكنّه لم ينتبه إلى رحيلها ولا إلى صمت القرين فقد كان يقع في بئر مظلمة لا أحد فيها، سقط وظل يهوي من دون أن يصل أبدًا إلى القاع وغاب.

عندما استيقظ كان في فراش وثير، في غرفة دافئة، جسده موصول بمحاليل، كان يشعر كم أن جسده نظيف، وأغلب الأوجاع زالت، نظر حوله، كان في بيت فاخر قديم البناء كقلعة أو قصر! نادى طويلًا وكثيرًا. سمع صوتها! نعم إنه صوتها لا يمكن أن يخطئه، إنه قادم من خلف الباب يأمر أحدًا بشيء ما قبل أن يفتح وتطلّ عليه. إنها هي، حدّق إليها طويلًا بذهول لكنها جلست على مقعد أمام سريره وهي تقول:

«الحمد لله على السلامة يا سيد خالد».

تعرف اسمه أيضًا! كان الذهول سيد الموقف لديه، إنه لا يفهم، كيف هو هنا وكيف تكون هي بالذات إلى جواره؟ إنه لا يعرف حتى مَن تكون.

اقتربت قليلًا حتى ظهرت له تينك العينان بوضوح؛ إنه لم يكن يرى جيدًا، لكنهما عيناها حتمًا!

«هل أنت جائع؟».

كان فمه مفتوحًا وعيناه شاردتين حين هزّ رأسه بإيجاب.

«لقد أمرتهم أن يحضروا لك طعامًا، أتريد ماءً قبل أن يأتوا به إليك؟».

هز رأسه نافيًا. يا الله! إنه لأول مرة مذ يذكر لا يكون عَطِشًا. أين يكون يا ترى؟

«هل هذه الجنة؟»، قال لها.

ضحكت ضحكة عفوية مجلجلة، كان يتمنى أن تضحكها مجددًا حتى يحفظها في رأسه جيّدًا. لكنها قالت:

«ليست الجنة، لكنني سعيدة أننا استطعنا أن نشعرك بذلك قليلًا».

قليلًا! هل تدري هذه الجميلة كم عاشت بين طيات مشاعره وفي دهاليز عقله؟ لقد كانت جنته في السجن وهي الآن جنته حيث لا يدري أين.

دخل رجل بصينية طعام، وضعها أمامه على السرير، فوقها شيء ساخن! يكاد لا يصدق أن هذا الطعام له، نظر إليه طويلًا لكنه لم يأكل.

«هذا طعام بسيط، حساء صنعه لك الرجال وقطعة الكعك هذه أنا صنعتها».

هل حقًّا يستطيع الأكل! نظر إلى المحاليل وهو يعتقد أنه ربما لن يستطيع أن يضع شيئًا حقيقيًّا في معدته.

نادت على أحد الرجال والذي يعمل ممرضًا وطلبت منه أن يزيل جميع الأنابيب عن يديه قبل أن تقول:

«أنت بخير، كُل».

مد يده إلى قطعة الكعك أولًا، أخذ بإصبعيه مقدار قضمة ثم

تذوقها وأغمض عينيه، سُكّر! أيّ نعيم! يكاد يبكي. ما زال يظن أنه في الجنة.

«ابدأ بالحساء أولًا»، قالت له!

مدّ يده اليسرى وأخذ الملعقة وهمّ بالأكل، شرب شربة قبل أن تقوم هي وتقول للرجال: «دعوه يأكل من دون إزعاج، وليقف أحدكم خلف بابه حتى إذا ما نادى أجبتموه».

إلا أنه رفع كفه الأخرى ليستوقفها فارتجفت كفه، نظر إليها حاول إيقافها لكن الرعشة تستمر، عرف أن يده عطبت، وأنها ربما ستبقى هكذا إلى الأبد! نظرت إليه وقالت له:

- لا بأس أنت بخير، حين أتيتَ إلى هنا لم نكن نظنك ستنجو.

هو ليس في الجنة إذًا!

أتاه صوتها مجدّدًا: «سيد خالد، كنتَ تريد أن تقول شيئًا قبل أن أغادر؟».

هزّ رأسه وقال: «أريد مرآة، إن كان بالإمكان».

أشارت برأسها إلى أحد الرجال الذي انطلق ليحضر واحدة، قبل أن تتجه هي خلفه إلى الباب ثم تلتفت وتقول: «اعتبر نفسك في منزلك، والرجال حولك حتمًا سيقومون على خدمتك. أراكَ قريبًا».

غادرت وراح قلبه وراءها! توسل إليها من دون صوت أن تبقى! لكنها غادرت وعاد هو إلى نعيم الطعام الذي أمامه.

***

-٣-

لم تكن سارة مولعةً يومًا بالحفلات الليلية التي يقيمها السياسيون في أرض العرب. إنها رسمية نوعًا ما، ومليئة بالحديث السياسي الذي لا تستطيع الغوص فيه كثيرًا. أما النساء هناك فقصة أخرى، لا يحضرن للمتعة أبدًا، هن يحضرن لينشرن الفضائح أو ليتباهين أمام بعضهن أيهن تمتلك ثروة أو مجوهرات أو حتى أردافًا أكبر. في الماضي كان من السهل قبول اعتذارها عن الحضور، في الحقيقة فإن حضورها قبل الجامعة كان غير مرغوب فيه، لكنها في العامين الماضيين كانت مجبرة على الذهاب، وهذا العام أيضًا. ليتها تستطيع الاعتذار! فهي تمتلك عذرًا حقيقيًّا، فلديها اختبارٌ مهمٌّ صباحًا، لكن والدها لا يأبه وهو يعرف أنه لا أستاذ في أرض العرب يجرؤ أن يضع لها درجة منخفضة حتى لو لم تكتب شيئًا على الورقة! لكنها لا تريد ذلك، تريد أن تحصل على الدرجة بجهدها. إنها لا تطيق عدم الاحترام المزروع خلف الخوف وتلك النظرات الغريبة في عيون أساتذتها إن أُجبروا على وضع درجة لا تتوافق وإنجازها، خصوصًا إن كان من دون مقابل. إنها دائمًا ما تجتهد، لكنها أحيانًا تخفق ولا يجرؤ أحدٌ على الاعتراف بإخفاقها!

كالمعتاد، أمها لن تغادر البيت في نهار كهذا وستنام طويلًا كي يرتاح وجهها، ثم ستستيقظ وتحضر كلّ مَن تعرف في المدينة من خبراء التجميل المحترفين، وستخضع لمساج طويل يريح أعصابها وعضلات جسدها ووجهها، لن تأكل شيئًا سوى عصير الخضر الذي سيضمن لها بطنًا مسطحًا، وستجلسها أمامها وقتًا طويلًا لتأخذ رأيها حول أكثر من سبعة فساتين جديدة كانت أحضرتها من الخارج أو صنعتها خصيصًا لمثل مناسبات كهذه عند أشهر مصممي الأزياء في أرض العرب، ثم لا ترتدي إلّا ما أرادت أن ترتدي منذ البداية! وستلحّ بالسؤال حول العقد الذي عليها أن تضعه حول عنقها أو ربما لا تضعه وتكتفي بالأقراط فقط. ثم بعد ذلك ستجبرها أمها على ارتداء فستانٍ بعينِه، من دون الأخذ في الاعتبار إن كان يعجبها أو لا، هي فقط تجده مفرودًا على سريرها وتسمع أمر ارتدائه من صفية شخصيًّا! تحمد الله أن لدى والدتها ذوقًا رفيعًا. سترتديه ثم سيحضر مصفف الشعر الخاص بوالدتها ليخيّرها بين ثلاث تسريحات محددة لشعرها وإسداله ليس من بينها، ثم سيتم التعامل مع خبيرة تجميل لتضع مساحيقًا تلائم سنّها والمناسبة التي تحضر، تعمل فوق وجهها كأنها ماكنة فوق أحد التماثيل، لا تتحدث ولا تبتسم، من أين أتت أمها بها! إنها حتى لا تعير كلامها انتباهًا إن حاولت أن تطلب منها تعديل لون ما أو إزالته، وهذه المرة اختارت لشفتيها الأحمر القاني الذي لم يعجبها قطّ. بعد ذلك سينظر أربعتهم بعضهم إلى بعض، يتحقّقون من أن هيأتهم مناسبة.

سيقع فادي في غرامها حتمًا الليلة، هكذا قال أدهم حين رآها، لكن أمها أكدت بأن كلّ من سيكون موجودًا هناك سيفعل، أما والدها فنظر إليها ودقق في هيئتها لكنه لم يقل شيئًا.

مواكب ستنطلق الليلة للوصول إلى الحفل، أكثر من سبع سيارات ترافق كلًّا منهم، ولا يدري مَن في الطرقات في أيّها يجلس من انطلق الموكب لأجله. ألم تكن تكفي واحدة أو اثنتان؟ ترى ما الذي يدفعها للتفكير بهذه الطريقة، هل يمكن أن تكون كما تقول أمها دائمًا «وجه فقر». وصلوا حيث اليخت الكبير، تقام الكثير من الحفلات فوق هذا اليخت الذي يمتلكه رئيس الوزراء، لكنها كانت المرة الأولى التي تصعد فيها على سطحه. هزّ أدهم رأسه باستمتاع على أنغام الموسيقى ذات الدقة الهادئة، طرقعت أمها بأصابعها وتمايلت بجمال في الهواء المنعش، حتى سارة أغمضت عينيها واستنشقت ذلك النسيم، إنه بالفعل المكان المناسب لقضاء ليلة مختلفة. قدَّم إليهم النادل بعض الشراب، اختار الثلاثة أنواعًا مختلفة من النبيذ بينما وقفت سارة تنظر بعينيها تبحث عن شيء آخر، إلّا أن أدهم قال: لم تعودي صغيرة يا سارة، تناولي كأسًا. إلّا أن سارة أجابت بأنها تريد شيئًا آخر، فناولها النادل كأسًا وهو يقول: هذا شراب حادّ لكنه لا يحتوي الكحول. تناولته من يده وتذوقته ثم أشارت برأسها أنه أعجبها قبل أن يقول: «بصحتك» وينتقل إلى آخرين.

تفرقوا كلٌّ حيث معارفه واهتماماته، كان أدهم قد استحوذ في

الحال على عدد من الشابات الجميلات كلهن يبتغين قضاء الوقت معه، رقص معهن في حين ابتسمت سارة حين رأته! كم هو مميز هذا الشاب إنه يعلم دائمًا ما يريد، يجعل لكل شيء وقتًا، ويعطيه بكل طاقته. في العمل مجدّ إلى الحد الذي يبهر فيه والدها أمام كل صفقة، وفي الهزل يحتفل لا يأبه بمن حوله! يعجبها أسلوبه، إنه ثابت الفكر، ليتها تستطيع أن تكون مثله ترسم طريقها من دون أن تغزو كل تلك الأفكار عقلها لتفسد حياتها.

أشار إليها والدها لتأتي إليه، حيث يقف بجوار وزير الدفاع ورئيس وزراء البلاد السيد عصام الذي قال:

كبرتِ يا سارة وصرتِ أجمل صبايا أرض العرب.

هزت رأسها شاكرة ومبتسمة، وهي تعرف أن وراء هذا الكلام المعسول فخًا يدعى الزواج بفادي.

- إذًا، اسمحي لي بمراقصتك أيتها الجميلة.

نظرت إلى والدها الذي أشار إليها بالتقدم. أخذها من ذراعها ودار وهو ينظر إلى وجهها الجميل ويقول: «إن ولدي محظوظ من دون أدنى شك»، وقف الجميع يتفرجون على ذلك المشهد الذي يعلن عن شيء بالتأكيد، والدها ينظر إليها أخيرًا برضى، أما أدهم فقد توقف عن الرقص مع الحسناوات وابتسامة واضحة على وجهه، والسيدة هيلدا تشير إلى بعضهم بأن هذه ابنتها. أما فادي فراح ينظر إلى أميرته في الثوب العاجي، يتمنى أن يتبادل مع والده الأدوار، وما هو بوقت

طويل حتى حقق له والدها أمنيته من دون حتى أن ينطق بها، فقد ذهب وأخذها من بين ذراعي والده ولفها تحت ذراعه مرتين مقتربًا حيث فادي، وهو يقول لها: «إن فعلت ذلك، ستكونين من أهم السيدات على هذه الأرض». ثم رفع يده أكثر وجعلها تدور حول نفسها مرتين قبل أن تلتف لتجد فادي أمامها، الأمر يتحول إلى حقيقة إذًا، إن هذه الحفلة تبدو لها مكيدة مدبرة لإعلان خطبتهما أو أنهما على علاقة أقلّه! «لا فكرة لديكِ كم انتظرتكِ»، قالها فادي ثم أخذ يراقصها باحتراف لم تستطع مجاراته رغم تدريباتها القاسية طوال السنوات السابقة، يثقل الجسد أحيانًا إن كان حزينًا وهو كان سريعًا حقًا فقد كان سعيدًا بامتلاكها، لم تستطع منع بعض الدمع الذي تطاير مع نسيم البحر القوي واختفى تحت بعض خصلات شعرها الحرّة، نظرت حولها إلى الحضور الكريم، تسخر للفكرة، هؤلاء هم كرام هذا الوطن إذًا؟ تعلم أن نصف فتيات اليخت يحسدنها في هذه اللحظة، كم كانت تتمنى أن تمزقه لتمنح كل واحدة قطعة منه وتمضي، لكنها بقيت تدور على أرض اليخت الواسعة، قبل أن تجد ذراعي أدهم يسحبانها إليه وهو يقول: «هذا يكفي يا فادي اترك لنا شيئًا»، أرادت أن تبكي على صدر أدهم الذي أخذ يراقصها بدوره كي لا يلفت الانتباه إلى سبب ما فعل، مسح دمعة كانت قد سقطت من عينها سلفًا وهي ترقص مع فادي، «هوّني عليك، لا يستحق الأمر كل هذا، كاد الناس يلمحون شيئًا من دمعك وتعثر خطواتك، وها أنا أنقذتك من بين يديه، لكن ليس طويلًا،

حاولي أن تجدي شيئًا تحبينه في هذا الشاب، إنّ معك الليل بطوله».
ثم جعلها تدور حول نفسها وتركها ليعود إلى فتياته الحسناوات، أرادت أن تبتعد تمامًا عن الساحة إلّا أن رئيس الوزراء طلب منها أن تبقى بانتظار فادي الذي اختفى فجأة لا يدري إلى أين. هي تريد العزلة قليلًا فقط، تريد أن تذهب إلى أعلى اليخت أو أسفله وتصيح، أو تبكي على أقل تقدير. رأته يأتي من بعيد، متوسط الطول متين الجسد، يمشي أقرب ما يمشي إلى دجاجة، مرفوع الرأس منتفخ الصدر. جاءها يحمل كأسين من النبيذ الأحمر، قدم إليها واحدة كادت ترفضها إلّا أن عيني والدها أمرتاها بأخذه ففعلت، أخذها وراحا إلى زاوية بعيدة على حافة اليخت ووقفا متقابليْن يميلان بتقابلهما قليلًا إلى البحر ينظران إليه قبل أن يقول فادي: «إنه حقًّا لاختيار موفق من والدي، أعني اليخت! إنه المكان المناسب للاحتفال بالمرأة المناسبة».

إلّا أنها قالت: «عندما تكون مع مَن تحب كل الأماكن مناسبة».

«ما رأيك أن نقيم حفل خطبتنا هنا! هذا اليخت الأجمل والأغلى ثمنًا في البلاد!».

خطبتنا! إن الأمور حقًّا تسير بسرعة إلى حيث لا تدري ولا تريد.

تذوق فادي ما في كأسه ثم قال «هذا نبيذ فاخر، تذوقيه لن تندمي، إنه يليق بنا وبمثل هذه الليلة». لكنها كتمثال لا تتذوق شيئًا ولا تقول، فتابع كأنما يحاول أن يجر الحديث ولا يقطعه: «معكِ حق علينا التروي في شرب كأس كهذه، حتى لا تضيع في فمنا سدى، فزجاجة تساوي ثلاثة عشر ألف يورو علينا أن نستعد لها جيّدًا».

ها هو كالمعتاد لا يتحدث سوى عن المال والأشياء التي تشترى به.

دقّ كأسه بأطراف أصابعه كأنما شعر بأنه وحده الذي يتكلم، ووحده الذي يشرب نخب علاقتهما التي تبدأ الليلة! اعتذر ليغيب قليلًا، وتركها وحدها مع كأسها التي ببطء شديد أهدت ما فيها إلى البحر أسفل اليخت. ترى كم مئة يورو سكبت في البحر الآن! لو كان عدنان هنا ماذا كان سيقول لهذا الجمع! كم واحدًا كان ليستمع إليه بتعقل وكم منهم سيتهمه بالجنون وقلة الذوق والتذوق! إنها تعلم يقينًا أن هذا المال المهدور هو جزء مِن حق هذا الشعب، إلى مَن هم كسيدة الخبز تلك، إلى المشاريع الصغيرة التي تحدّث عنها عدنان والتي ستفتح البيوت وتنمّي الأرض وتضيّق الهوّة الواسعة بين الطبقتين. مرّ نادل من جانبها، طلبت الشراب نفسه الذي قدمه إليها آخر حين وصولها، أخذ الكأس من يدها وناولها ما طلبت، ارتشفتها وهي تستمتع بنسيم البحر وتستحضر سحر ذلك الرجل أمامها! ذلك الصوت الرجولي القوي! الطول الفارع والجسد الرياضي الذي لا يشبه فادي بشيء، لكن كلّ ذلك لا يعتبر شيئًا أمام الهدف الموحد بينهما، أمام الفكر السامي الذي يتمتع به! لا يمكن لرجل مثل عدنان أن يتباهى بزجاجة نبيذ باهظة الثمن، أو يخت يساوي أكثر من نصف مليار دولار! لكان تباهى بعدد الذين رفعهم من تحت خط الفقر إلى طريق النجاة، والذين حررهم من عبوديتهم تجاه مرؤوسيهم وجعلهم يدركون أنهم شركاء في خدمة هذا الوطن تمامًا كالكبار! تتذكر فلسفته المالية وهو يدعو إلى وجوب

تغيير نظرة المجتمع إلى المال سواء من قبل الفقراء الذين يعتبرونه لعنة ويعتبرون حامليه أشرارًا، أو من قبل الطبقة المخملية التي تعتبر الفقراء بلا قيمة أو قدرة حقيقية على أن يكونوا أفرادًا فاعلين في المجتمع.

عاد فادي! ليته يختفي كأنه ما كان يومًا، أو يتبخر أمامها فلا يعرف أحد له طريقًا. ابتسم لها ثم دعاها إلى العشاء في الدور السفلي، أرادت أن تترك كأسها لكنها شربتها حتى آخرها. أرأيت يا فادي لا يتعلق الأمر بالمال دومًا، ها أنا أشرب هذا المشروب الرخيص حتى آخره ورميت بنبيذك في قاع البحر حيث لن يُسعد هناك أحدًا، لو أنك تدري! مضت معه فأمسك يدها بكفه فلم تفلتها، يده باردة وناعمة! خطت إلى الأسفل معه لتجد الجميع هناك بانتظارهما يقفون حول طاولات مصفوفة بعناية وفخامة. صفق لهما الجميع بحماسة، إذًا فالأمر حتمًا يتعدى حفلة اعتيادية، لهذا ألبستها أمها العاجي ولطخت تلك الحمقاء شفتيها بالأحمر القاني. هذه الحفلة أقيمت حقًّا على شرفهما وهي آخر من يعلم! نظرت إلى رجل هناك يدق على العود موسيقى بدت لها حزينة أكثر منها ممتعة، يبكي العود أو صاحبه كأنهما يدريان بحالها ولا يدري غيرهما بذلك.

تقدم رئيس الوزراء نحو ابنه وهو يحمل علبة ما، أما والدها فقد قبّل رأسها وابتسم لها بصدق ووقف إلى جانبها، ثم قام معالي السيد عصام بالإعلان أمام الجميع وبمباركة كأس في يده عن رغبة ابنه فادي بالتقدم إليها، وتقديم هذه الهدية الصغيرة إليها في حال قبولها، لكن

والدها أجاب من دون أن يلتفت إليها! وقال إنهم هم أصحاب الشرف أن يكون فادي أحد أبناء أسرتهم! أي شرف يا أبي أن تبيعني أمام الجمع غدرًا هكذا؟ تقدم فادي وفتح العلبة ليلبسها طوقًا من الماس يرافقه سوار أشعل بريقه الحسد في عيون الحاضرين! كم بيتًا يعيل هذا الطوق يا فادي! ما عاد عندها من شك أنها وجه فقر! نظر فادي إلى عينيها وأخبرها أن الخاتم سيكون في ليلة الخطبة الكبيرة وأنه حتمًا سيخطف بصرها. ألا يرى أنها لا تراه، ألا يفهم أنها لم تمنحه ابتسامة واحدة حتى الآن؟ أم أنه يعي كل ذلك لكنه كما قال أدهم يعمل من أجل مصلحة الجميع هنا ضد الفقراء!

دقّ أيها العود العربي فأنت أكثر درايةِ بالوجع مني! ابكِ على حال النساء وعلى سبايا الفقر أو الغنى لا فرق صدقني، فكلهن رهائن خلف سور واحد لا تدري واحدة عن الأخرى، يزاود الكل عليهن تحت سقف حظيرة أو فوق يخت! أكل الجميع عشاءهم بعد أن دقوا صليب الخيانة العظمى التي تأتي دومًا من الأقربين، لم يغسلوا أرجلهم ولا حتى أيديهم من دمها إنما أكلوا احتفالًا بإمبراطورية لا تهزها وصايا المحبة في العهد الجديد، ولا يقوم موتاها من قبورهم في الفجر إذا ما صلبوا. لكنها أبدًا لا يمكن أن ترضخ، هي الآن تحت هول الحدث لا أكثر، لا يمكن لفادي هذا أن يمس منها شعرةً واحدةً، إنه واهم إلى أبعد الحدود، هم جميعًا واهمون إن ظنوا أنها ضعيفة إلى هذا الحد، يمكن لهؤلاء إن أرادوا أن يسرقوا ما شاؤوا من أرض العرب لكنهم لن

يسلبوها ذاتها وهي تنظر إليهم، ليس من حق أيٍّ كان أن يرغمها على فعل ما لا تريد، فليحتفلوا كما يشاؤون هي ليست جزءًا من هذا كله و لن تكون!

عاد الجميع من تلك السهرة المدبرة سعيدين؛ الأب يشعر بأنه قام بعمل خطوة فارقة من أجله ومن أجل عائلته وابنته خصوصًا، لا يمكن أن يفهم أحد مقدار قلق أب في منصبه على ابنته، إنه يخاف عليها من كل شيء، من الإهانة أو الذل، يخاف عليها من الفقر والحرمان، يخاف عليها من الطامعين وأكثر ما يخاف منه عليها هو نفسها. أما السيدة هيلدا فهي تشعر بأنها امتلكت أرض العرب بخطوة كهذه، يا لحظها، إنها اليوم ربما المرأة الأهم بعد السيدة الأولى، عليها إذًا أن توسع أعمالها وتبذل جهدًا أكبر من أجل الدفاع عن حقوق المرأة ودعم الفقراء! أما أدهم فإنه يعلم بحال أخته ويؤلمه حقًا ما تشعر به لكنه على يقين بأنها ستعتاد فادي وتعيش عمرها كله كما يجب أن تعيش، عندما تمرّ فورة أواخر المراهقة التي ما زالت ترافقها ستعلم أنهم وضعوا الدنيا بين يديها. أما هي فتكرههم جميعًا! إنها تعلنهم جميعًا خائنين غادرين.

- كيف تجدين فادي يا سارة؟ سأل والدها.

تعلم أن والدها لن يقبل بسماع إلا ما يريد سماعه أجابت:

- لا بأس.
- تليقان ببعضكما. قال لها.
- شردت قليلًا قبل أن تقول:

- أبي!

- نعم!

- ماذا جرى مع سيدة الخبز تلك؟

ظهر الضيق على وجهه:

- ما بها؟

- لقد وعدتني أن يتم تعويضها والالتفات إلى حالها.

أشاح بوجهه عنها، ولم يجب قطّ على السؤال.

- أبي!

إلّا أن أمها أجابتها:

- البلد في حالة تقشف يا سارة.

- تقشف!

تدخل أدهم وهو يقول: لا نستطيع أن نمنح الأموال هكذا لأي شخص فقير نجده في الشارع يا سارة، لهذه الدولة قوانين، نحن نمر بحالة اقتصادية متردية مما فرض علينا حالة التقشف.

كانت تكاد لا تصدق الذي تسمع، فار دمها وغلى، قبل أن تلتفت إلى والدها وهي تقول بانفعال:

- تقشف! لقد كنتم تحتسون قبل قليل نبيذًا بسعر ثلاثة عشر ألف يورو للزجاجة.

وضعت أمها يدها على فمها بذهول من تصرفات ابنتها أمام والدها الذي قال بهدوء ساخرًا:

- وماذا تريدين مني أن أبيع زجاجة وأمنح تلك المرأة ثمنها!

ازداد انفعالها فارتفع صوتها قليلًا:

- من الواضح أن التقشف في هذا البلد يطبق على الفقراء وحسب، على مَن يعيشونه أصلًا، على أولئك العبيد الذين يعملون تحت أقدامكم! أما النبيذ واليخوت والمجوهرات فإنها من أساسيات حياتكم.

ما إن أنهت جملها حتى انهالت كفّ والدها تصفع وجهها بقوة:

- إياكِ أن ترفعي صوتك بحضوري مرة أخرى.

إنها ابنته، مدللته، ولها الحصة الأكبر من قلبه كما يقول دائمًا! لكنه منذ حادثة سيدة الخبز هو شخص آخر، وها هو اليوم يضربها! تشعر بأن حياتها ما هي إلا قصر من رمال، هدمه هو بصفعة واحدة.

وضع أدهم كفه على جبينه بتوتر قبل أن يقول:

- سارة لم تقصد يا أبي، و ستعتذر إليك فورًا.

ثم نظر إلى سارة يحثها أن تفعل لكنها بقيت تنظر إلى عيني والدها لا تقول شيئًا في حين قال الأخير والشرار يبرق في عينيه:

- لا يهمني اعتذارها. المهم أن تبقى بعيدة عن شؤون الدولة وسياساتها، وأن لا يخطر لها خاطر أن تكرر أيًا من الأخطاء السابقة لأنها أبدًا لن تمرّ بسلام. وليكن بمعلومها أن الخطط تغيّرت وأن زواجها من فادي سيحدث باكرًا وليس بعد انتهاء الدراسة.

غادر ولحقته زوجته في حين بقيت هي كالصنم في وسط الردهة وأدهم ينظر إليها وهو يقول:

- حصلتِ على رضاه ساعة قبل أن تعودي لتهدمي كل شيء مجددًا! ما الذي يجري لك يا فتاة!

ثم تركها هو أيضًا ومضى.

في اليوم التالي لم تستيقظ، لم تقدم الاختبار! أيقظتها صفية عشر مرات لكنها لم تستفق، وعندما قامت صرخت في وجه صفية وأهانتها كما لم تفعل مع أحد من قبل، اتهمتها بالتقصير والإهمال والكسل، وأنها لا تفرق بين المهم والتافه لأن حياتها في الحقيقة زريّة لا قيمة لها، سبّت الفقراء والأغنياء، الرجال والنساء، سبّت أرض العرب وكل مَن عليها ثم دفعتها خارج الغرفة وطرقت الباب بوجهها بقوة. لم تكن تدري صفية أن سارة كانت تطرق الباب في وجه الحياة، وأنه لا علاقة لها بالثورة التي تشتعل في صدرها. الآن خسرتهم جميعًا، حتى السائق سعد سوف تخبره صفية بما حدث و سيكرهها إلى الأبد. بعد يومين على انعزالها التام أتاها أدهم بالورقة التي لم تكتبها وقد رسمت عليها إشارة الامتياز، وضعها على المكتب في غرفتها: «تفضلي بركات والدك التي لا تعجبك، لكنه لا يريد تكرار ذلك ويريدك أن تجتهدي فهو لن يرغب بتسليم إحدى شركاته إلى شخص لا يعرف كيف يفعل ذلك». ثم نظر إليها وهو يضيف «كما أنه عليك العودة إلى الجامعة، لن يسكت والدك عن هذا طويلًا». لكنها بقيت بعد ذلك عدة أيام أخرى حبيسة المنزل باختيارها، لا تغادر غرفتها، تتنقل بين الشرفة والسرير والمكتب، ومن كتاب إلى كتاب فهي تؤمن تمامًا بأن الشيء الوحيد الذي يمنع الإنسان من أن يكون غبيًا هو الكتاب، وأنه لا يمكن

للعظماء أن يكونوا عظماء حقًا إذا لم يقرأوا. تنقلت بين صفحات التواصل الاجتماعي طويلًا، إن الضجة حول قصتها لم تنتهِ بعد، بل من الواضح أن بعضهم يستخدمها بطريقة تسيء حقًّا إلى والدها، في حين يستخدمها الآخرون في أحسن الأحوال ضد الحكومة كلها. فكرت بعدنان! لم يرسل شيئًا، ولم يدعها إلى أيّ من محاضراته التي تمنحها الكثير من الأجوبة، لقد كان غرور أنوثتها يؤكد لها أنه سيتصل بها ليلة النهار الذي تركته فيه، لكنه لم يفعل! يبدو أنها واهمة وأنها على الأغلب لن تراه مرة أخرى. عليها الآن أن تفكّر بالطريقة التي ستتخلص فيها من قصة فادي هذا. إنها تشعر بأن حياتها وإن لم يصدق أحد تنهار حولها تريد أن تردمها!

****

لا يمكن أن يخطئ أبدًا، عليه أن يكون حذرًا ومتروّيًا، هو يحتاج منها الآن شيئًا واحدًا، أن تساعده من دون أن تدري على تحديد موعد للخطوة الأولى من عمليته القادمة. نادى ريان رجله المخلص، سأله إن كان الرجال يتدربون جيدًا، وأخبره أن العملية ستكون في وقت قريب، فليستعدوا جيدًا، لا يمكن أن يخفقوا في أي تفصيل. طمأنه ريان إلى أن الأمور على ما يرام، وأن الرجال جميعهم على أتم الاستعداد ورغم ذلك فإنهم يعملون ليلَ نهارَ.

عليهم أن يعملوا ليل نهار! من أجله على الجميع أن يعمل. هو يعلم يقينًا بأنه سيكون الحاكم القادم لأرض العرب، لكن الصبر يا

عدنان الصبر، خطوة خطوة يستحيل الصعب ممكنًا واقعًا وتصبح أنت حاكمًا للبلاد.

أمسك هاتفه وكتب لها شيئًا وأرسله.

دق هاتفها دقة هادئة واحدة تبلّغ عن وصول رسالة. تناولته وضغطت ببصمة السبابة اليسرى على ظهره فاتحة أبوابها للزائر؛ «فنجان قهوة؟»، كلمتان وعلامة استفهام قلبتا حالها رأسًا على عقب، جعلا الربيع في قلبها يزهر قبل حتى أن يذوب الثلج المتراكم فيه، طارت ورفرفت بجناحين ودارت فرحًا. فجأة من دون مقدمات صار لحياتها مجددًا معنى، و صار هناك شيء داخلها مستعد للمقاومة حتى النهاية. لكنها تريد أن تسمع صوته، هل يمكن لأحد أن يعشق صوت شخص ما أكثر من وجهه؟ رفعت الهاتف إلى أذنها تنتظر صوته، دق هاتفه ثلاث مرات قبل أن يجيب قائلًا:

«الثائرة الصغيرة». أغمضت عينيها وكأنها تستمع إلى أحد مقاطع موزارت. عاد صوته «هل من أحد هناك؟». تنبّهت أنها لم تجبه فقالت:

- أين؟
- أنهي محاضراتك غدًا، و سآخذك أنا إلى المكان المناسب.
- السائق سعد سيكون عند البوابة غدًا، و سأدخل في ألف سين وجيم. لن أحضر محاضرتي الأخيرة، كن هناك في الثانية عشرة وأعدني إلى البوابة قبل الثانية. ثم فكرت قليلًا وهي تقول:

- أو آتيك أنا الآن.

صمت قليلًا! لم يجهز نفسه تمامًا لهذا، كان عليه أن يرتب ما سيقول لها، وأن يعلم تمامًا ما سيأخذ منها، لكنه لا يقول لا للفرص أبدًا.

- لا بأس، نلتقي بعد ساعة إذًا على ميدان ابن الصحراء، ومن هناك سنتوجه حيث اخترت لك.

- أراكَ إذًا.

ارتدت أجمل ثيابها وتعطرت بأندر عطورها وخرجت من حبسها الاختياري، نزلت إلى الطابق السفلي بخفة. لو راقصها أحد الآن لطارت بين ذراعيه كريشة. ما من أحد في البيت سوى صفية! رقصت معها وقبّلت يديها، اعتذرت منها ألف مرة ووعدتها أن تحضر لها هدية ستنسيها كل ما قالت. وأخذت أحد مفاتيح السيارات الموجودة في كراج البيت الكبير وأخبرتها أنها ستغادر بها إلى الجامعة. صاحت صفية بأن والدها سيعاقب سعدًا على ذلك، وأنها لا يجب أن تخرج من المنزل وحدها. إلا أنها لم تهتم، إنها منذ اليوم حرة باختياراتها وستقود -كما أدهم- سيارتها بنفسها!

التقت سياراتهما عند الميدان قبل أن تلحق به إلى المكان الذي اختاره لهما، فكرت كيف سيكون المقهى الذي سيجمعهما للمرة الأولى، حتمًا ستعشق هذا المكان إلى الأبد. وصلا حيث مقهى شديد الروعة على أطرف المدينة، ركنت سيارتها وسلمت عليه لا تصدق

أنها تراه، ثم دخلا ليرشدهما النادل إلى طاولة صغيرة جميلة ومطلة، لم يكن هناك الكثير من الزوار في المقهى نظرت حولها وقالت وهي تجلس:

- هذا المكان بعيد جدًّا!
- هذا المكان آمن جدًّا.
- من ماذا؟
- من الكاميرات التي تكون ربما تترصد ابنة الوزير المنقلبة على الحكم.
- ثائرة ومنقلبة على الحكم! ما هذه التعابير المتطرفة؟
- لا تعجبك؟!
- ليس هذا، لكنني لست كذلك.
- تريدين أن تكوني؟
- ماذا؟
- ثائرة ومنقلبة؟
- على الحكم؟
- على الظلم.
- أريد أن أشرب شيئًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ابتسم وهو يرى توترها الذي يدل على التخبط الواقع في روحها! إذًا فجزء منها حقًّا يريد ذلك. وجزء يخاف على عائلتها فيرفض. أما هي ففكرت في هذا اللقاء الغريب، لقد دبّ في قلبها الخوف مما حسب له

حسابًا ولم تحسب. ماذا لو حقًّا رآها أحدهم؟ لو التقط صورةً ما ليراها والدها وأدهم وفادي! إنها اليوم مخطوبة وهي تهرب من محاضراتها لتلتقي رجلًا آخر. لكنها ليست هي مَن وافقت على تلك الخطبة الملعونة، أي لقاء هذا! يبدو حقًّا أن كل ما نرسمه من مخططات تبعثره الحياة أمام أعيننا من دون أن نستطيع فتح أفواهنا. رغم كل ذلك لا يهم هي معه الآن والوقت أمامها، سيحدّثها كثيرًا عن كل ما تريد أن تسمعه، سيطمئنها حتمًا بأنها لم تخطئ، وأن كل ما تمر به من قلق سيمضي.

أتى النادل ووضع أمامهما لائحة المشروبات التي يشتهر بها المكان ومضى. نظر عدنان إلى اللائحة قبل أن يقول:

- بالمناسبة هذا المكان يصنع أفضل موكا في أرض العرب.

ابتسمت قائلة:

- ولمَ تظن أنني سأشرب الموكا!

شعر بأنها أهانته بطريقةٍ ما!! لكنه أجاب بابتسامته الهادئة المعهودة:

- أذكر أنكِ كنت تشربين واحدًا يوم تعرفت إليكِ. ظننتُ أنكِ تفضلينها.

- صحيح! كنت متعبة حينذاك وشعرت أنني بحاجة إلى مشروب حلو ودسم! لكنني لا أفضلها.

لمَ يشعر بالحنق هكذا! ألأنه يعلم أن المصائب الكبيرة تأتي دائمًا من الأخطاء الصغيرة، وهو رجل لا يخطئ أبدًا، حتى لو كان في نوع

الشراب الذي سيدعو امراة إليه! لقد جعل ريان يبحث عن هذا المكان خصيصًا ثم أتى هو شخصيًّا لتذوّقها قبل أن يقرر دعوتها للخروج معه.

قالت حاسمة الأمر:

- أنتَ قلت فنجان قهوة، فلتكن إذًا قهوة فقط.

على فنجان القهوة ذاك، أخذها بحديثه بعيدًا، طاف بها بحارًا وجاب صحارى. حدثها عن حال أرض العرب، عن تخوفات الناس وتخوفات الحكومة، عن كل ما لا تسمعه في محيطها المخملي. أخبرها أن كل شيء سينهار إن لم تفعل الحكومة شيئًا يُشعر المواطنين بالاطمئنان، وأنهم قد ينتفضون ثائرين في أي وقت. قال إنه ليس من الضرورة أن تحمل الثورة طابع ثورة سياسية لينهار نظام حكم فاسد كهذا، وإن هناك حكومات تسقط بسبب قانون جائر يفرض على الشعب، كقانون جنائي بحت أو قانون ليس في مصلحة المرأة أو حتى في مصلحتها، وإن الكثيرين من العازفين على وتر وجع الشعب يتحيّنون تلك الفرص ليلعبوا لعبتهم، فتجدين شعبًا انتفض من أجل قطة قد أسقط حكومته من دون أن يدري. ما أجمل كلماته وهي تخرج من فمه بهدوء وثقة! وتلك السيجارة البيضاء الرفيعة في يده، تشتعل مثلها تحت نار حروفه. أخبرته أن والدها غاضب جدًّا تجاه ما فعلت، لكنها لم تخبره شيئًا عن فادي! قال إن غضب والدها مبرر جدًّا وإنها لا يجب أن تستهين بما فعلت، وإن الشعوب المكبوتة مستعدة لتثور من أجل أي شيء، لأن الغضب المحصور داخلها سيجعل منها جاهزة

لتشتعل تحت أول شرارة. ثم نظر إلى العينين العسليتين متعمّدًا وهو يقول: « قد تكونين أنت شرارة الخير لهذا البلد، النور الذي سينهي عصر الظلام هنا، الشمس التي ستشرق طويلًا لتحرق كل مَن يفكر أن يجعلها تغيب». في ساعة واحدة قلب كل موازين عقلها، أشعل نار ثورة إصلاح في صدرها، أوهمها بأنها ستكون بطلة في أعين الناس وبطلة في عينيه شخصيًّا إن فعلت. أنهيا قهوتهما التي كانت تتمنى لو أنها نهر لا ينضب. عليهما أن يفترقا الآن، لكنها تعلم كما يعلم هو أنه لن يفارق عقلها حتى لقائهما القادم.

عند خروجهما قالت له:

هذه القهوة لا بأس بها، في المرة المقبلة سآخذك إلى مكان ستعشق قهوته حرفيًّا!

هزّ رأسه من دون شعوره بإهانة هذه المرة فهو يعلم أن ما حصل عليه الآن يفوق ما يمكن أن يكون قد خسره.

***

-٤-

قاد سيارته مبتعدًا أكثر عن طرف العاصمة، ركنها عند أحد البيوت القديمة ثم مشى على قدميه خمس عشرة دقيقة قبل أن تقلّه سيارة أخرى فيها ثلاثة رجال لتمشي بهم ساعتين كاملتين قبل أن تدخل في عمق الغابات وتقف داخل معسكر أقيم وسطها. ترجَّل عدنان من السيارة قبل أن يقابله ريان ويصافحه وهو يتساءل عن سبب تأخره، فأجاب عدنان بأن أمرًا طَرَأَ عليه فعطله قليلًا.

توغلا أكثر في المعسكر، ثم وقف عدنان ينظر إلى رجاله بفخر؛ إن عددهم بازدياد، وهو يكبر يومًا بعد يوم، يذكر أنهم حين بدأوا لم يكن عددهم يتجاوز أصابع الكف الواحدة ثم كان فرحهم شديدًا عندما أصبحوا عشرات واليوم هو يرى المئات منهم، ولا يعرف نصفهم!

استفسر من ريان حول تطورات التدريبات العسكرية المتبعة، وإن كان الجميع ملتزمًا بها، ثم أكد بأنه ليس بحاجة إلى الضعفاء هنا. من يعش هنا عليه أن يكون رجل كهف أو رجل غاب، التقشف على أصوله، لا طعام إلا المتوافر، يقومون هم بطهيه ويأكلون ما يحتاجونه فقط، لا بيوت فارهة ولا أسرّة وثيرة، خيم وكهوف أو بعض الأكواخ

التي تصنع من القش وخشب الأشجارغير المعالج، لا هواتف أو أي وسيلة خارجية للتواصل إلا بعض اللاسلكيات التي تعمل فقط على المسافات القصيرة! سأل عن الرجال الذين يعجزون عن تجاوز التدريبات القاسية بعد الفترة المحددة لذلك فأجاب ريان وهو يشير إلى السماء بأنهم يعودون من حيث خُلقوا.

اصطف الجميع في سرايا عسكرية متقنة الترتيب، الكل ألقوا تحيتهم لسيدهم، ثم أظهروا بعض الاستعراضات الجماعية قبل أن تبدأ فعاليات التدريبات القاسية التي سيقيّمها عدنان بنفسه. انتقلوا إلى المكان القريب المخصص لذلك ثم جلس عدنان على كرسي خشبي وضِع على مقعده قماش ناعم محشو بعناية صنع خصيصًا له، ثم أعلن ريان عن بدء العرض. قادة السرايا المختارون بعناية من قبل عدنان و ريان وقفوا واحدًا تلو الآخر أمامه يلقون بخطاب قصير يتذكر فيه كل واحد منهم لِمَ هو موجود هنا، ولِمَ هو مستعد من أجل إسقاط حكومة الفساد هذه أن يدفع عمره دون أن يتراجع خطوة واحدة.

تقدم أحدهم وقال بعد أن أدى التحية العسكرية «أذكر يا سيدي وسأبقى أذكر ما حييت، كيف اختطفوا أخي من بيته وسجنوه وعذبوه طويلًا من دون أن نعلم عن غيابه شيئًا، من دون أن نزوره أو نتحدث إليه، كل ذلك لأنه انتقد أداء الحكومة على طاولات أحد المقاهي أمام صديق خائن. وأنا يا سيدي سأدفع عمري كل عمري انتقامًا لأخي الذي لا أعلم عنه شيئًا حتى اليوم إلّا ما سرّب إلينا من بعض السجناء

وسأعمل بجد حتى أستطيع تحريره مما هو فيه». كرر التحية ورجع إلى الخلف.

تقدم آخر وقال «وأنا أذكر يا سيدي وسأبقى أذكر ما حييت، كيف أنهم أعدموا أبي في تهمة ملفقة تمامًا ومن دون دليل، وكيف عشنا بعده في الفقر والذل والمهانة. وأنا يا سيدي سأدفع عمري، كل عمري انتقامًا لأبي ودمه الذي سال دون معاقبة الفاعل أو تقديم دية، وسأعمل بجد حتى آخذ حقه من كل قاتليه».

ثم قال ثالث: «وأنا أذكر يا سيدي وسأبقى أذكر ما حييت، كيف أنهم دخلوا بيتي وهتكوا عرضي أمامي وأمام أبنائي قبل أن يأخذوني إلى السجن لألاقي كل أنواع العذاب والإهانة قبل أن يكتشفوا أنهم أخذوا الرجل الخطأ. ولن أنسى كيف نامت طفلتي على الإسفلت خارج السجن لتراني مرة ولم يسمحوا لها أن تفعل. وسأدفع عمري، كل عمري انتقامًا من هؤلاء السفلة الأوغاد».

ثم تلاه الرابع والخامس حتى العاشر، كلهم استحضروا في عقولهم أنواع الظلم الذي تعرضوا له هم وأحباؤهم. بعد ذلك وقف عدنان أمامهم وقال بصوت جهور حماسي: «إذًا عدونا واحد، وسنقاتله بالحديد والنار، ازرعوا في رجالكم هذه الروح، علموهم كيف سرقت هذه الحكومات حياتهم وأروني الآن ما أعددتم لهم».

بدأ قائد كل سرية على حدة يستعرض تدريباته أمام عدنان، كانت المرحلة الأولى جميعها تدريبات قاسية ودامية، حصى متعددة

الأحجام مفرودة على الأرض يزحف فوقها القائد عاري الصدر مكتوف الأيدي، بعدها يقفز على صندوق يشبه سيارة يكسر زجاجها الأمامي أو الجانبي بقدميه، ثم يدخل نفسه بانسيابية داخل الصندوق. السير فوق الحبال بسرعة وتوازن. إطلاق النار على زجاجات فارغة من دون أن يخطئوا واحدة. جرّ سيارة بحبال مربوطة بأجسادهم أو أيديهم كل حسب بنيته. ثم استعرضوا مهارات قتالية أخرى، قبل أن يبدأوا باستعراضات جماعية لرجالهم.

بعد ذلك تركهم عدنان ودخل إلى كوخه الخشبي الصغير، وخلع قميصه ثم نظر إلى المرآة أمامه وقال: «أذكر يا سيدي وسأبقى أذكر ما حييت»، ثم نظر بتمعن إلى عينيه في المرآة وهو يقول لنفسه: «أظهر الاحترام لنفسك أكثر يا رجل» وانتصب بوقفته أكثر وكرر:

«أذكر يا سيدي وسأبقى أذكر ما حييت، كيف بعثوا إلينا إنذارًا بإخلاء البيت قبل هدمه، كيف دارت أمي في البيت مرتبكة لا تهدأ ولا تخبرنا بالذي يجري، وكيف توسل إليهم أبي طويلًا أن ينظروا في حاله بعين الرأفة، إلا أنهم جاؤوا ذات فجر وأمروا أبي بهدم بيته بيديه أو أن يدفع ثمن ذلك للسلطات لتقوم هي بذلك. ولأنه ما كان يمتك أي مال وما كان يستطيع تحمل هدم بيته بيديه فقد ألقى نفسه تحت عجلات القطار التي مزقته إربًا. وأذكر كيف ماتت أمي قهرًا بعد ذلك بعدة أيام فجمع لها الجيران مالًا ليستطيعوا تكفينها ودفنها، ثم جاءت السلطات وهدمت البيت بآلياتها الضخمة من دون أن ترحمنا، أذكر يا

سيدي وسأبقى أذكر ما حييت كيف عشت بعدها في الشوارع مشردًا، تمر سياراتهم ترشق في وجهي وحل الأرض و تمضي، أذكر وسأبقى أذكر طعم كل لقمة متعفنة دخلت فمي، وكل نظرة شفقة من رجل أو امراة مروا علي فمنحوني بعضًا من مالهم. وسأدفع عمري، كل عمري يا عدنان لتكون أنت حاكم أرض العرب القادم، وسأجعلهم يدفعون ثمن ما فعلوه بك وستمتع نظرك وأذنيك بكل ذلك، أعدك يا صديقي».

ثم ضرب لنفسه تحية عسكرية وخرج يجرب بنفسه كل تلك التدريبات فزحف على الحجارة الحادة وجرّ السيارة بيد واحدة، وأطلق النار على كل الأهداف المرسومة على الأشجار وأصابها جميعًا. ثم ألقى بالسلاح بعيدًا ليلتقطه أحد الرجال ويلحقه آخر بقميصه المعطر ليلبسه إياه قبل أن يأخذ ريان في جولة على الأقدام حول المنطقة بعيدًا عن آذان الرجال قبل أن يقول:

- إنهم يطالبون بكميات أخرى ويهددون بأنهم لن يصرفوا أيًا من مستحقاتنا السابقة إذا لم نرسل ما يريدون في الموعد المحدد، ثم إننا في أزمة مالية حقيقية. لا أفهم ألم يعد هناك بشر في هذه البلاد؟
- يبدو يا سيدي أن هناك أمرًا ما يحدث. أظن أنّ هناك تخوفًا من لفت الانتباه.
- وماذا يفعل رجلنا في الداخل؟ إنه ياخذ من المال ما يطمره وعائلته، لم لا ينجز لنا ما عليه إنجازه؟

- يقول إن الحكومة متيقظة هذه الفترة، وأن الضابط الذي يتعامل معه تحت ضغط عمل ومراقبة كبيرين.
- يبدو أن هذا الرجل ما عاد ينفعنا، علينا التخلص منه.
- كيف ذلك؟
- تسألني يا ريان؟ افعل ذلك في العملية القادمة أو قبلها لا أدري، المهم تخلص من هذا وابحث عن آخر يستطيع أن يفعل ما نريد.
- اعتبر الأمر منجزًا.

***

كان صراخ الضابط وإهاناته يصلان إلى آخر الممر في مركز التحقيقات الخاصة، يضرب ويصيح ويهزّئ، وكان فادي يسير بهدوء عجيب نحو مكتبه قبل أن يفتح الباب من دون أن يطرقه، وقف الضابط وضرب التحية للشاب قبل أن يقول لحديد «انصرف الآن، وحسابنا لم ينتهِ بعد». انصرف حديد في حين كان فادي قد جلس على كرسي الضابط وهو يقول: «أسلوبك هذا خاطئ!، حديد يُنطق الحجر، أكرمه أيها الغبي حتى تبقى معنوياته في العمل عالية وينجز للدولة ما تحتاج وينجز لنا ما نحتاجه».

جلس الضابط على الكرسي المعدني المقابل لمكتبه وهو يقول: «المشكلة أنه لم يُنطِق أحدًا هذه المرة! إنما غضب وتهوّر و أخرسه طويلًا».

- جيد تصرّف بأعضائه إذًا.
- لم يمت الرجل، لكنه فقد الوعي إلى أجل غير مسمى.
- لا فرق استفد من الوقت وتصرّف بما فيه.
- يا سيد فادي، لا نريد من هذا الرجل سوى أن يحرك لسانه ويقول ما نحتاج إلى سماعه، عندها أعدك أنني لن أترك فيه شيئًا لن أقطعه وأبيعه. هذا الرجل خطير جدًا وماهر الكرواتي شخصيًّا يريد مني أن أستخرج منه جميع المعلومات التي لديه ونحن عجزنا عن استخراج معلومة واحدة، بل يبدو أنه استطاع أن يغضب حديد بطريقة لا أفهمها فتعامل معه حديد بهمجية غير مدروسة فأسقطه في غيبوبة لا نعرف لها آخر. أرجوك يا سيّد فادي تحدث إلى معالي السيد الوزير، إنه ينتظر مني تقريرًا خلال أربعة وعشرين ساعة. أخبره أنني حاولت قدر استطاعتي وأنني سأقوم بمعاقبة حديد عقابًا يستحقه.

هز فادي رأسه نافيًا وهو يقول: «كل هذا لا يعنيني، عليك أن تتحمل مسؤولية أخطائك. المهم قل لي ما الذي يجري! لم هذا الكساد في العمل؟».

تلعثم الضابط وهو يقول: «الأمور صعبة هذه الفترة، نحتاج إلى أن تهدأ الأمور قليلًا».

- صعبة!! وما الصعب أيها الغبي، أنا هنا لحمايتك هذا يعني أن ابن رئيس الوزراء شخصيًّا يسند ظهرك.

- المشكلة أن غياب الناس قسريًا بهذه الطريقة خلق في الشارع بلبلة كبيرة.
- وما الجديد، منذ سنين والأمر هكذا، بعض التهديد وبعض الرشى وتسير الأمور على ما يرام!
- ليس نحن!
- من إذًا؟
- هناك عائلات تشتكي اختفاء أبنائها من دون أن يكونوا حقًّا لدينا.
- قال فادي بغضب:
- لا أحد يختفي من دون أن يكون لدينا!
- لكنه يحدث الآن.
- كيف ذلك؟
- هذا ما أحاول أن أعرفه، كل الذين يختفون كنا نعلم ظروفهم وضعف وحاجة من خلفهم فكنا ننكر وجودهم لدينا ثم ننهي المسائل معهم بطريقتنا وينتهي الأمر، إلّا أن الذين يختفون اليوم أشخاص عشوائيون، بعضهم لديه وساطات كبيرة سواء في الحكومة أو الإعلام وهذا سيجعل من كانوا خائفين بالأمس أكثر جرأة في الحديث والبوح عما أخفوه طويلًا بما في ذلك تدخل الحكومة لإسكاتهم!

كان فادي ينظر إليه بذهول وهو يقول:

- هل تعلم ما الذي يعنيه هذا! هذا سيفتح علينا أبواب جهنم!!

هز الضابط رأسه موافقًا إلّا أن فادي قال بحنق: «لماذا لم تقل شيئًا حتى الآن؟».

- كنت أحاول أن أجد الحلول.
- تجد الحلول! كنت تنوي التصرف في هذا وحدك!
- لا أبدًا، كنت أفكر في الحلول لتقديمها إليكم.

فكر فادي بالخطر المحدق الذي بدأ يهدد أعماله وسمعته. هذا الضابط أخطأ كثيرًا، أخطأ مع سارة حين قابلها في مركز الاعتقال، ويقول إنه أخطأ مع معتقل سياسي مهم هنا في مركز التحقيق، وها هو يفقد السيطرة على سير أعماله، وهو لن يسمح لأمر سخيف كهذا أن يدمر كل ما قد بناه، عليه أن يغلق القضايا القديمة جميعها ويضعها في كبش فداء، إذًا فعليه التخلص من هذا الضابط إلى الأبد، ثم تحميله مسؤولية كل الجرائم التي تحدث وحدثت بحق المعتقلين، بعيدًا عن تجارته المربحة، يجب أن يدبر له سريعًا عملية اغتيال تبدو وكأنها من الشعب الذي سيشعر أنه أخذ ثأره بيديه، عليه أن يجد بطلًا موثوقًا لهذه المهمة وفي أسرع وقت. لكن قبل كل هذا يحتاج أن يحصل على رقم الرجل الوسيط بينهم وبين الطرف الآخر، هذا الرجل هو الحبل الوحيد الذي عليه أن يبقى موصولًا بينهما فهو لا يعرف أحدًا إلا الضابط الذي سيستبدله بآخر مباشرة بعد موته. عليه أن يتخلص أيضًا من حديد وأن يصنع حديدًا آخر، فهو حين يعذب هذا النوع من الضحايا، فإنه لا

يريد منهم سوى الموت تحت اسم التحقيقات من أجل أمن الدولة، ثم يأمر بنقلهم مباشرة إلى غرف التشريح، ماذا لو كان يعلم شيئًا عن الذي يحدث في تلك الغرف؟ حتمًا تساءل عن طلب الضابط المتكرر بتعذيب بعض المعتقلين حتى الموت من دون أن ينتظر منهم اعترافًا واحدًا حتى ولو قرروا أن يعترفوا بكل ما يطلب منهم! قد يكون هذا الرجل يعرف أكثر مما يجب، وكل من يفعل عليه أن يختفي إلى الأبد.

قام وتوجّه نحو الباب:

«فكر كما تشاء يا حضرة الضابط، لكن إياك ثم إياك أن تتصرف من نفسك من دون العودة إليّ». ثم خرج قبل أن يسمع تحية الضابط التي صدحت في الفراغ خلفه.

***

اعتزلت سارة أصدقاءها في الجامعة وخارجها، حتى أهلها كانت تراهم حين تراهم على العشاء، لا تقول شيئًا ذا معنى! كانت تلتزم غرفتها أو مكتبة الجامعة تحاول أن تفهم كل ما يقوله عدنان، تضع جهدها في دائرة اهتماماته وحسب، صنعت أكثر من خمس صفحات على مواقع التواصل الاجتماعي تحت عناوين مختلفة وغير مباشرة تنظر في حال الناس مثل «فضفضة»، «أوجاع»، «تنفيس». كلها تجعلهم يتحدثون عن همهم اليومي بشكل عفوي لا سياسة فيه، لكنه كان مؤشرًا مهمًّا لها ولعدنان ولأي مهتم عن مدى رضى أو سخط الناس عما يحدث في البلاد. وياللعجب! من كان ليصدق أن هذا الكمّ من الهم يعشش

هناك، تحت تلك الوجوه الصامتة والعيون الذابلة التي تراها كل يوم في الطرقات والمختفية داخل النوافذ الصغيرة في المباني الشاهقة. إنّ أرض العرب إذًا أرض خراب، يعيش فيها من تبقى في كيانه حلاوة روح تنتظر موتها القريب. في كلّ بيتٍ وجعٌ من نوعٍ ما؛ جوع لا طعام يسدّه، ومرض لا مشافي تنظر في أمره، وظلم يقسم ظهر أشد الرجال. أما القاسم المشترك فيها جميعًا فهو الخوف من البوح ولو بأنّة وجع واحدة. كيف والسيّاف يقف خلف كلّ باب ينتظر ضحيته التالية، يسابق الموت إليها عطشًا إلى المزيد من الدماء. سيدة الخبز تلك ما هي إلا واحدة من ملايين المسحوقين الذين لا يجدون مفرًّا من الذلّ إلا إليه. لقد وعدَتها بالمساعدة! كيف يمكن أن تمنح أحدًا أملًا لا يريده ولا يراه ثم تَجعله يَنتظر على بابه طويلًا لكي يأتي ولا تأتي به إليه! دقّت رقم عدنان وحين أجاب قالت دون مقدمات «أريد شيئًا». أجابها من دون أدنى تردد «أي شيء». هناك رجال تعلم المرأة حين تحتاجهم أنهم لا يخذلونها أبدًا، وهو اليوم أهمهم. قالت له «أريد أن تجد لي سيدة الخبز». «ماذا؟»، «أعلم أن قصتها التي ملأت الدنيا ربما جعلت كثيرًا من أهل الخير يساعدونها، لكنني وعدتها شخصيًا أن أنظر في أمرها، وإن كنت عجزت عن إقناع أبي بذلك فعليّ أن أفي بوعودي بنفسي». سكت قليلًا قبل أن يجيبها «سأفعل». أجابت «أنت الأفضل دومًا». أغلق الهاتف وأمر رجاله بأن يجدوها ففعلوا، أما هي فلم تنم تلك الليلة وهي تتخيل ذلك اللقاء الذي بدا لها أسطوريًّا، لقد كانت تحلم

طويلًا أن تمد لها يد العون مجددًا، أن ترى ابتسامة عوضًا عن ذلك القهر الذي كان محفورًا في خطوط وجهها. بعد يومين أخذها إلى بيت تلك المرأة! لم يكن ليجعلها تذهب وحدها فالمكان الذي تعيش فيه لا يمكن لفتاة مثل سارة أن تتجول فيه وحدها، ولن تستطيع أن تركن فيه سيارتها بأمان أبدًا. لم يأخذا موعدًا، فتلك البيوت لا تعرف الهواتف ولا تفقه شيئًا في ثقافة المواعيد، ولا وجود لمعنى الضيافة فيها أبدًا، إنهم كرماء، لكنهم لا يملكون شيئًا ليقدموه! هكذا قال عدنان.

ذهبا فارغي الأيدي إلّا من مبلغ كبير من المال، ترجّلا من السيارة إلى ذلك المكان! هل هذا المكان حقًا جزءٌ من أرض العرب! يقول عدنان إن أغلب أرض العرب حواري تشبه هذه! كيف لم ترها من قبل إذًا؟ أين تعيش!!

طرقا ما يفترض به أن يكون بابًا، كيف لهذا أن يحمي أي شيء من أي أحد! أم أن هذه البيوت لا تحتوي شيئًا يُسرق. طرقاه مرتين والثالثة! لم يجب أحد، إلا أن طفلًا في الشارع اقترب منهما وهو يقول «السيدة انتصار ليست هنا!». انتصار!! سيدة الخبز بكل ما جرّته من هزيمة تدعى انتصار! اقترب الطفل من سارة أكثر وهو يقول «إنها في بيت الجيران». ثم بظهر كفه حاول أن يتحسس شالًا ناعمًا رماديًا كانت تلفه حول رقبتها وتركته ينسدل على قميصها الأبيض حتى خصرها المنحوت، انحنت قليلًا وهي تبتسم في وجهه وتقول:

- ما اسمك أيها الصغير؟

قال باحتجاج:

- لست صغيرًا.

ابتسمت له وهي تقول:

- حقًّا؟ إذًا ما اسمك يا فتى؟

- قلت لك أنا رجل، عمري ست سنوات واسمي مازن.

ضحكت:

- هل تأخذني إلى السيدة انتصار يا مازن؟

- سأفعل بشرط واحد!

- وهو؟

- أن أمسكَ يدكِ وأنا أفعل.

نظرت سارة إلى عدنان وهي تبتسم ثم أعادت النظر إلى ذلك الطفل، إلى الوجه الطفولي الجميل رغم الفقر وقلة العناية، انتقلت بنظرها إلى ملابسه المتسخة قليلًا إثر بقائه في الخارج أغلب وقته ثم إلى قدميه الحافيتين، اتكأت بركبتها على الأرض حتى تقترب من وجهه أكثر، نظرت إلى العينين البنيتين البريئتين والواثقتين ثم مدّت كلتا يديها: «تستطيع أن تختار». نظر في كفيها ثم مرر أصابعه على خطوط يدها: «هذا رقم واحد وثمانون، الثمانية ملتصقة الرأس وهذا يعني أنك ستتزوجين من رجل يقربك». إلا أن سارة هزت رأسها نافية «لا أريد أن أتزوج من رجل يقربني»، ثم نظر في كفها الأخرى: «وهذه الكف تحمل حرف الميم باللغة الأخرى». قالت سارة مصححة:

«باللغة الإنجليزية»، ثم أردفت «وماذا يعني هذا؟». هز الطفل رأسه: «لا أعرف! لكنني سأختار هذه الكف، عليها حرف اسمي، قد أتزوجك أنا يومًا ما». ضحكت مجددًا: «حسنًا، لكن قبل ذلك سأمنحك شيئًا آخر»، ثم أزالت شالها عن رقبتها: «تريد هذا؟». فتح الطفل عينيه بدهشة: «حقًّا؟». هزّت سارة رأسها وهي تمنحه إياه قبل أن يشتمّه الصغير: «الله! رائحته كالورد». قالت بحب خالص: «هو لك». ثم مدت كفها إليه «هيا بنا». كان عدنان يراقب كل ذلك بهدوء دون أيّ تدخل، التفتت إليه: «هلّا ذهبنا؟». هز رأسه ومضى خلفهما، نظر إلى ذلك الطفل الصغير الذي يمسك بكفها يتراكض سعيدًا يكاد يسبقها. كم هم ساذجون هؤلاء الأغنياء! يعتقدون أنهم بابتسامة للفقراء، أو بمنحهم كفًّا سيحصلون على الغفران بعد كلّ ما تسببوه لهم، أو أنهم سيعوّضونهم عن كلّ ما سرقوه من أفواههم. وأن شالًا حريريًّا كهذا سينتشل هذا الطفل من بؤسه الذي يغرق فيه تمامًا، فلتلعنكم السماء جميعًا، ولتبتلعكم الأرض إلى الأبد. لن يهدأ له بال قبل أن يشردهم جميعًا في الشوارع ذاتها التي تركوها للفقراء. وصل الطفل بهما إلى الباب وقال: «هنا، في هذا البيت». ثم اقترب من سارة كأنه يريد أن يسرّ لها شيئًا فانحنت إليه مجددًا، إلا أنه قبّلها على خدّها سريعًا وهرب مودّعًا: «إلى اللقاء». إنها تشعر بلذة لم تتذوقها من قبل، ما الذي يجعل التعامل مع هؤلاء البسطاء مفرحًا إلى هذا الحد؟ طرق عدنان باب الجيران، فصاحت امرأة من الداخل تدعوهم إلى الدخول من دون

السؤال عن هوية الطارق، صعدا عدة درجات قبل أن يجدا مجلسًا من نساء يلتففن حول امرأة لا تتوقف عن اللطم! هل دخلا بيت عزاء من دون أن يدريا؟ تراجعت سارة كأنها شعرت أن المكان لا يتسع لها، وأنه لا وجود لها بين هؤلاء. إلا أن عدنان هتف «السيدة انتصار!». انتبه بعضهن إليهما، وقامت السيدة انتصار من بين الجمع متوجّهة إليهما: «كيف أستطيع مساعدتكما؟». لم تستطع سارة أن تقول شيئًا. ماذا تقول لها؟ كان عدنان أكثر قدرة على التصرف في هذا المكان، سأل السيدة أن يخرجا من هذا البيت قليلًا، وأنهما يريدانها في بيتها لدقائق فقط. اعتذرت المرأة من النساء اللواتي لم يسمعن شيئًا مما قالت. توجها إلى البيت وسارة تسأل: «ما بال المرأة التي في المنزل المجاور، أمات أحد من أهلها؟». أجابتها المرأة: «لا يستحق الموت هنا كل هذا البكاء، مَن مات عاد إلى الله وما عند الله خير وأبقى». أي جواب هذا الذي لا إجابة فيه! إلا أن عدنان سأل: «ماذا إذًا؟». قالت وهي تشير إليهما أن يجلسا على حصيرة رثة مفرودة على أرض منزلها: «خطفوا ابنها!». شهقت سارة: «ماذا!! مَن خطفه، لماذا وكيف، هل بلغتم الشرطة؟». ضحكت المرأة ضحكة قهر عالية وهي تقدم إليهما الشاي الذي لم يتذوقاه قطّ: «أي شرطة! لا وجود للشرطة هنا يا ابنتي، خطف في حيّنا أكثر من خمسة عشر طفلًا أقلّه هذا العام ولم يفعل أحد شيئا». إلا أن عدنان سأل باهتمام: «وهل وجدتم أحدًا أو عاد منهم أحد؟». أجابت المرأة في حسرة: «من يختطف لا يعود، إنهم أموات من دون قبور».

قامت سارة من مكانها: «عليّ أن أعود إلى بيت تلك المرأة». إلا أن كفّ عدنان أمسكت بيدها: «وماذا ستفعلين هناك؟»، أجابت بحزم: «سآخذ صورة للطفل وجميع بياناته للبحث عنه». أخبرها بأنها لن تذهب إلى أي مكان، وأن هذا الطفل لا يملك على الأغلب أي صورة، إلا أنها أفلتت كفّه وغادرت إلى المنزل المجاور. اضطرب عدنان قليلًا ثم التفت إلى السيدة انتصار وأخبرها أنهما أتيا ببعض المال الذي جمعه بعض المتعاطفين مع قضيتها ولم يقل شيئًا عن سارة ويبدو أن المرأة أيضًا لم تتنبّه إلى من تكون. غادر المكان بسرعة ولحق بسارة وحين وصل كانت قد حصلت حقًّا على صورة للطفل، إنه لا يتجاوز الأربع سنوات، صغير جدًّا على مواجهة هذا القَدَر الذي يعلم عدنان تمامًا أين يصب، اختطف الصورة من يدها وأخبرها بأن عليها أن تنسى الأمر، إلا أنها نظرت إلى عينيه متعجبة: «أنت مَن يقول ذلك؟ أنت من يريدني أقف في سبيل الحق تطلب أن أنسى!». لكنه أجاب: «هذا الأمر ليس مزحة وقد يؤذيك». ثم زفر وتابع: «أنا سأتولى الأمر، أرجوكِ يا سارة ابقي بعيدة عن هذا الأمر». ظنّت أنه خائف عليها، فطمأنته أنها اختارت الطريق ولن تتراجع عنه، وأنها وإن كانت تأخرت لتعرف ما الذي يدور على هذه الأرض إلا أنها لن تصمت أبدًا، ولن تكون بومة خرساء أخرى هنا. أما هو فكان لا يدري كيف لهذه الفتاة أن تفاجئه كلما قابلها. وجد نفسه أمام مصيبة جلبها بيديه، فهو وإن كان لا يعلم تفاصيل القصص الصغيرة هذه، يعلم تمامًا أين يذهب هؤلاء الأطفال

وأنهم ليسوا إلا ضحية طمع تجارة هو من يحركها وآخر ما يريده هو إثارة أمرها. أعادها حيث سيارتها على الطريق العام، لم يقل شيئًا وهي غرقت في ذاتها تلومها على تأخرها عن إزاحة ذلك الغطاء الأسود الذي وُضع فوق عينيها طوال حياتها! كيف يعلم أدهم ووالداها بكل ذلك وهي لا تعرف شيئًا؟ كيف لم تدخل حارة من قبل، كيف لم تتكلم مع فقير طوال حياتها، لقد كانت تظن أن الفقراء هم صفية والعم سعد ومَن هم مثلهم! كيف لم تفهم أن الحياة الرغدة التي يعيشونها إنما هي مملكة أقيمت فوق رفات الآخرين!

قبل أن تخرج من سيارتها اختطفت منه الصورة وصوّرتها بهاتفها ثم أعادتها إليه وشكرته ثم غادرت تنوي على ما تنوي عليه.

***

لا تدري سارة إن كانت تستطيع مخاطبة أدهم في الأمر، فأدهم ليس نفسه الذي ظنت أن صورته في مخيلتها ثابتة لا تتغير، إنما هو اليوم جندي مخلص للحاكم وحاشيته. إن كل مَن هم أهلها من دمها ولحمها يملكون السلطة لوقف ما يجري لكنها لا تستطيع مخاطبتهم لأنهم في أحسن الأحوال لن يستمعوا، لكن عليها أن تشقّ من خلالهم طريقًا ما. فكرت في الأمر عدة أيام قبل أن يلمع شيء في رأسها.

أخذت سيارتها وتوجهت بها إلى مكتب رئيس الهيئة العامة للجمعيات النسوية، كان مكانًا كبيرًا وفخمًا والأهم من ذلك أنه يعج بالنساء الجميلات، ألا توجد امراة واحدة ذكية وغير جميلة مؤهلة لأن

تعمل في هذا المكان! أم أن حقوق المرأة تتطلب من جمالها أن يكون حاضرًا لتعمل فيه! كانت والدتها في اجتماع مع بعضهن، انتظرتها في الخارج قبل أن تنتهي وتسمح لها السكرتيرة الحسناء بالدخول. وما أن دخلت حتى شهقت والدتها التي قامت من مكانها وهي تغلق الباب بسرعة: «ما هذا الذي ترتدين؟». إلا أن سارة أجابت: «ما به يا أمي إنه رياضي ومريح». لكن والدتها اقتربت وهي تمسك بأطراف شعرها المنسدل على كتفيها: «لم تسرّحي شعرك أيضًا! كيف أتيتِ إلى هنا بهذا الشكل بين كل هؤلاء النسوة اللواتي يقدرنني ولا يأتين إلا بأجمل هيئة كلّ صباح؟».

- يقدّرنك أو يخفن منك يا أمي، ليتك تفصلين.
- ماذا تريدين أيتها الفوضوية؟
- جئتك بأنباء جديدة لمشروع جديد، ألستِ من قالت يوم حفلة إعلان خطبتي على فادي بأن عليها أن توسّع أعمالها لتنافس زوجة الحاكم.
- فادي! فادي الذي لا تقابلينه أبدًا ولا تجيبين على اتصالاته؟ نعرف كل شيء ولن نسكت طويلًا.
- دعكِ من فادي الآن واستمعي إليّ.

شرحت لوالدتها ما يحدث، وأن الأمهات في الأحياء الشعبية يفقدن أولادهن بشكل مستمر ومنتظم، وأنه بالتأكيد يوجد شيء ما خلف تلك القصة! إلا أن هيلداسألتها بريبة: «كيف عرفتِ كل هذا؟

ثم ما شأنك أنتِ وشأن مثل هكذا قضايا؟». أجابت بدلال: «يا سيدة هيلدا، أنا لم أقل أن تجدي الأولاد، أنا أقول فقط سلّطي الضوء على هذه القضية قبل أن تفعلها أخرى غيرك، واهتمي بأمهات المفقودين قليلًا، عندها صدقيني لن يسبقكِ في هذا المجال أحد وستكونين السيدة الأولى في أرض العرب التي تنظر في أمر المفقودين من الأطفال وتُحسن إلى أهاليهم». لم تفهم السيدة هيلدا كيف يمكن أن تتصرف في أمر جدي كهذا، لكنها أيضًا تريد بشدة أن تلفت انتباه الإعلام إليها أكثر! لا مانع عندها بمواساة بعض النساء اللواتي فقدن أولادهن ومنحهن بعض المال مقابل خبطات صحفية كبيرة، لكن عليها أولًا أن تسأل زوجها كالمعتاد قبل أي خطوة ثم ستسلّم الأمر للعاملات في الجمعية لمتابعة حال النساء ومنحهن بعض الدعم وإحضارهن إلى مكتبها لالتقاط بعض الصور وكتابة بعض الأخبار.

- لكن بشرط، قالت هيلدا.
- أي شيء يا أمي.
- فادي.
- فادي؟
- تتحدثين إليه وتدعينه إلى مكانٍ ما الليلة. إذا لم تفعلي ذلك لن أناقش موضوعك هذا مع والدك و لن أنظر إليه.

حسنًا إذًا! لا مانع! ستحتمل الجلوس ساعة أو اثنتين مع هذا الثّقال من أجل هدفها السامي.

- حسنًا! لكن إياكِ يا أمي أن تذكري اسمي أمام أبي حين تفاتحينه في الأمر.
- لن أفعل.

ما إن أنهت كلماتها حتى ضج الشارع بصوت جماهير تصيح! نظرت سارة من النافذة العالية إلى الشارع! كانوا لا يتجاوزون المئة ربما لكنهم يهتفون بعبارات مندِّدة بشيء من عطايا لم تفهمه تمامًا!

- أغبياء، قالت هيلدا.
- لمَ يتظاهر هؤلاء يا أمي؟ وما هي العطايا التي يتحدثون عنها في صيحاتهم؟
- إنهم يعترضون على اتفاقية تم توقيعها مع إحدى الدول الصديقة، ومنزعجون من المبلغ الذي ستدفعه حكومتنا لأشقائنا في الخارج.

ضحكت سارة باستهزاء:

- أشقاؤنا؟ منذ متى كان لأرض العرب أشقاء يا أمي!
- ثم عادت تستمع إليهم قبل أن تسال مجددًا: «إنهم يقولون إنها مليارات الدولارات! هل هذا صحيح؟».
- سيأتي رجال الأمن الآن ليزجوا بهم في السجون.
- و لمَ ذلك؟ أليس التظاهر حقًّا شرعيًّا للأفراد؟
- التظاهر السلمي.
- نعم، ولا أجد أحدهم يحمل سلاحًا ولا سكّينًا ولا حتى عصا. إنهم يصيحون بأفواههم ويرفعون اللافتات ولا يقومون

بأية أعمال تخريبية!

- عليهم أن يزجوا بهم في السجون على أية حال. سأتصل بأفراد الأمن ليحضروا حالًا.

إلا أن يد سارة امتدت وأمسكت كف والدتها وهي تقول: «إن كانوا سيحضرون، فسيفعلون دون أن تبلغيهم بذلك. أرجوكِ يا أمي لا تكوني جزءًا في إيذاء أحد ما. من المفترض أنك حقوقية، فحاولي أن تطبقي ذلك قدر استطاعتك».

نظرت هيلدا إلى عيون ابنتها قبل أن تترك هاتفها: «أتمنى أن يخلصنا الله من كل هؤلاء».

لم تقل سارة شيئًا، لكنها التفت إلى النافذة تراقب الأفواه التي تصيح والعيون الغاضبة، ما الذي يدفع هؤلاء لترك أعمالهم وأهلهم ووضع أنفسهم في موقف لن يحمدوا عليه بالتأكيد! لا يبدون حقًّا فقراء لكنهم رغم ذلك غاضبون! نظرت إلى إحدى اللافتات فَوَجدت مكتوبًا فوقها: «أموالنا لنا.. ليست لأعدائنا.. ليست لأصدقائنا». بقيت تنظر إلى النافذة وهي تسأل:

- أمي؟

- ماذا؟

- لمَ ندفع كل هذه المليارات لدولة أخرى؟

- عدتِ للتدخل فيما لا يعنيكِ!

- هيا يا أمي. حقًّا لمَ تظنين بأنه علينا أن نفعل؟

- لأننا نحتاج منهم الحماية!

تساءلت سارة بسخرية:

- نحتاج منهم ماذا؟ نحن لا نحتاج حماية من أحد. أرض العرب مليئة بالجنود والأسلحة والثروات. وهي مليئة بأهلها ولو خرج من كل بيت جندي واحد لصنعنا جيشًا جرَارًا. إن هؤلاء محقّون تمامًا.

إلا أن يديْ أمها أمسكتا بكتفيها وجعلتها تدور لتقابلها وهي تنظر في عينيها:

- نحن يا سارة مَن نحتاج الحماية وليست أرض العرب!

سألت وهي التي تعرف الإجابة تريد أن تسمعها من أمها كما سمعتها من أدهم ووالدها:

- و لمَ لا يحمينا رجال وطننا؟

- لا تكوني ساذجة! رجال وطنك يريدونك ميتة كل يوم.

ما أوجع الخذلان! إنه الرغيف اليومي الذي غدت تمضغه كل يوم! كانت تنتظر أن يخطئ مرة أو يعتذر ولو سرًّا، إذًا فعدنان على حق؛ إنهم جميعًا على كلمة رجل واحد، يعلنون شعبهم عدوًّا لهم، يهيّئون له الجيوش حتى إذا ما قرر أن ينتفض اغتالوه قبل أن يفعل.

ما هي إلا دقائق قليلة إلا وكان رجال الأمن يفرقون المتظاهرين بالعصي ويعتقلون بعضهم، قبل أن تهدأ الأمور وتعود إلى طبيعتها.

غادرت سارة وهي تذكر أمها بأمر الأطفال المفقودين وكلها عزيمة من الداخل بضرورة أن تصنع لهم شيئًا. وما إن خرجت من

المبنى حتى اتصلت بعدنان وقالت له: «أتعلم ماذا! كنت في شارع البرج».

- عند أمك؟

زل لسانه فأغمض عينيه قبل أن يأتيه صوتها:

- تعرف أمي؟

سكت قليلًا قبل أن يجيب:

بالطبع إنها زوجة وزير الداخلية وأشهر الناشطات النسويات في أرض العرب. مَن لا يعرفها؟

- لقد خرج بعضهم في تظاهرة هناك.
- حقًّا!! أنت متأكدة؟
- نعم. لقد خرجوا معارضين لاتفاقية سرية دفعت فيها أرض العرب مليارات الدولارات.
- هذا صحيح!

قالت بحماسة:

- الأمور تتطور وحدها وبسرعة.
- لا شيء يأتي وحده يا سارة، إن كل جهودنا وجهود مَن هم مثلنا بدأت تُؤتي أُكلها لكنها تبدو سريعة لأن الناس متعبون بطبيعة الحال. القليل من الجهد بعد وستنفجر الدنيا في وجوههم.

كانت تستمع إلى سمفونية صوته الجميل وكلماته الرنانة التي لا تشبه شيئًا مما يقوله أحد آخر حولها.

- سارة! ما زلتِ هناك؟

- أحبك.

صمتَ ولم يقل شيئًا. انتظرت ردًّا لكنه لم يأتِ، شعرت بحرج كبير إلا أنها لم تندم قطّ. عدنان هو الشخص الوحيد من بين كل مَن تعرف الذي يفهم دائمًا ما تقول وما تريد أن تقول، إنه الشخص الذي فتح عينيها على كل ما يجري في أرض العرب. لا ليست نادمة أنها نطقتها قبله حتى لو لم يجِب، حتى وإن خذلها بعنف في هذه اللحظة. يبدو أن القدر بخل حتى أن يبقي لها واحدًا لا يفعل!

أردفت لتكسر الصمت الذي لم يرِد هو له أن ينتهي:

- لا تنسَ أمر الصورة. علينا معًا أن نفعل شيئًا تجاه هذا الموضوع.

- لن أنسى! وسنفعل شيئًا حتمًا.

كم أنت عظيم يا عدنان! إنها تنصاع إليك تمامًا كما يفعل كل شيء. كما كل مَن يختفون من بيوتهم من دون أن يخبروا أهلهم عن مكانهم ليقاتلوا في صفّك ضد الحكومة، كما الأشجار التي تخفي مستعمرتك الضخمة في قلبها، كما القدر الذي دائمًا مهما دار لا يدور إلا لأجلك. دعها تنهرْ أمامك تمامًا قبل أن ترد إليها ما قالت بالمثل، خذ منها كل شيء قبل أن تمنحها شيئًا.

***

-٥-

يغيب الحق أحيانًا، ينهار! يختفي وجهه عن الساحة حتى يكاد ينساه الناس، يحتضر وحيدًا من دون أن يدري أحد ما الذي أصابه بالضبط. بعض الوحوش يتشاورون في تقسيم أجزائه كي يملؤوا بطونهم. يستلقي في غرفة للموت يطلقون عليها اسم غرفة عناية. يمرّ عنه الغافلون والمتيقظون ينتظرون صفارة الموت أن تعلن شيئًا كي يتصرفوا في السرير أو حتى يغلقوا ملفه إلى الأبد. حتى مَن ينتظرونه أن يستفيق هم مَن يريدونه أن يعلن ولاءه إلى الباطل قبل أن يطلقوا رصاصة في صدره ليموت. وهو لا يدري عن الدنيا، غائب عنها وعن نفسه. ما شكل الأرض دون حقّ يا ترى؟ كيف يحتمل الناس بعضهم بعضًا وهم لا يعرفون إلا الباطل الذي يُخرس أفواههم وينجز معاملاتهم ويُعجَن في أرغفتهم؟ كيف يقوم الحق إن لم يعلم أنه قد سقط؟ حتى الساعون خلفه مَن يريدونه حاضرًا في حياتهم تركوه وهم يركضون خلف سراب مخادع يطلق على نفسه اسم الحق ويجهز العدة للظالمين وهو الشيطان بعينه! مساكين هم أتباع الباطل، ومساكين أكثر من ضحوا بكل شيء من أجل صورة حقّ لا تعرف عن الحقّ شيئًا. أما هو فلا

يدًا غير يد القدر قد تنجيه، وإن فعلت فعليْها أن تنجيه مرتين، مرة من الموت الحائم فوق سريره ومرة أخرى من عتمة هذا الحصار الظالم الذي يكبّله في زنزانة ولا يسمح لعينيه بأن تلمحا من الشمس بصيصًا. كيف يظن أصحاب الباطل أنهم قد يستطيعون حبس النور في الظلام! لا يغلب الليلُ الشمسَ أبدًا إن حضرت، ولا يستطيع بكل سواده أن يطفئ نورًا ضعيفًا آتيًا من شمعة تتلاعب بها نسمة هواء لتطفئها! إنه بجبروته يعمي كل الأبصار لكنه أمام ومضة ضياء واحدة لا يستطيع أن يفعل شيئًا.

وقف ماهر الكرواتي فوق رأسه وهو يسأل عن حاله. كان الضابط ينظر إلى الطبيب في مشفى السجن وينتظر كلمة أمل واحدة قد تنقذه من عاقبة لا يعلمها إلا الله. أشار الطبيب إلى استقرار حالته، وإلى أنه في غيبوبته لا تتراجع حالته ولا تتقدم، قد يستيقظ غدًا وقد لا يستيقظ أبدًا. نظر الكرواتي إلى الضابط وهو يقول: «لم يسبق لي أن تابعت أمر سجين كما أتابع هذا! عشرة أيام إن لم يستيقظ ستستلقي مكانه لكن بكفنك». ابتلع الضابط ريقه خوفًا ورعبًا وهو ينظر في وجه خالد يتمنى لو يفتح عينيه. لا عجب! قد ينظر الباطل في وجه الحق المحتضر ينتظر منه أن ينقذه، فالحق حتى وهو يموت لا يموت. قدّم الضابط التحية لوزير الداخلية ومضى لا يرى ولا يسمع شيئًا. إنه يشعر باقتراب أجله، لقد أخطأ كثيرًا مع مَن لا يُسمح معهم بالخطأ أبدًا. رن هاتفه فأجاب مضطربًا حتى أتاه صوت فادي: «ماذا يا رجل لمَ لا تجيب!».

شعر بأن الله أرسل إليه من سينجيه:

- سيد فادي، دعني أقبل قدميك عليك أن تنقذني مما أنا فيه!
- وما الذي أنت فيه؟
- وزير الداخلية يريد رأسي عوض رأس خالد.
- ومَن يكون خالد؟
- الشاب الذي غيّبه حديد قبل أن يقول شيئًا.

صمت فادي قليلًا. هل يمكن للأقدار أن تكون متقنة النسج إلى هذا الحد! لقد أتاه ما يريد على طبق من ذهب. تابع الضابط بصوت كله رجاء:

- سيّد فادي!

أجابه فادي:

- إذا أردتني أن أساعدك تخلص أولًا من حديد!
- ماذا؟
- كما سمعت، مساعدتي مقابل التخلص من هذا الرجل.
- كيف ذلك؟
- لا يهمني! هذه مشكلتك تخلص من حديد وأحضر غيره في أسرع وقت ممكن. وبعد أربعة أيام سنلتقي لأخبرك بما عليك فعله.

هل حقًّا ستنهي الأمر يا سيد فادي وتخرجني من هذه الورطة؟

أتاه صوت فادي ضاحكًا:

- مالك يا رجل تماسك! لا أحد عداي سيخرجك مما أنت فيه، لا تقلق.

دعا الضابط له كما يفعل مشرد أخذ كسرة خبز يابسة من رجل لئيم يحمل كيسًا كبيرًا من الخبز الطازج. ذلك الذل كان ذلّه.

ما إن أغلق فادي هاتفه حتى دقّ أخيرًا تلك الدقة التي ينتظرها منذ أكثر من عشرة أيام. كانت سارة على الطرف الآخر تطلب اليه أن يلتقيا.

***

كانت سبقته إلى هناك، جلست على الطاولة المحجوزة في المطعم الأندلسي الفاخر وهي تستمع إلى سيدة تغني بالإسبانية قبل أن تشعر به يقبل خدها الأيمن وهو يقف خلف كتفها:

- أعتذر على تخلّفي عن أخذكِ من المنزل لكنني كنتُ مشغولًا حقًّا.

ثم فتح ذراعيه عن آخرهما وهو يسأل: «أعجبكِ المكان؟ يبقى هذا مطعمي المفضل، ثم تابع وهو يجلس أمامها في مقعده يرمي بالحوار إلى مكانٍ ما بمكرٍ مقصود:

- أتتجاهلين كل هذا وتُحامين عن امرأة تبيع الخبز؟

يا الله ساعدها! لقد بدأ ذلك الوجع الذي يغزو معدتها ويعتصرها كلما رأته، إلا أنها اصطنعت ابتسامة وهي تقول:

- لكنني لم أفعل شيئًا، لا أدري لمَ تخوضون معي في هذا الأمر كلما رآني أحدكم!

- ربما لا تدركين بعد خطر ذلك إلا أنه يا آنستي حتى في الجرائم الكبرى لو نظرنا عن قرب فسنرى أن دور الأفراد فيها إن جَزّأناها بسيط قد لا يستحق العقاب، لكن صدقيني إن وقع فرد واحد فسيدفع كل فرد ثمن الجريمة الكبرى كأنه وحده مَن قام بها.
- إذًا فأنت تؤمن أنه سيأتي وقت يدفع فيه كلّ فرد ثمن جرائمه؟

أمسك بكفها وهو يجيب:

- إن أصررت على تسميتها بذلك فهذه الجرائم يا سارة لا يمكن لأحد أن يقاضينا عليها ما دمنا في مناصبنا، إذا زالت المناصب زالت الحصانة وأكلونا لحمًا نيّئًا.

شعرت بالزيف يزداد في معدتها وهي تسأل:

- لهذا فزواجنا أحد ضرورات الحفاظ على هذه الحصانة!

نظر فادي إلى عينيها طويلًا وهمّ بقول شيءٍ ما، إلا أن حضور النادل بقائمة الطعام منعه من أن يفعل، وذكّره بأن عليه أن يغسل يديه، فأشار النادل إلى المناديل المعطرة أمامه إلا أنه اعتذر مبتسمًا: «لا شيء يعادل نظافة الماء والصابون».

قال ذلك ثم تركها وترك هاتفه الذي ارتج أمامها مستقبلًا رسالة أبعدت انتباهها عن قائمة الطعام وما إن وقعت عيناها عليه حتى بدت الرسالة فوق شاشته واضحة تقول: «لدينا اثنان، نحتاج إلى تواصلك المباشر مع وزير الصحة». أزاحت بصرها لكنه اهتز مجددًا معلنًا عن

صورتين مخفيتين. عادت تبحث في قائمة الطعام عن شيء خفيف تحتمله معدتها العصبية ولم تلقِ بالًا للأمر، إلا أن فادي حين عاد فتح هاتفه الملقى على الطاولة يتفقد رسائله الجديدة، سمحت لنفسها اختلاس النظر قليلًا، صورة طفل لم تتعرف عليه، والصورة الأخرى كانت لطفل تعرفه تمامًا؛ مازن! ماذا تفعل صورة مازن المعدم على هاتف فادي!! أغلق هاتفه قبل أن تخرج من صدمتها واعتذر مجدّدًا بحجة ضرورة قيامه باتصال عمل مهم. أطفال ووزير الصحة! ما الذي يعنيه هذا؟ كانت لا تعرف فيمَ يجب عليها أن تفكر، أو كيف! لكنها على سذاجتها تدرك أن الأمر لا شيء سوى أن فادي هذا له علاقة بحوادث خطف الأطفال من ذلك الحي، وأن الآخر الذي لم تعرفه قد يكون هو ذات الطفل الذي تمتلك له صورة على هاتفها. ما أصغر الدنيا؛ تدور بك في المتاهات الطويلة لتعيدك إلى المكان نفسه، تدفعك لأن تزور أحياء الفقراء لتجد صورهم على هواتف الأغنياء، كلنا شئنا أم أبينا حلقات لسلسلة واحدة مترابطة تجرّ ما يصيبها إلى الجميع. لكن لماذا يأخذون هؤلاء الأطفال؟ هل يبيعونهم في الخارج؟ وما علاقة وزير الصحة بهذا؟ أخفت وجهها بين كفيها تكاد لا تصدق الذي يجري قبل أن تشعر بذراعيه تلفّانها من الخلف وهو يهمس في أذنها يطلب منها أن ترقص معه على أنغام تلك الإسبانية الجميلة! ليس الآن يا فادي، إنني أشعر بالبرد في كل أوصالي، و في ركبتيّ المربوطتين بالذهول. استجمعت قواها وقالت معتذرة: «بعد قليل، دعنا نطلب الطعام أولًا

ونكمل ما بدأنا الحديث فيه». جلس أمامها محتجًا بصبر: سئمت الحديث عن البؤساء وسئمت الحديث عن العمل!

لا تدري سارة كيف أنهت أمسيتها تلك مع فادي، إلا أنها شعرتها دهرًا من الزمان. أما طريق عودتها إلى البيت فكانت لا تفكر إلا في عدنان، عليها أن تخبره أنها وصلت بنفسها إلى شيء تظن أنه مهم في هذه القضية. وأن فادي متورط جدًّا بالأمر كما يبدو، لكن عدنان لا يعرف مَن يكون فادي، لا بدّ لها إذًا أن تعترف له أخيرًا، وعندما وصلت المنزل اتصلت به وأخبرته بكل شيء. كانت سارة تظن أن صمت عدنان على الهاتف ينبع من غضب أو خيبة أمل، لقد أخفت عنه أمر فادي، ومثل هذا حتمًا يعتبر كذبًا على مَن نريده شريكًا، بقيت تعتذر طويلًا عمّا لم يلقِ له عدنان بالًا، إنه مجددًا يكاد لا يصدق اتفاق القدر مع خططه وما يحتاج؛ فادي خطيب سارة هو ابن رئيس الوزراء وهذا الأخير هو هدف عدنان الأول، إنه يريد أن يطيح به ليس عن منصبه وحسب بل وعن الحياة نفسها. لن يجد أنسب من فادي ليعلم منه أخبار والده وأماكن تواجده التي طالما كان يخفيها عن الجمهور، فلا أحد يعلم أين ينام «دولته» . أخرجه من تفكيره هذا صوتها:

- عدنان! قلت أنا آسفة، أرجوك قُل شيئًا.
- لا بأس.
- لا بأس! هل يعني هذا أنك غاضب؟
- لا.

- إذًا ماذا سنفعل؟
- في ماذا؟
- في أمر الأطفال المختطفين.

صمت عدنان وقد غاب عن باله الأمر لدقائق، إنه لا يريد لسارة أن تدخل هذه الدوامة، في الحقيقة إن آخر ما يحتاجه عدنان أن يجد سارة تعكر عليه هذا الأمر، لكنها كانت أيضًا مفيدة له جدًّا، فهو علم من أسرار شركائه ما لا يعلمونه هم، إنه يعلم الآن بالتحديد مَن هو الشخص المشترك معه من الحكومة في هذه القضية، وهذا أمر لا يمكن إلا أن يكون نافعًا.

- دعي الأمر لي. وسنتحدث لاحقًا.

أنهت الاتصال وهي تشعر بخفة وسعادة، لم يعد يثقلها أمر هذا السر الذي أخفته طويلًا عن عدنان، بالإضافة إلى أنها تمسك الآن بطرف خيط لمساعدة هؤلاء الأطفال، وأصبح في يدها ما تستطيع أن تكشفه لوالديها وأدهم إن وجدت نفسها مجبرة حقًّا على إتمام هذا الزواج البائس، شعرت أنها تمتلك كل شيء تحتاجه، ألقت بنفسها على سريرها ونامت بعمق.

***

كانت سارة قد توقفت عن الركوب مع العم سعد في سيارته إلا إلى الجامعة، وكان هذا القرار مزعجًا لماهر الكرواتي، إلا أنه غضّ النظر قليلًا لِما حملته الأحداث الأخيرة من مشادات وضغوطات لا

رغبة له بإشعالها أكثر، لكنّه بالتأكيد ما كان ليتركها دون مراقبة، لقد كان سعد يراقبها كلما سنحت له الفرصة وكان قد شاهدها مرة مع عدنان الوالي، إلا أنه لم يخبر أحدًا بذلك حتى شاهدها مرة أخرى. إنه يعلم أن أمرًا كهذا سيشعل منزل الكرواتي عن آخره لذلك قرر أن يخبر زوجته صفية بالأمر علّها تشير عليه بما يفعل. إن صفية تحب سارة ويزعجها جدًّا أن يصيبها مكروه، لكنها أيضًا مخلصة جدًّا لعائلة الكرواتي. صحيح أنها لا تحب السيدة هيلدا كثيرًا لجلافتها، إلا أنها تحترم السيد ماهر وتحب أولاده حقًّا، وكانت صفية كما سعد يدركان مدى قسوة الكرواتي حين يغضب، لذلك فقد أشارت عليه بأن يعرض الأمر على أدهم أولًا لكن عليه كما قالت أن ينتظر وقتًا مناسبًا لذلك، بمعنى أن يفاتحه بالأمر عندما يعود من يوم عمل جيّد وبعد أن يأخذ قسطًا مناسبًا من الراحة والاستجمام، ومن الأفضل أن يكون لديه في تلك اللحظات شيء من الحسّ المَرِح. وهذا بالفعل ما حدث، ففي اليوم التالي تمامًا عاد أدهم إلى بيته في مزاجٍ جيد، وبعد عشاء شهي خرج إلى الحديقة ليسدد كرة السلة في مكانها المناسب، فانتظره سعد حتى انتهى ثم طلب أن يتحدث إليه قليلًا بعد أن طلب من صفية تحضير كأسين من عصير الليمون، لقد ظنّ أدهم أن العم سعد يريد المال مجددًا، وهو في الحقيقة ما أزعجه أن يفكر فيه، بالتأكيد لن يردّه فسعد فرد من العائلة لكنه يعلم بأنه إذا أعطاه ما أراد فلن يتوقف عن ازعاجه والتوجه إليه شخصيًّا من أجل ذلك مرارًا وتكرارًا، لكن ما قاله سعد كان أكثر خطرًا

من أمر القليل من المال الذي ظنّ أنه سيقترضه، أخته إذًا تقابل شخصًا من عامّة الشعب من دون حراسة ومن دون أن تخبر أحدًا من عائلتها بأمره، ومن الواضح أن هذا الشخص لا يعلم أنها مرتبطة بشخص آخر. ما الذي تحاول أن تفعله هذه الفتاة؟ ما الذي يجعلها تفسد كل شيء بهذه الطريقة؟ هذا كله لا يشبه سارة في شيء فهو يعرفها جيّدًا أو هكذا يظن، إنها الفتاة الهادئة واللطيفة والمطيعة، إنها لم تمتلك الجرأة يومًا قبل هذا لتقف بوجه والدها أو تخالف رأيه حتى ولو كان من وراء ظهره، لقد كانت دائمًا بارعة بإنجاز ما يتوقع منها فعله على أكمل وجه، ماذا سيقول لوالده؟ حسنًا ربما هو لن يفعل، عليه أن يخاطبها أولًا وأن يجبرها أن تتراجع من دون أن يتسبب بنوبة قلبية لوالده.

في صباح اليوم التالي قامت حرب في غرفة سارة، فقد دخل يصيح متسائلًا عن هوية ذلك الرجل، لم يستمع إلى شي مما تقول، إنما أفرغ ما في جعبته من الكلام، قال إنها تتحول إلى غبية وخطرة، وأنها فتاة تلعب بالنار، لامها على خيانتها لفادي الذي يصبر عليها إلى أبعد حد، ولغدرها بوالدها الذي يدفع عمره ليحفظ لعائلته ولها حياة تليق بها، واستجداها ألا تقتل والدتها بخبر كهذا. ظن أنه بما فعل سيحرج سارة التي ستتراجع حتمًا، لكن ما فاجأه كان أن سارة متمسكة بموقفها، وأنها لا تشعر بأنها تخطئ، إنما كانت تدافع عن نفسها أمام أدهم كأنها تفصل بينها وبينهم، كأنها طرف لا علاقة له بعائلتها تقول ما لديها أمامه دون خجل أو ذنب أو خوف. دافعت باستماتة عن عدنان، شرحت له

عن مؤهلاته وعن تصوره المثمر لمستقبل أرض العرب، لكنه ضحك مستهزِئًا وهو يسألها إن كان هذا الكلام هو ما يخدعها به، إلا أنها لم تعِر استهزاءه اهتمامًا بل تابعت تتحدث عن منطقه وعن وسامته وعن الخير في قلبه، أخبرته أنها ستقتل نفسها إن حدث وأجبروها حقًّا على الزواج من فادي، وبأن الأخير متورطٌ بقضايا لا يمكن معها إلا أن يزج به في السجن، لكن أدهم عند هذه النقطة بالذات وضّح لها بصرامة أنّ أيًّا ما كان يقوم به فادي فهو خارج حدود ما يحق لها التدخل فيه، وأنها إن فعلت ذلك فإن القبر حتمًا سيكون مصيرها. صاحت في وجهه و هي تجيبه بأنها لا تخاف تهديده، لكنه أمرها بأن تستفيق لأن ما تقوم به هو ما يهدد أرض العرب بحالها وأنها إن لم تتوقف عن جنونها وإن لم تتوقف عن مقابلته فورًا فإنه سيضطر لإخبار والدها بكل شيء، وعندها عليها أن تحتمل العواقب مهما كانت.

خرج أدهم من منزله غاضبًا يتنطط الشرر من عينيه متوجهًا إلى مكتبه منحنيًا عن الطريق السريع ليأخذ المنعطف المخصص لكبار الشخصيات، توقف عند بوابة العبور بنفاد صبر، أراد أن يخرج بطاقته ليريها إلى حارس البوابة الواقف في تلك الغرفة على يمين الطريق، إلا أنه أدرك بعد بحث طويل أنه نسي محفظته بما فيها. اقترب من الكرسي الفارغ أمامه محاولًا أن يصل إلى نافذة السيارة الأمامية اليمنى وهو يقول للحارس:

- أنا أدهم ماهر الكرواتي. نسيت بطاقتي وأحتاج إلى العبور.

غادر الحارس الغرفة بهدوء متوجهًا حيث أدهم، كان رجل أمن هزيلًا وصغير العمر، حديث العهد بالمكان كما يبدو، نظر إلى أدهم وكرر بطريقة آلية «البطاقة يا سيد». لكنّ أدهم المنزعج والمتعب من جداله الطويل مع سارة لم يكن يملك طاقة لدخول جدال آخر مع غريب فقال بهدوء يحمل معه ما تبقى لديه من صبر: «قلت لك أنا ابن ماهر الكرواتي وأنا مضطر للعبور».

- نعم يا سيد، أحتاج إلى ما يثبت ما تقول.

مسح أدهم وجهه بكفيه وهو يقول:

- هيا يا رجل ألا تقرأ الجرائد؟

- البطاقة يا سيدي.

- تبدو جديدًا هنا، وهذا في الحقيقة لا يهمني فأنا أحتاج إلى المرور. ثم صَمَتَ قليلًا وهو ينظر في عيني الحارس قبل أن يضيف بحدّة «الآن».

- أعتذر يا سيد، تستطيع أن تمضي حيث تشاء من الطريق المعتاد.

هنا ترجل أدهم من سيارته وهو يصرخ في الحارس «قلت لك من أكون افتح البوابة وإلّا فتحت عليك أبواب جهنم».

حافظ حارس البوابة على هدوئه رغم كل ما يجري قبل أن يقترب وجهه من وجه أدهم مجيبًا:

- وأنا لا أكذبك، أحتاج فقط ما يثبت لي ذلك.

هال أدهم بكفه القوية على وجه الشرطي الهزيل بغضب:

- ما رأيك بهذا الإثبات؟

ثم عاد إلى سيارته وانطلق بها محطمًا اليد الفاصلة بينه وبين الطريق من دون أن ينظر إلى الحارس الذي تجمد خلفه تُعِدّ الأقدار فوق رأسه ما تُعِد لهذه البلاد.

**

كان الضابط قد تخلص من حديد عن طريق دس منوم له في الطعام، ثم حقنه بمادة أنهت حياته بهدوء، نعم بهذه البساطة، لم يَمُتْ معذبًا ولا متألمًا ولا مسجونًا، مات غدرًا وحسب على يد من ظنّ أنه يمنحه الحياة، تأتي الضربات القاضية دائمًا من الداخل، لا شيء يكسرنا كما يفعل من نحبهم أو من نظنهم وزنًا فاعلًا في طرف المعادلة الخاص بنا، أولئك الذين نعوّل على وجودهم رغم أننا كنا لننجو دونهم لو لم نحسب لوجودهم حسابًا، لكننا نشعر بالفخر والسعادة حين يمنحوننا تلك القوة والجبروت الذي نصدق ونحن نلتقفه أننا أصبحنا لسبب ما عظماء مهيمنين. مسكين حديد، عاش عمره كله يبطش بالبشر حتى تلبدت مشاعره تجاه أي جميل، حتى اسمه الحقيقي لا يذكره أحد سوى زوجته العاقر التي لا يراها كثيرًا وأوراقه الثبوتية لدى الحكومة. إن الانحراف الذي أصاب روحه ونفسه جعل منه شيطانًا بكل ما حملته الكلمة من معنى، لكنه هو الذي امتلك من الجبروت ما عذّب به أرواحًا لا حصر لها، وأخرج أخرى من أجساد أصحابها بعد ما مزقها وجعلهم

يتمنون الموت قبل ذلك عدة مرات، لم يصمد أمام حقنة لم تأخذ من جسده سوى ثقب لا يكاد يرى وبقعة زرقاء صغيرة فوق جلده تكاد لا تظنها شيئًا.

تم إبلاغ زوجته وهي عائلته الوحيدة بأنه أصيب بنوبة قلبية قضت على حياته ثم تكفلت الحكومة بتكاليف الدفن وغاب حديد كأنه ما كان يومًا.

حين أبلغ الضابط فادي بإنجازه ما طلب منه، سأله أن يوفي بوعده بالتحدث مع وزير الداخلية أن يغفر له ما حدث بخصوص خالد، لكنّ فادي طلب من الضابط قبل ذلك أن يعيّن حديدًا جديدًا، وأن يُبقي بالطبع على الاسم المستعار كما هو، وهذا ما كان.

بعد عدة أيام، دفع فادي إلى مرافق الضابط ليقتله على أن يبدو الأمر على أنه حادث سير طبيعي. لكن لسببٍ ما يجهله فادي لم تؤمن ابنة الضابط أن أباها كان قد مات موتة طبيعية في حادث لا لبس فيه، فخرجت بكل حرارة محبتها له وحزنها تتحدث عن مكنونات صدرها على مواقع التواصل الاجتماعي والتي انتشرت بين أطراف المعارضة مثل النار في الهشيم، وكان عدنان قد طلب إلى سارة أن تبعث بالفيديو المصور إلى كل ما تصل إليه من المواقع المكتظة بالمعجبين، وأن ترسل إلى من يمكنها أن ترسل إليه عن طريق العناوين العشوائية وغير العشوائية التي كان قد زودها عدنان بها عبر البريد الإلكتروني. إلّا أن الفتاة ابنة الضابط المغدور ظهرت بعد يومين فقط في فيديو مصور آخر

تنفي فيه شكوكها وأنها كانت تحت هول الصدمة حين قالت ما قالت وأنها في الحقيقة تشكر الحكومة على جنازته العسكرية القديرة وعلى وقوفها إلى جوار العائلة في مثل هذا الحدث الجلل الذي أكدت أكثر من خمس مرات بأنه كان قضاء وقدرًا لا يد بشرية متقصدة فيه. لكنّ الحقيقة كانت أن الضابط الجديد الذي اختاره فادي بعناية قد أحضر ابنة زميله القديم وتحدث إليها أكثر من ساعتين كلامًا معسولًا يحتوي الكثير من المدح لوالدها وعمله وأن الحكومة لن تنسى أفضاله ونضاله وأنها ستقف مع العائلة حتى النهاية، وكلامًا آخر مسمومًا يحمل الكثير من التهديد والوعيد لكل من له صلة به أو بها إن لم يتم نفي الخبر الذي يؤثر على أمن البلاد كما أطلق عليه الضابط الجديد، وكان قد أعدَّ في غرفة مجاورة لمكتبه ورقة كتب عليها ما على الفتاة أن تقول، ومنحها خمس عشرة دقيقة لتحفظها عن ظهر غيب قبل أن يصوّر ما تقوله على هاتفها وينشره على صفحتها الخاصة ويرسله إلى صفحات معروفة أخرى كثيرة، ثم تم شكرها وإرسالها إلى منزلها مع مرافق.

**

في أقل من أربع وعشرين ساعة، كانت عشيرة بني فرسان تغلي على إثر ما فعله ابن ماهر الكرواتي مع ابنها مهيب. من وجهة نظرهم كانت الحكومة تمسّ ما لا حق لها المسّ به، فالقبائل في أرض العرب لها وضعها الخاص، كأن بينها وبين الحكومة اتفاق غير رسمي بحماية كل منهما للآخر وعدم التعدي على حقوقه التي يعترف كل طرف بها

ضمنيًا للطرف الآخر. لكن أن يهين أحد أبنائهم ابن عشيرة بأن يصفعه وهو يؤدي واجبه فهذا ما لم يكن أحد يظن أن هناك من يجرؤ في الحكومة على فعله. ألا يكفي أن أحد أبنائها كان قد غاب ولم يدر عنه أحد بعد ذلك شيئًا! اتهموا الحكومة في البداية بإخفائه قصريًا، لكنهم ومع كل علاقاتهم هناك لم يجدوا له أثرًا، إلّا أن جزءًا كبيرًا منهم ظلَّ يعتقد أن الحكومة ولسبب ما اختطفته وزجت به في زنازينها وأن هناك أوامر عليا تمنعها أن تعلن عن ذلك لعشيرته. لذلك فإنهم اجتمعوا مع ممثل العشائر وطالبوه بعقد اجتماع يضم وفدًا مختارًا من القبائل الكبيرة الأخرى للحديث حول موضوع ابنهم مهيب، وفعلًا تم عقد الاجتماع بين وجهاء وشيوخ القبائل الأشهر والأقوى في البلاد بوجود اثنين على الأقل من كل قبيلة، وكان شيخ عشيرة بني فرسان في الحقيقة مقربًا من الحكومة بشكل خاص إلّا أن حالة من التوتر كانت قد سادت على العلاقات بينه وبين رئيس الوزراء مؤخرًا لأسباب اقتصادية بحتة، حيث أن رئيس الوزراء كان قد قلّص من بعض الالتزامات التي تم التعارف عليها سابقًا على أنها من حق العشائر، وتم حدوث مواجهة مباشرة بينه و بين شيخ العشيرة ما دفع به إلى تقليص امتيازات شيخهم لدى الحكومة بشكل متعمد وفردي دونًا عن شيوخ القبائل الأخرى التي كانت ردودها أقل حدة بالنسبة إلى قراراته الجديدة، لكن شيخ العشيرة هذا كان أيضًا مقربًا من شيوخ القبائل الأخرى وكان باجتماعه المتعلق بابن عشيرته مهيب قد انتقى كلماته بعناية وهو يخطب فيهم محذرًا بأن

من قام بما قام به مع مهيب لم يكن يعلم أنه من قبيلة بني فرسان بالذات وأن أيًا من أبنائهم العاملين في الحراسة أو في المؤسسات الحكومية أو العسكرية سيكون معرضًا لأحداث مشابهة لو تم السكوت عن فعل كهذا، وأن الدفاع عن مهيب هو واجب العشائر جميعًا حتى لا يتم الاستخفاف بأي منها مستقبلًا، وانتهى الاجتماع بالاتفاق على ضرورة ردّ قوي حاسم تتعدى نتائجه اتصال أحد المسؤولين ليقدم اعتذاره هاتفيًا أو حتى بحضوره إلى العشيرة، على الرد أن يكون هذه المرة مخيفًا وفيه استعراض لقوة القبائل التي كما يبدو حسب قوله بدت تخبو في عين الحكومة التي لم تعد تأبه بأولادها المفقودين أو المهانين أو حتى بحقوقها المتعارف عليها، وهكذا كان خبر ما فعله أدهم قد انتشر على الإذاعات المعارضة للنظام وعلى وسائل التواصل الاجتماعي وكانت القبائل قد تفرقت تنوي رفع صوتها بعنف في الشوارع وأمام المراكز الحكومية الحيوية في البلاد.

**

كاد صراخ ماهر الكرواتي يملأ الحي الدبلوماسي الذي يعيش فيه وهو يصيح بأدهم على إثر ما قام به مع الشرطي على بوابة العبور الخاصة بالديبلوماسيين:

- هل تعلم ما الذي فعلته؟

إلّا أن أدهم أجابه بانفعال:

- هذا الرجل يصنف من أكثر الكائنات غباء على هذه البسيطة.

- نعم! وأنت جعلت من هذا الغبي مادة دسمة للإطاحة بسمعتك وبتوريط الحكومة بقضية كهذه.
- لا أعتقد أن الأمر يستحق كل هذا.
- ألا تدرك ما فعلته يا أدهم؟ هؤلاء القبائل يقفون اليوم صفًا واحدًا يطالبون الحكومة بأكثر من اعتذار. إنهم يقفون معًا من أجل حقوقهم بعد أن كانوا يتنازعون على دجاجة ويقتتلون بسبب شجار أطفال، وأنت تقول لي لا يستحق الأمر كل هذا! اسمع يا أدهم قبل عامين قام أحد أبناء هذه القبائل بالاعتداء على فتاة وتم ضبطه وهو يفعل ذلك وحين حاول الشاب الفرار لحق به أهل الفتاة، وأثناء هروبه قامت سيارة بدهسه لأنه قفز أمامها فجأة فمات. هل لك أن تخمن ما الذي حدث بعدها؟
- لا أدري! قتلوا السائق ربما.
- فرّ السائق ولم يطالب به أحد، لكن أهل الفتاة المعتدى عليها أجبِروا على الاعتذار لعشيرة الشاب المعتدي ودفع الكثير من المال كدية لأنهم لاحقوه وتسبب ذلك في موته. إنهم بهذا الجبروت مع أشخاص من عامة الشعب لا يملكون شيئا، فما بالك لو كان الأمر مع الحكومة وما يمكن أن يحصلوه منها خصوصًا أنهم ينتظرون أي فرصة للانتقام واسترداد كل ما سلبهم إياه رئيس الوزراء. هل فهمت الآن لم يستحق الأمر كل هذا.

نظر أدهم إلى والده بصمت، فهو لم يكن يعلم شيئًا عن هذا، وهو في الحقيقة لم يكن يعلم أن حارس البوابة ذاك كان ينتمي إلى إحدى القبائل العربية، إنه لا يريد أن يتسبب بالمشاكل لوالده أو للحكومة، نعم لقد أخطأ وكان هذا آخر ما يريده، لن يستطيع الآن أن يقول له شيئًا عن السبب الذي جعله يقوم بذلك؛ ذلك الوغد المدعو عدنان الأستاذ الجامعي الذي تخرج معه سارة. هذا سيحمّله أكثر مما يستطيع، عليه إذًا أن ينهي الأمر بعيدًا عن والده، أو أن يؤجل الأمر، أقلّه، حتى تهدأ هذه القصة.

- ما الذي استطيع أن أفعله يا والدي؟
- لا تفعل شيئًا، أبقِ فمك مغلقًا وحاول تجنب الإعلام هذه الفترة حتى نرى ما ستؤول إليه الأمور. بعد غد سيعود رئيس الوزراء من رحلته وسأجتمع به مساءً فور عودته في قرية الأكواخ في الساحل الشرقي وسنرى ما يمكن فعله مع هؤلاء.
- نعم.

**

في اليوم التالي قابلت سارة عدنان الوالي في المقهى نفسه الذي تقابلا فيه أول مرة، كان دائمًا ما يجعل لقاءها ذا فائدة، إذ أنه يعتصر بطريقة ذكية وخبيثة كل ما لديها من معلومات تبوح بها بطلاقة مَن يبوح لمن يحب بالأحداث اليومية التي تحيط به، أخبرته عن أدهم وتصرفه مع مهيب ابن قبيلة بني فرسان لكن عدنان كان يعلم ذلك بالتأكيد، ثم

أخبرته أنها كانت السبب فيما حصل وأن أدهم علم بأمره، وما أن أدرك عدنان ما تقوله سارة حتى أصابه الهلع، إنه يعلم تمامًا خطر أن يصبح اسمه متداولًا بين أفراد الحكومة، بل وفي بيت ثاني أو ثالث أهم رجل في الدولة، لن يصمت أدهم عن هذا طويلًا، وسيحاول استخراج كل المعلومات الممكنة عنه وهذا بحد ذاته مصيبة، إنه ليس مثيرًا للانتباه ولا للشكوك حين يكون فردًا من عامة الشعب، لكن إذا دارت فعلًا حوله أية شكوك فإن كشفه ليس بالأمر الصعب، إنها مصيبة لم يحسب لها حسابًا إذا ظنَّ بأن سارة وبوجود فادي ستكون أجبن من أن تخبر أحدًا من أفراد عائلتها بأمره، أو حتى أن تعترف بوجوده إن تم الإمساك بها، إنه حقًّا في ورطة وعليه أن يختفي جيّدًا وربما عليه أن يتوقف عن التواصل معها وسريعًا، هو لم يجد مخرجًا بعد لجعلها تصمت عن قصة الأطفال المختطفين حتى تجيء له بهذه المصيبة، ما هكذا يجب أن تسير الأمور، من المفترض أن يستغلها هو ليعلم كل ما يحتاجه أو ينفعه من أسرار الحكومة وها هي تكاد تقدمه كبشًا إليها. كانت تتحدث ولا يسمع شيئًا، كان يقرر في عمق تفكيره كيف عليه أن يقطع صلته بها، ما أخذه منها يكفيه على قلّته، لكن شيئًا ما قالته استوقفه؛ جملة نطقتها جعلت عقله يتوقف عن التفكير تمامًا، استوقفها، ظن أنه لربما يهذي من هلعه، فطلب منها أن تكرر ما قالته فكررت على مسامعه بأن والدها سيلتقي بعد غد رئيس الوزراء في قرية الأكواخ السياحية ليحلّا المشكلة التي قام بها أدهم. صحيح أنه لم يسمع شيئًا مما كانت تقول، لكنه كان

مذهولًا كيف أنها نطقت بهذه الكلمات كمن يبدي رأيه في فنجان قهوة، إنها لا تعلم قيمة مثل هذه المعلومات لديه، هو الذي أمضى سنوات من عمره يحاول أن يعلم أين يمكن أن يكون رئيس الوزراء في اللحظة التالية لكنه لم ينجح في ذلك قطّ، هو الذي تحمّلها طوال هذه الفترة من أجل هذا بالتحديد وقد جعلته يواجه الكثير من المشاكل من دون أن يستطيع حتى أن يتطرق إلى الأمر، لتمنحه هي الإجابة على طبق من ماس في اللحظة نفسها التي كان يفكر كيف سيتخلص منها، ياللقدر حين يعطي. نظر في عينيها لا يصدق ما يجري ثم قاطعها يقول:

– أنا أحبك يا سارة.

توقفت عن الكلام بل كادت تتوقف عن التنفس حين قالها، ثم سألت بصوت منخفض كأنها لا تكاد تصدق:

– حقًا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

– أنت تستحقينها.

– أستحقها؟!

كان من المفترض أن يخبرها كيف يشعر بها لا أن يخبرها أنها تستحقها لكنه لم يكن قد انتبه إلى أنه قالها بصوت مرتفع حتى استهجنت ذلك عليه، فتدارك ذلك بأن أمسك كفها وتابع:

– بالطبع فأنا أشعر بها منذ اللحظة التي قابلتك بها، لكن دفاعك عني اليوم أمام عائلتك بهذا الشكل يجعلني أرغب أن أعترف بها أمامك.

مسكينة سارة كل ما في داخلها يغني للحب والحق، ترفض ما يرفضه كل حر حقيقي لكنها اليوم بين فكي كماشة، فك الفساد الذي سيحميها بدمه لأنها ابنته لكنه في الوقت نفسه يقتات لحم الشعب ويطعمها إياه، وفك التمرد عليه والذي يقف في وجه الفاسدين ليأخذ مكانهم وهو لا يأبه بها ولا بدمها وهي غافلة لا تدري عن ذلك شيئًا.

أما عدنان فقد انهال عليها بكلمات الحب والغزل التي لطالما انتظرتها وطار بها حيث الأحلام الوردية ترسم لها بيتًا صغيرًا وأطفالًا وحياة مثالية، ثم غادرا هي على سيمفونية حب وهو على سيمفونية اغتيال.

-٦-

بعد أن علم عدنان بلقاء رئيس الوزراء وماهر الكرواتي عجّل خطواته مع رجاله الذين كانوا يستعدون منذ زمن بعيد لهذه الخطوة بالذات والتي ستكون البداية لسلسلة أحداث لاحقة، اتصل بريان وأمره بدخول القرية الليلة باسم مستعار لكبار التجار في الخارج ومعه اثنان من خبراء التكنولوجيا على أن يبدوا كمرافقين، ذلك حتى يستطيعا دراسة أمر الكاميرات واختراقها إن استطاعا، وأن يعمل ريان بخبرته الواسعة في هذا المجال على حفظ المداخل والمخارج الرئيسة للمبنى والتقصي حول الطوابق أو الغرف التي تحجز لكبار الشخصيات في أرض العرب، ثم طلب منه أن يغادر بعدها على الفور وأن يعود حيث عدنان الذي سيشرح له طريقة التخلص من رئيس الوزراء من دون فوضى.

في صبيحة اليوم التالي وقبل الساعة العاشرة صباحًا كان ريان عند عدنان يشرح ما توصل إليه، أخبره بأن هناك جناحًا مخصصًا للحكومة وهو بالطبع لرئيس الوزراء وضيوفه فلا يدخله أحد آخر، وأنه كثيرًا ما يتردد عليه مع الضيوف فيجلسون لعدة ساعات ثم يغادرون،

وعليه فإنهم حتمًا يجتمعون لأمور سرية بعيدًا عن الصحافة أو أي نوع آخر من المخابرات المحلية أو الأجنبية. وعلم أيضًا أنه قد يظل هناك لساعات متأخرة من الليل أو حتى قد يقضي الليل كله إن كانت مَن معه ضيفة من نوع خاص.

نظر عدنان إلى عيني ريان بدهشة: «معلومات كثيرة وخطيرة وسرية في ليلة واحدة يا ريان، أنت حقًا ذراعي القوية».

ابتسم ريان موضحًا:

- في أرض العرب ادفع المال وامنح القليل من السلطة وبثَّ القليل من التهديد في النفوس وستحصل على ما تريد.

هز عدنان رأسهُ مبديًا إعجابه بقاعدة ريان:

- حسنًا إذًا، الاجتماع مساء هذا اليوم ولكننا بالطبع لن ننتظر حتى المساء. منذ هذه اللحظة ستنتقل إلى القرية وستأخذ معك رجلين من أمهر من لدينا، وأحتاج أكثر أن يبدوا طبيعيين ولا يظهر الشحوب أو الارهاق أو أي معلم سلبي آخر على وجههما، لا نحتاج إلى إثارة الشكوك.

- نعم يا سيدي.

- ونحتاج أيضًا إلى فرقتين، فرقة ترافق ماهر الكرواتي، رجل واحد فقط سيراقبه من منزله ويتبعه حتى المفرق الدبلوماسي ويوافيكم بوقت خروج موكبه من المنزل.

- و الآخرون؟

- والآخرون سينتظرونه في سيارة واحدة فقط بعد التقاء المفرق الدبلوماسي بالطريق العام؛ فالكرواتي لن يسير إلا في الطريق المعبدة لهم حتى ولو كان الشارع العام فارغًا، ودعهم يبقوا خلفه كي يعلموا الفرقة الثانية بتحركه.
- والفرقة الثانية أين ستكون؟
- الفرقة الثانية ستبقى خارج القرية السياحية وكأنهم زوار يتسكعون على رصيف الساحل وعليهم أن يبقوا السيارة قريبة من دون لفت أي انتباه وأن يكون أحدهم موجودًا متواجدًا فيها.

نظر ريان إلى وجه عدنان متسائلًا:

- إذًا فأنت ستطلق النار عليه حال خروجه من المنتجع.
- هذا سيكون خيارنا الأخير والأصعب بالتأكيد، فأنت تعلم بأن رئيس الوزراء شديد الحراسة وشديد الحذر ويلبس طاقية الإخفاء أغلب الوقت.
- وخيارنا الأول؟
- أن يموت ميتة ربه.
- وكيف ذلك؟

ابتسم عدنان ثم غاب قليلًا وعاد وبيده شيء يشبه القلم يكشف جزء شفاف منه سائلًا خفيفًا بداخله.

نظر ريان مندهشًا:

- ما هذا؟
- ماذا يبدو لك؟
- قلم! بداخله عطر؟
- لم تبتعد كثيرًا فهذا العطر سيكتب نهاية رئيس الوزراء إلى الأبد.

ثم أخذ يشرح لريان ما هو مطلوب منه ومن مرافقيه، وقبل الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم كان كلّ شخص متسمرًا في مكانه المحدد، وبالطبع فإن أحدًا منهم جميعًا لم يلمح دخول رئيس الوزراء أو مروره، أما ماهر الكرواتي فقد خرج من بيته بموكبه كالمعتاد فتبعه الرجل كما كان قد طلب منه، وهناك دخل الموكب من أحد أبواب المنتجع السياحي، وبقي المراقبون خارج المنتجع يراقبون ما يجري من دون أن يفعلوا أي شيء حقًا سوى الترقب والانتظار. أما في داخل المنتجع فقد كان ريان و المرافقان يتابعون ماهر الكرواتي وتحركاته من خلال اتصالهم بالخبراء الذين استطاعوا أن يخترقوا نظام جهاز المراقبة في القرية وفعلًا توجه ماهر الكرواتي إلى الجناح المخصص لرئيس الوزراء، وجلسا هناك ما يقارب الساعتين لا يعرف أحد سواهما بما أسرّاه بعضهما لبعض، إلّا أنهما اتفقا على أن يمنحا بعض القبائل الكبيرة بعض المراكز الثقيلة في الدولة وعندها ستثبت الدولة احترامها لهؤلاء والذين بدورهم سيسكتون القبائل الصغيرة ويتداركون الموقف قبل اشتعاله. ثم غادر ماهر الكرواتي المنتجع وبقي رئيس الوزراء في جناحه المحاط بحراسة شديدة حذرة.

وهنا ابتدأ عمل ريان ومن معه، حيث أشارت وحدة متابعة كاميرات المراقبة أن أحدًا من حرس وزير الدفاع لم يدخل إليه، وأنه يفترض به أن يكون وحده في الجناح، لكن عليهم رغم كل هذا أن يتحققوا بأنفسهم حيث أن الكاميرات لا تلتقط سوى المداخل والممرات والساحات الخارجية والمصاعد. وبما أنهم كانوا قد أشاروا سابقًا إلى النقطة الأنسب التي سيصعدون منها إلى السقف المستعار الساقط لِرَشّ المادة التي بحوزتهم في وحدة التكييف المركزي الموجودة هناك، فقد صعد ريان وكان أكثرهم احترافًا وأخف وزنًا وانتظر حتى تأكد من وجود جلبة في المكان تدل على وجود رئيس الوزراء داخل الجناح ثم تحقّق من مرافقيه بأن أحدًا لم يدخل إلى الجناح وأن من في الداخل هو رئيس الوزراء وحده، ورشّ ما في حوزته ثم غادر بهدوء تام وهو ينوي البقاء في المنتجع ما يقارب الساعة قبل أن يغادر ومرافقيه من دون شبهات، تاركًا خلفه عطر الموت في المكان لتُحمَل ذراته إلى الجناح وتنتشر فيه وتعمل كما يجب عليها أن تعمل، من دون أن تترك خلفها أثرًا أو رائحة سوى رائحة الموت التي سيعرفونها حالما يجدون رئيس الوزراء جالسًا على الطاولة يسند رأسه إليها متكئًا على كفيه وكأنه غارق في سبات عميق.

**

دخلت أرض العرب في حزن كاذب، جنازة عسكرية مهيبة أقيمت من أجل وداع رئيس وزرائها، ونكست الأعلام في كل مكانٍ

لمدة عشرة أيام توالت خلالها اتصالات العزاء من الأصدقاء في جميع الدول إلى عائلته، وإلى الحكومة. ما حدث كان صدمة على جميع الصعد. صحيح أن الرجل كان قد مات ميتة طبيعية كما يظن الجميع، إلّا أن خبرًا كهذا كفيل بأن يقلب كل شيء، إنه الرجل الأول في الدولة فالحاكم في الواقع لم يكن قادرًا على إدارة البلاد حقًا، وكان الأمر دومًا بيد رئيس وزرائه (وزير الدفاع) الذي وضع ماهر الكرواتي (وزير الداخلية) نائبًا له، مما ولّد الضغينة بين الأخير وبين الوزراء أعضاء الحكومة الآخرين. تلقى ماهر الكرواتي الكثير من الاتصالات التي تدعوه إلى استلام زمام الأمور مباشرة من دون التخلي في الوقت الحالي عن (الداخلية)، كان يعلم أن عليه أولًا أن يجد رجلًا محل ثقة ليتولى منصبه وزيرًا للداخلية قبل أن يستلم هو وزارة الدفاع و رئاسة الوزراء بل وعلى هذا الرجل المختار أن يكون طوع أمره وخاتمًا في إصبعه، فلقد سئم أن يكون هو ذلك الخاتم بيد آخرين ولوقت طويل حيث كان التوتر دائم السيطرة عليه، وكان دائم التخوف من أن يتم التخلي عنه في أي لحظة أو عند أي خطأ، لقد كاد يهب ابنته لفادي رغمًا عنها من أجل أن يضمن لنفسه ولعائلته مكانًا دائمًا في هذه السلطة. إنه سعيد، صحيح أنه يشعر بأنه بلا ظهر قريب يسنده إلّا أنه يدرك بأنه غدا الآن الظهر ذاته، لن يكذب على نفسه كثيرًا فهو رغم محبته لرئيس الوزراء ورغم الصداقة التي كانت تجمعهما إلّا أنه ليس حزينًا جدًا، بل في الحقيقة هو ليس حزينًا أبدًا فلقد منحه القدر أخيرًا ما يستحق، عليه الآن فقط أن يمسك بزمام الأمور وأن يسيطر على الأمر،

وأن ينهي أمر رئيس الوزراء السابق من دون أن يحدث أي ضجة أو بلبلة، فأرض العرب لن تحتمل شيئًا من هذا القبيل، إنها قنبلة موقوتة ولا يمكنه أن يسمح لها أن تنفجر قبل أن يأخذ منها كل ما يريد والوقت الذي يحتاج، وهو لم يخفِ ذلك عن عائلته التي شاركته نفس الرأي، هيلدا لم تكن فرحة فقط بل شامتة ومهللة بكونها ستكون اليوم حقًا السيدة الأهم على هذه الأرض بعد تلك العجوز زوجة الحاكم، في الواقع ستكون كما أرادت دومًا السيدة الأولى لهذه الأرض، أدهم شعر بالأسى لصديقه فادي، بل و لرئيس الوزراء نفسه، لقد كانوا في الحقيقة أقرب الأصدقاء، لكنه كان أيضًا فخورًا بالوضع الجديد للعائلة، التفت إلى سارة وهو لا يزيح عينيه عن شاشة التلفاز التي لا تنفك تذيع الخبر الفاجعة والمراسم التي تبعته وقال:

- رحل رئيس الوزراء وحلّ والدك محلّه! أنت اليوم أميرة هذه السلطة من دون منازع ومن دون أن تضطري إلى الزواج من أحد. ثم نظر إليها وغمزها بعينه.
- هل يعني هذا بأنه لا داعي اليوم أن أتزوج من فادي؟

رفع كتفيه:

- إلّا إذا أردت ذلك.

رفعت حاجبيها وهزت رأسها نافية قبل أن تنظر إلى والدها كأنها تنتظر منه تعليقًا، فاقترب منها وقال وهو يضع كفيه على شعرها فوق أذنيها:

- لا فادي إن كان لا يعجبك.

تنهدت بارتياح وفرح:

- من كان ليظن أن موت السيد عصام سيزيح عن قلبي هذه الغمة.

قال أدهم:

- يبدو أن القدر يكافئنا.

إلّا أن ماهر الكرواتي سرح بفكره طويلًا وبدا كأنه يتحدث إلى نفسه:

- ليس بعد، علينا أن نسيطر على البلاد أولًا من أي فوضى قد تقع.

- كيف ذلك؟

سترى!

قالها ثم دخل غرفة مكتبه وكلّم شخصًا ما عبر الهاتف لم تعرف سارة من يكون، إلَّا أنها سمعته يصيح بالرجل على الطرف الآخر:

- لا يكفي! لقد كان أسر أولئك بهدف أن نعلم بأمر المخططات التي تستهدف الدولة ولنفهم من بالضبط كان خلف الفوضى التي جرت ومن يريد شرًا بهذه الحكومة، لكنهم لا يكفون لردع الفوضى التي قد يستغلها آخرون كثيرون لإحداث بلبلة في الأمن العام، وأنا أحتاجك أن تعتقل كل من له مصلحة في فعل هذا حتى تهدأ الأمور ثم سنخلي سبيل من لا شيء عليه.

خرج الكرواتي من مكتبه وعلامات الجدية تبدو على وجهه في حين قالت هيلدا:

- حسن فعلت، آخر ما نريده الآن هو أن يقوم بعض الرعاع بإفساد كل شيء.

نظرت سارة حيث أمها و قد شعرت بذلك الزيف في معدتها قبل أن تعتذر وتغادر.

**

لقد كان رئيس الوزراء الراحل العدو الأول لكل المعارضين لنظام الحكم، بل كان العدو الأول لكل فئات الشعب عدا أولئك المستفيدين مباشرة من فساده وسلطته، فرح الشعب بموته وابتهج كثيرون ووزعوا الحلويات احتفالًا برحيل الطاغية الأكبر في البلاد حيث أنهم جميعا يعلمون بأن الحاكم لا يغني ولا يسمن من جوع، ولم يكن هؤلاء المحتفلون من أحزاب المعارضة، إذ إن أولئك بالعادة أكثر حذرًا ويتخذون ردود أفعال ذات صدى أكبر من مجرد ابتهاجهم هكذا بموت أحد الطغاة. أما عدنان فقد كان يراقب المشهد من بعيد سعيدًا بما وصل إليه حتى اللحظة، لكنه يعلم أنه لن يكون شيئًا إن لم يركز أهدافه القادمة ويتقن ما سيفعل. ها هو يتابع من مصادره كيف أن الحكومة بدأت باعتقال أفراد كثر من قوى المعارضة، خشية أن تحدث الفوضى المتوقعة في البلاد، إنه مغطى حتمًا، لا أحد يعلم عنه شيئًا سوى أنه محاضر في العلوم الاقتصادية وبكنية أخرى، لكنّ هناك أفرادًا بعينهم في أحزاب محددة يعلمون تمامًا من يكون عدنان الوالي، آخر ما يريده هو أن يتم القبض على أحدهم ودفعه إلى قول شيء ما. يكفي أمر خالد، حتى الآن لا يدري كيف تمكنوا من إلقاء القبض عليه وحتى

اللحظة لا يدري إن كان قد قال شيئًا، كان قائد خالد يؤكد بأنه ما نطق حرفًا وأن له قدرة عجيبة على تحمل عذابات الموت، وأنه يمتلك عددًا من قصص التغطية الجيدة والتي لن يقول منها شيئًا إلا إن أوشك حقًّا على الهلاك.

كان على عدنان أن يشتت الحكومة عن أحزاب المعارضة، أن يجعلهم يحاربون في خنادق أخرى وإلا فسيقضى على المعارضة وتباعًا سيقضى حتمًا على جيش عدنان، كل ما كان عليه فعله أن يقوم هو وفريقه ببث شائعة واحدة والإصرار عليها عبر شبكات التواصل الاجتماعي «وزير الداخلية ماهر الكرواتي ينقلب على رئيس وزرائه ويتخلص منه ليجلس على كرسيّه». كم يحتاج إلى سارة في هذا فهي تعمل كنحلة نشيطة، ولا تتوقف حتى تُعلم بقاع الأرض كلها بما تود أن تخبرهم به. لكنه لن يستطيع أن يطلب منها شيئًا كهذا، ولا يمكن بالطبع أن يبوح لها بشيء من أمر اغتيال رئيس الوزراء. على أي حال كلّ ما حدث كان أمرًا لا يذكر أمام خطة عدنان الثابتة، خطوته الثانية جاهزة منذ زمن بعيد لكنه ما استطاع أبدًا أن ينجز الخطوة الأولى حتى أهدته إياها ابنة الكرواتي. غدًا صباحًا سيبدأ عصر عدنان الوالي بالإشراق على أرض العرب، وسيكون هو وحده من سيمسك خيوط الدمى في عرضه الجديد.

**

الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي استيقظت أرض العرب على انفجار وقع في محطة القطار، هذا الخبر المفزع كان يحدث لأول مرة في البلاد، لا أحد يدري بعد كيف حدث ومن خلفه، استيقظت سارة على صراخ صفية فخفق قلبها بقوة وقد ظنت أن أحدًا في المنزل قد أصابه مكروه، نزلت الدرج مسرعة ووجدت هيلدا تمسك بصفية وهي تقول لها «قد لا يكون من بينهم، قد يكون تأخر أو لم يذهب أو ذهب ولم يصبه مكروه».

كانت سارة تنظر إلى صفية وأمها وأدهم المتسمر بذهول أمام شاشة التلفاز الذي ينقل صورًا لدماء ودمار.

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تقول بصوت واضح: «ماذا هناك؟»

أشار أدهم إلى الشاشة من دون أن يزيح وجهه عنها وقال بصوت يشبه الآلة:

- وقع انفجار قبل قليل في محطة القطار، لا يمكن الجزم بعدد الضحايا لكن الحكومة تقدرهم بالمئات.

- المئات! كيف حدث هذا؟

لم يأتِها الجواب من أحد. كان الجميع مذهولًا، وصراخ صفية يصيبهم بالرعب والقشعريرة وهي تقول: «منذ أكثر من عشر سنوات ابني يقف في هذه المحطة كل يوم عند السابعة. ابني لن يتجاهل اتصالي إلّا إذا أصابه مكروه» لم تستطع سارة أن تقول شيئًا من هول ما سمعت إنما أكملت نزول آخر درجتين قبل أن تقف إلى جانب أدهم تتابع مشاهد الدمار وهي تقول:

- هذا فظيع!! أين العم سعد؟
- ذهب ليتقصى أخبار ابنه.
- كيف حدث هذا؟
- لا أحد يدري يا سارة. أرض العرب على كف عفريت.

ثم أطرق يفكر قليلًا قبل أن يتابع بحنق:

- كان على أبي أن يدرك أن أمرًا كهذا قد يحدث.

نظرت إليه بجزع:

- وما شان أبي بأمر كهذا؟
- ما الذي تتوقعينه يا سارة عندما تزجين بعشرات الأشخاص في السجون دفعة واحدة بحجة أن أرض العرب ليست مستقرة؟ أبي لم يستثنِ حزبًا واحدًا، وقبض على من استطاع من قادتهم، على هذا بالتأكيد أن يخلّف جماعات غاضبة لا تشعر بالاستقرار في غياب قادتها ومستعدة لتفعل أي شيء في سبيل الضغط على الحكومة. لقد قلت له إنه قرار خاطئ لكنه لم يستمع إليّ.

صرخت صفية مرة أخرى:

- يا الله لقد وقعت الشبكة. الآن حتى الهواتف لا تدق. آه يا و لدي!!

التفت أدهم إلى سارة وقال لها:

- لا جامعة اليوم، لا يخرج أحدكم من البيت وسأرسل قوة أمن إضافية لحراسة المنزل احترازًا من أي ردة فعل.

أمسكت سارة بيده:

- إلى أين تذهب؟

- لقد سقطت شبكة الاتصال، عليّ أن أسرع إلى الشركة لمتابعة هذا، لا يمكننا إفزاع الناس أكثر، سيثورون علينا.

ثم غادر بسرعة وترك صفية خلفه تنوح على ابنها المفقود وهيلدا تهدئها. أما سارة فجلست تتابع مشدوهة تلك الصور على التلفاز حيث تناثرت الأشلاء في كل مكان وفزع الناس كفزع يوم القيامة، ومحطة القطار حجارة وغبار. من يصنع هذا ببلده يا ترى، أية وحوش تلك التي نعيش معها؟

كان ذلك اليوم حقًّا يومًا أسود على أرض العرب، وعلى الحكومة وعلى ماهر الكرواتي شخصيًّا، فلقد حمّلته وسائل الإعلام جميعًا مسؤولية ما يجري، وبدأ المحللون في القنوات المحلية والأجنبية يتحدثون عن عجزه في إدارة بلاده وعن أنه يجرّها إلى مستنقع من الفوضى، ثم عادوا وذكروا قضية اتهام بعضهم له بقتل رئيس الوزراء ليصل إلى سلطته. وكانت سارة تتابع التلفاز باهتمام قبل أن تصرخ هيلدا في وجهها آمرة إياها بإغلاقه ومتهمة إياها بقلة الإحساس أنها تجلس وتستمع إلى تلك القنوات التي تتهم والدها بالتقصير، وموضحة بأنه لطالما أمسك هذه البلاد بقبضة حديدية إلا أن البعض انتهز موت رئيس الوزراء ليصطاد بالمياه العكرة ويتدخل في شؤون البلاد. أغلقت سارة التلفاز واتجهت إلى مواقع التواصل الاجتماعي تشاهد خلالها ما تشاء.

أما عدنان فقد جلس أمام شاشته الكبيرة يتناول إفطاره، ثم صاح ينادي ريان الذي جاءه فورًا قبل أن يسأله:

- هل نجح رجالنا بتسجيل اللحظات الأولى مباشرة بعد الانفجار؟ أنا لا أرى على التلفاز إلا تصوير وكالات الأنباء والتصوير البائس للمارة.
- نعم يا سيدي لقد فعلوا وإنهم الآن يعالجون المواد ويرتبونها لنشرها على كل الصفحات الممكنة.
- أحتاج هذا سريعًا. أريد لهذا الشعب أن يرتعد خوفًا وسوف أعلّمه بعد القليل من هذا أنه إن لم ينزل إلى الشارع فسينتظره الموت في كل مكان، على هذا الشعب أن يثور فلقد انتظرت كثيرًا.
- سيفعل يا سيدي، أوامر أخرى؟
- اسمع يا ريان، لقد وصلني هاتف يخبرني بأن كل الأدلة سيتم نسفها من داخل الحكومة، فهل تأكدت لي من أنهم حتى اللحظة يعجزون عن إيجاد شيء.
- بالتأكيد سأتابع هذا أيضًا.

غادر ريان وعاد عدنان يتابع القنوات على شاشاته وهو يتمتم مبتسمًا:

- أدفع ما تبقى من عمري لأرى وجه ماهر الكرواتي الآن.

**

جنازات جماعية للضحايا وفعاليات كبيرة أقامتها الحكومة لتكريم ذكراهم أو بالأحرى من أجل امتصاص غضب الشارع، فالناس كانوا جميعًا خائفين وغاضبين، وشعروا بأنفسهم مرتبكين بسبب التفجيرات التي حدثت بعد وقت قصير من وفاة رئيس الوزراء السابق، وقلقين من استلام ماهر الكرواتي أمور البلاد. على أي حال تستمر الحياة فهي لا تتوقف عند الأشخاص والأشياء ولا حتى الكوارث، عجلتها تدور رضينا بها أو لم نرضَ. صحيح أن حالة هدوء حذر سادت بين الناس في أرض العرب كلها بعد ذلك الانفجار. إلا أنه وتدريجيًّا عاد كل شيء ليسير على طبيعته، حتى محطة القطار تم إصلاح ما أمكن منها وعزل المناطق التي تحتاج إلى إعادة تأهيل شامل، وعاد الناس يرتادونها يحملون أرواحهم على أكفّهم كما هو المعتاد في أرض العرب. ابن صفية وسعد كان بخير، حيث كانت الحرارة قد أصابته ذلك اليوم فلم يتوجه إلى عمله. أما سارة فقد زادها ما حدث إصرارًا على ضرورة نشر الحق والعدل في أرض العرب لتكون دولة قادرة على الوقوف في وجه الإرهاب الذي بدأ يضربها، كانت تتحدث إلى عدنان عبر المراسلات المكتوبة فقط، يرسل إليها المواد المطلوب نشرها أو معالجتها وتقوم هي بدورها بذلك على أكمل وجه، لكنه كان قد بعث إليها رسالة واضحة بأن لا تتوجه إلى أي مكان ذي تجمهر كبير من دون أن تخبره بذلك، طمأنته بأنها ستفعل، لكنها في الحقيقة لم تستجب فهي غاضبة لأنه ما كلمها منذ موت رئيس الوزراء، ولا

طلب رؤيتها ولم يحتج حتى إلى سماع صوتها، بل إن رأس السنة أصبح قريبًا جدًا وهو لم يدعُها إلى الخروج معه قطّ، لقد تخلصت من فادي لكنها لم تجد عدنان الذي اعترف بحبه لها في أي مكان. دعاها أصدقاؤها في الجامعة إلى الخروج والسهر معهم في مهرجان كبير سيجمع العديد من الفنانين تلك الليلة، بالإضافة إلى أحد أهم الفرق الموسيقية في أرض العرب. ما كان الناس حتى لو كانوا خائفين بقادرين على أن يتوقفوا عن الحياة فهي لا يمكن أن تستمر إذا لم يستمر الناس بالحركة، وما كانت عجلة الاقتصاد رغم تأثرها الكبير في الفترة الأخيرة لتستمر بدورانها إذا لم يتم تجاهل ما حدث. كان المهرجان سيقام على أرض أكبر الحدائق العامة في العاصمة والتي أخذ تجهيزها للحفل أكثر من عشرة أيام عمل متواصلة لإضافة الأضواء والشاشات وتركيب المنصة العملاقة، والكثير من المتطلبات الأخرى. وهكذا فقد قررت سارة الذهاب مع أصدقائها رغم تحذيرات عدنان السابقة لها، وقلق والديها من أن تخرج من البيت إلى مثل هذه الأماكن قبل أن يتم التحقّق مما يجري في البلاد لكنها كانت ترغب جدًّا بالذهاب، الوحيد الذي شجعها على الذهاب كان أدهم، فقد كان لا يؤمن بوهم الاختباء، وكان يصرّ على أن أرض العرب ستبقى قوية وأنه ما من أحد على وجه الأرض بقادر على أن يجبرهم على المكوث في بيوتهم خوفًا، وأن هذه البلاد لهم حسب زعمه. خرجت سارة ذلك المساء مع أصدقائها، هذه الأماكن فقط هي التي تجمعها بهم، فهي كالمعتاد غير معجبة بما

في جعبتهم من أفكار، لكنها تجد إلى جانبهم المرح في الأوقات التي تستدعي المرح، مثل التبضع وحضور السينما أو الحفلات الموسيقية والغنائية والمسرحيات، لا شيء أكثر من ذلك.

كانت الحديقة قد قسمت إلى أربعة أقسام كبيرة، القسم الأمامي لكبار الزوار أو بالأحرى للأشخاص المهمين حسب تصنيف الدولة وعائلاتهم ويشمل ذلك بالتحديد أُسَرِ السياسيين وكبار رجال الأعمال الذين تجمعهم علاقات قوية ومهمة مع سياسيين في حكومة أرض العرب، وهو قسم شديد الحراسة والحماية بما يفوق ربما تلك التي تكون حول المنصة خوفًا من تدافع الجمهور على المقدمين للعروض، وفي هذا القسم يجب عليك أن تظهر بطاقتك الشخصية إلى جانب البطاقة الحمراء والتي يتم الحصول عليها من مراكز ذات أهمية بالغة في الحكومة، أما القسم الذي يليه فكان للأثرياء ممن سيشترون التذاكر بمبالغ كبيرة من أجل بعض الامتيازات ولا يدخل أصحابه إلّا عند إظهار البطاقة الذهبية، وهذان القسمان بالذات كانا منفصلَيْن بعناية عن القسم الذي خلفه والذي هو الأضخم وهو القسم المخصص لمن اشتروا التذاكر العامة، أما القسم الرابع فهو ما تبقى من الحديقة حيث يمكن لأي شخص أن يدخلها حتى لو لم يدفع المال، لكنه في الواقع سيكون بعيدًا جدًّا لأن يشاهد أو يستمتع حقًّا.

كان المهرجان رائعًا بالنسبة إلى سارة، تلك البهجة التي شعرتها كانت تذكّرها نوعًا ما بهدوئها النفسي قبل أن تتورط عاطفيًّا مع قضايا

أرض العرب، نظرت إلى أصدقائها وهم يتراقصون ويتمايلون وشعرت بأنها وحدها من تحمل الحقيقة على ظهرها من دون أن يشاركها هذا الحمل أحد، كم ترغب أن تلقيه عنه لتكون بخفتهم وسذاجتهم وسعادتهم، إنها تفتقدهم جدًّا، هي التي كانت دائمًا تحاول أن تتحاشى الجلوس معهم لفترات طويلة، وهي التي كانت تمل من أحاديثهم تحنُّ إلى ذلك الملل اللذيذ، إنها لتكاد تبكي حزنًا أمام هذه البهجة، أتخاف حقًّا أن تفرح؟ نفضت عنها تلك الأفكار وقفزت مع الموسيقى تحاول أن تطول السماء، إنها تتمنى فقط لو كان عدنان إلى جوارها، إنه الوحيد الذي يشعرها أن كل ما تحمله من ألمٍ يستحق أن تعيشه، كما أن غيابه هو الشيء الوحيد الذي يسبب لها حالة الاكتئاب التي تشعر أنها تحيط بها من كل مكان.

استمر الحفل ساعتين تقريبًا، وقبل منتصف الليل بدقائق أخذ الجميع بمشاهدة عرض الأضواء الرائع، العام الجديد على بعد دقائق فقط، الجميع يأمل بعام جديد ساحر يلغي ما سبقه من وجع وخوف، ويتمتمون بالأماني المدفونة في رؤوسهم. وما إن وصلت ساعة الصفر حتى انطلقت الألعاب النارية تنشر أضواءها في سماء العاصمة احتفالًا بالعام الجديد، يرافقها هتافات وتصفيق وتهليل من الحضور، بل إنك لتسمع أصوات الناس من المطاعم والملاهي والمقاهي المجاورة وهم يصرخون ترحيبًا بالعام الجديد، كانت البهجة حقيقية في عيون الحاضرين فهم يودعون الماضي على عتبات مستقبل جديد. تمنت

سارة أن تحظى بسلامها الداخلي مجددًا، تمنت أن لا تفقد عدنان وأن لا تفقد إيمانها بكل ما تحلم به، تمنت أن تعيش أرض العرب بسلام وعدل، في الحقيقة فإنها تظن على رغم تعدد الأمنيات هذه الليلة بين الناس إلّا أنها جميعًا تتعلق حتمًا بالحب والعدل والحرية، وهي تؤمن بأن الأمنيات التي نريدها بشدة ستتحقق، وأنها على يقين بأن أرض العرب ستكون حتمًا بخير ولو طال بها المطاف بحثًا عن طريقة. كل هذا كانت تفكر به سارة وهي ترفع عينيها إلى السماء تشاهد الأضواء وهي تتناثر كنجوم قريبة شديدة الجمال، كانت حقًّا سعيدة ومبتهجة في تلك اللحظة، كان صوت الألعاب النارية وهي تنفجر في السماء لتفترشها تشعرها بشيء من الحماسة، لكن صوتًا آخر أكثر قوة خرج من مكان ما خلفها ودفعها إلى الإمام، كان صوتًا يصمّ الآذان، وكانت أضواؤه تغطي على كل أضواء المدينة، سقطت على الأرض إلى جانب الكراسي المبعثرة وشعرت كأن النار اشتعلت في كل مكان، ربما ما تشعر به لم يكن هو حقًا النار، إنما هو انعكاسها، فهي تشعر بالحرارة ولا ترى اللهب، عادت وهبّت واقفة فزعة، كانت الأرض أمامها حمراء، والفضاء أصفر والدخان يكاد يغطي كل شيء، بلاط الحديقة منخلع من مكانه وكل ما تم تركيبه مترامٍ هنا وهناك، والناس في هرج ومرج يصرخون، يدفعونها أثناء جريهم فهم خائفون ومنذهلون مثلها تمامًا لكنهم يحاولون الهرب أو المساعدة، أما هي فقد بقيت تنظر إلى الخراب وإلى الجثث المترامية فوق التراب والحجارة. لقد حذرها

عدنان من القدوم، لكنها لم تظن أن أمرًا كهذا قد يحصل معها هي، نظن أحيانًا أن المصائب لا تحدث إلّا مع الآخرين وأننا مُنَزّهون عن الإصابة بها، وأن دائرة الوجع الكبير بعيدة كل البعد عنّا نشاهدها ونواسي أصحابها لكننا نبقى مؤمنين أننا خارج إطار أحداثها بينما تكون المصائب التي ستقلب حياتنا رأسًا على عقب قاب قوسين أو أدنى.

جميع أصدقائها استطاعوا النجاة، وجميعهم فرّوا من دون أن يلتفتوا خلفهم فما الذي يبقيها، ما الذي يجعلها تقاوم الخوف من حدوث تفجيرات أخرى تالية، بل والتحديق بعمق إلى تلك الفوضى الدموية المنتشرة في كل شيء حولها، إنها تشتم رائحة الموت ولا ترتعش بل إنها شعرت بأنها تطفو وكأنها لا تمانع أن تموت في هذه اللحظة وتنتهي إلى الأبد. كل ما كانت تفكر فيه هو أن أيًّا مَن كان قد قام بهذا هو شخص مريض، لكنه ورغم مرضه لا يستحق علاجًا بل يستحق السحق والقتل أمام الجماهير، أيًّا من كان قد فكر في نزع الأرواح بهذه البساطة فعلى روحه أن تنتزع وأمام الجموع. كم نحن غريبون، نعارض الفكرة طويلًا حتى إذا وجدنا أنفسنا في ظرف مختلف آمنّا بها بعمق. لطالما كانت روحها تنادي بالحرية لكنها كانت دومًا ضد المعاقبة بعنف، أما الآن ومنذ هذه اللحظة فقد بدأت تؤمن أن هناك أشخاصًا يصبح العنف أمامهم ضرورة ملحة، لكن أليس من الممكن أن مَن قام بهذا العنف منذ البداية قام به لأنه ظنّ بأنه يفعل ما يفعل ليعاقِب

من يستحق العنف أيضًا! على أي حال بقيت جامدة هكذا حتى جاء أحد المسعفين وسلّمها مباشرة إلى أدهم الذي كان قد توجه إلى مكان المهرجان فور سماعه خبر الانفجار الحادث هناك، وما إن رآها سليمة حتى عانقها بحرارة.

لم تعلم سارة ما الذي كان يقوله أدهم، إنها تعلم فقط بأنه كان يجرّها لتمشي معه إلى السيارة، وهناك لم تنطق، لقد كانت لأول مرة تنظر إلى أرض العرب بهذه الطريقة الجديدة، إنها لأول مرة تدرك أن الأضواء في الشوارع كاذبة وأن اللافتات المشعة في كل مكان مخادعة، وأن كل هذا البهرج أمامها ليس إلا كذبةً وسرابًا، باتت تعلم اليوم أن أرض العرب ليست آمنة، كما علمت بالأمس أن أرض العرب ليست عادلة، وهي التي تطالب بالتغيير لن تستطيع أن تفعل شيئًا، بل إن كل من في أرض العرب لو اجتمعوا لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا، إن الخراب في روح الفقراء أكبر من أن تصلحه مثل هذه المحاولات، وهذا الشرُّ الذي رأته اليوم فاجر لا يمكن أن يتم ترويضه بكلمات الحق والعدل والحرية، وأصحاب النفوذ الذين تنتمي إليهم لا يعنيهم أمام كل هذا سوى سمعتهم وأخبار العالم عنهم والحفاظ على قوة سلطتهم، لا شيء في أرض العرب يجمع بين هؤلاء جميعًا. يبدو أن كلام أدهم صحيح حين قال بأنه لا يمكن المزج بين هذه الطبقات، فعلى ما يبدو يجب أن تعلو واحدة وتنسحق البقية، لكنها رغم كل ذلك لا زالت مصرَّة على التفكير بأن هذا الشعب يجب أن ينجح في إقامة

ثورة، وعليه أن ينتصر على كل من سحق حقوقه كما تفعل الحكومة، و يسحق من سرقوا ارواحهم من أمثال من نفذوا جريمة اليوم. أما أدهم فالتزم الصمت أمام تجاهلها لما يقول وهو ينظر إلى وجهها ويدرك أنها لم تعد كما كانت قطّ، شيء من النضج السريع ظهر على سحنتها إلى جانب ذلك الذهول الشديد.

-٧-

توالت الانفجارات في مناطق متفرقة من أرض العرب، وانتقلت من العاصمة إلى مدن أخرى كثيرة، كانت سارة منهارة أمام مشاهد الدمار التي لحقت بالأماكن المستهدفة في أرض العرب، المئات قتلوا حتى الآن، من كان يظن بأن هجومًا قد يحدث في محطة قطار، أو في مجمع تجاري ضخم أو في ساحة اجتمع فيها الجمهور لمشاهدة مطربهم المفضل! لقد مات عشرات الأطفال والبلاد لم تهدأ، والدها ينهار ببطء وهو لا يعود إلى البيت أبدا، إنما هو مستقر في مبنى مجلس الوزراء يعمل ليل نهار في محاولة وقف الجنون الذي يحدث في أرض العرب، إنه متهم بعجزه عن إدارة شؤون البلاد عدا عن تلك الإشاعة القوية التي تلاحقه بأنه وراء اغتيال رئيس الوزراء السابق، بل وإن كثيرًا من الوزراء المعادين له وجدوا من هذه الإشاعة مادة دسمة للتكلم ونشر الأكاذيب بل والتلميح في التصريحات إلى احتمالية حدوث هذا. أدهم متوتر إلى أبعد الحدود وأمها تبكي وتنوح طوال الوقت، كيف أصبحت بلادنا هكذا؟ إنَّ الخوف يصب في كل مكان حتى أن الكثير من الشوارع الرئيسة بعد الحادث الأخير بدت فارغة

من سكانها، ولم تجد فيها الريح إلّا أكياس القمامة لتداعبها، غدا الحي الذي يقطنون فيه مدينة أشباح. صعدت إلى غرفتها وبكت طويلًا قبل أن تمسك هاتفها وتدق رقمه الذي ما إن وصله حتى قال بصوت متذمر «ليس الآن»، لكنه يعلم أنه لا بد من إجابتها، فهما لم يتحدثا منذ مدة، وما إن أجاب حتى سمع رنة الكآبة الحادة في صوتها وهي تقول:

- عدنان أين أنت؟
- كيف أنت يا سارة؟
- لم تجبني، أين أنت وأين كنت طوال هذه المدّة؟ لقد هاتفتك منذ موت رئيس الوزراء وأخبرتني أنك ستعود لتكلمني لكنك لم تعد، ومنذ أن اشتعلت أرض العرب وأنت مختفي!
- أعتذر لقد كنت مشغولًا وحسب.
- بماذا؟

حاول أن يطلق ضحكة ليخفف من توتر الحوار:

- أهذا تحقيق؟

لكنها فاجأته بردها الجاد:

- لا أدري، أيجدر به أن يكون؟

كاد قلبه يتوقف وهي تقول هذه الكلمات، كأنها تعلم كل شيء.

- ما الذي تعنينه؟
- أعني أنني كنت أظن أنني شيء مهم في حياتك.

أغمض عينيه ثم تنفس الصعداء وهو يقول في نفسه بأن هذا الوقت بالذات ليس وقتًا للفتيات، لا قدرة له على مجاراتها، لكنه مضطر:

- أنتِ كذلك.
- ألم تقلق ولو للحظة من احتمال أن أكون إحدى ضحايا تفجيرات الإرهابيين التي لا تتوقف؟
- إنهم ليسوا إرهابيين يا سارة، إنهم أشخاص غاضبون من الحكومة.
- غاضبون؟!
- نعم غاضبون. وحين أقول غاضبون فأنا لا أعني الغضب الذي تشعرين به الآن لأنني لم أتحدث إليك منذ عشرة أيام، إنما أتحدث عن الغضب الذي تشعر به عندما يسرق منك أحد كل شيء منذ نعومة أظفارك، أنا أقول كل شيء يا سارة، هؤلاء أشخاص لم يعد لديهم ما يخسرونه.
- أنت لم تتحدث إليَّ منذ أكثر من شهرين، ثم إن هذا الذي تقول لا يعطيهم الحق بأن يقتلوا الأطفال والمدنيين بهذه الطريقة.
- ومَن أعطى الحق للحكومة بأخذ أرواح الآلاف وتجويع الملايين. مَن أعطاها الحق بالزج بكل من لا يروق لها في السجون تحت التعذيب؟

لا تدري لماذا لم تجرؤ أن تخبره بأنها كادت تكون إحدى ضحايا هذا الانفجار، ليلة رأس السنة، ربما لأنه كان قد حذرها برسالة من خطر الذهاب إلى الأماكن المزدحمة، إلّا الجامعة، وكان قد شدد على ضرورة أن تخبره إلى أين تذهب في كل مرة، وأنه ربما سيجد هذا عذرًا

لينزعج ويبتعد! لكن لمَ تظن بأنه يريد أن يبتعد؟ نفضت عنها كل تلك الأفكار وهي تجيبه:

- أتدافع عنهم يا عدنان! إنهم يجلبون الفوضى وتستطيع أن ترى ذلك بعينيك. أنا لا أجرؤ منذ أكثر من أسبوع أن أخرج من منزلي، لا إلى التسوق ولا إلى الجامعة.
- قلت لك لا تذهبي إلى أي مكان قبل إطلاعي على ذلك، واذهبي إلى الجامعة لا أظنهم سيهاجمون مكانًا كهذا.
- إنهم مجانين قد يهاجمون أي شيء في أي وقت.
- قلت لك إنهم غاضبون.
- أيًّا ما كانوا فإن من يفعل ذلك هو مريض ويحتاج إلى العلاج.

لا يدري لمَ تصبه إهاناتها هي بالذات في النخاع، توجعه وتهزه.

التزم الصمت قبل أن يأتيه صوتها:

- عدنان!
- عليّ أن أذهب.
- أليس من المفترض أن نقوم بشيء تجاه ما يحدث، هل سنهرب الآن والشعب في أمسِّ الحاجة إلى المساعدة؟
- أنا أعمل من أجل ثورة ستغير كل شيء يا سارة، لكننا لا نزال في البدايات والقادم أعظم وهناك سيكون لك دور بالتأكيد، انتبهي إلى نفسك وسأعاود الاتصال بك لأخبرك بما علينا أن نفعله.

- عدنان انتظر.

كاد يصرخ بها إلّا أنه تمالك أعصابه وهو يجيب:

- ماذا؟

ابتعلت ريقها قبل أن تقول بصوت متوسل:

- إن حدث حقًّا وقامت ثورة في أرض العرب لا أريد أن يصيب أبي أي أذى. أنا أريد أن تعود أرض العرب لشعبها بالطبع لكنني لا أريد أن يصيب عائلتي أي مكروه.

صمت عدنان طويلًا على الطرف الآخر وسرح بعيدًا، غاب وعاد قبل أن يقول:

- إن حدثت ثورة في أرض العرب فلا أظن أن هناك عربيًّا واحدًا لن يصيبه مكروه يا سارة.

أغلق الخط قبل أن يطرق أدهم باب غرفتها متسائلًا:

- مع من تتحدثين؟

تلعثمت وبدأ الانفعال على وجهها فتابع مبتسمًا:

- أهو ذلك الرجل الذي كادت تقوم علينا قبائل العرب بسببه بعد غضبي عليك؟

أومأت برأسها مجيبة.

- إذًا فقد اتصل للاطمئنان عليكِ؟ تصرف شهم.

نظرت في عينيه قليلًا قبل أن تخفضهما بحركة فطرية وهي تقول:

- نعم تصرف شهم.

- سنجلس لاحقًا بالتأكيد وسنتحدث عنه مطولًا، عندما تهدأ هذه المصائب التي لا ندري من أين نزلت على رؤوسنا.
- بل قل إنها نزلت على رؤوسنا وعلى أرض العرب وعلى المدنيين الذين لا شأن لهم بكل ما تمر به أرض العرب سياسيًّا.

ابتسم وقال بصوت يحمل القليل من التهكم لكنه متقبل لما هي عليه:

- لا تتغيرين إذًا!

هزت رأسها توافقه الرأي.

- أمي نامت فلا توقظيها إنها متعبة وتحتاج شيئًا من الراحة، وأنا عليَّ الذهاب للاطمئنان على حال والدي ثم سأذهب لأقابل فادي.
- كيف هو؟
- أبي مضطرب، عليه أن يتجاوز هذه المحنة بأي ثمن.
- أنا أسأل عن فادي؟
- لا أدري، يبدو قويًّا. موت الأب ليس سهلًا فكيف وهو رئيس وزراء البلاد وسنده العظيم على هذه الأرض. على أي حال لفادي وضعه القوي في البلاد وهو سيتخطى هذا بالتأكيد.
- أدهم، أريد أن أسألك سؤالًا واحدًا وأريد أن تجيبني بنعم أو لا.

- هاتِ ما عندك.
- أنت وفادي هل يوجد بينكما أي مشاريع مشتركة، وأي شكل من أشكال الأعمال أو التجارة؟
- لا أبدًا. فادي يعمل في المقاولات وأنا في الاتصالات.
- لا شيء آخر؟

قلق أدهم من سؤالها قبل أن يجيب:

- لا شيء آخر. أهناك مشكلة؟
- لا أبدًا، إنه مجرد فضول. ثم تابعت لتبعد القلق عن ذهنه تسأله إن كان علم شيئًا عن قرارها بالانفصال عنه، لكن أدهم طمأنها:
- أظنه يعلم هذا من دون أن يخبره أحد بذلك يا سارة.
- جيد.
- نعم.

**

دبَّ العصيان المدني في أرجاء العاصمة، لا يدري أحد ماذا يريد الناس من ورائه بالضبط، عشرات الآلاف من البشر يجمعهم الغضب على الحكومة ولو اختلفت التفاصيل. في أحد الشوارع يتظاهرون ضد الفقر وفي آخر يتظاهرون ضد بعض السياسات الجديدة في البلاد، وفي أحد الميادين يتظاهرون من أجل الرجال الذين يختفون من دون أن يعلم أحد أين يغيبون، وفي آخر يتظاهر بعضهم مطالبين بحق

العشائر التي ضرب أدهم أحد أفرادها ويهددون بالتخريب والانتقام إن لم يتم تسليمهم أدهم. وما هي إلا أيام قليلة حتى انتقلت العدوى إلى سائر المدن وقامت أرض العرب ولم تقعد.

كانت وسائل التواصل الاجتماعي تشتعل بشكل منظم قبل أن تتبع الفوضى، والحرائق التي كانت تبدأ عمدًا كانت تنتهي من دون أن يستطيع أحد السيطرة عليها، وكان عدنان قد بدأ يصدر خطابات بصوت معدّل تحت اسم مجهول يدعو الناس إلى الاجتماع تحت ظله لإنهاء الظلم الواقع على البلاد، كان يخبرهم حول أماكن وأوقات التجمعات التي يدعوهم إليها ويخبرهم أنه بينهم، لكنه لا يستطيع أن يفصح عن نفسه، وكانت سارة تساعده على نشر تلك الخطابات، لكنها كانت تؤكد عليه دومًا ضرورة أن يدعو أن تكون الاعتصامات سلمية لا ضرر فيها على أحد، وأن يؤكد بأن هذا الشعب لا يبغي إلا إسقاط الحكومة الحالية لينتخب الشعب حكومة أخرى من اختياره. هكذا أصبح صوت عدنان هو الصوت الأعلى في البلاد، وكانت سارة فخورة به إلى أبعد حد، وكلّما تناقلت وسائل الإعلام صورًا للمتظاهرين تدقق في وجوههم جميعًا تبحث عنه بينهم من دون جدوى، كم تتمنى لو تقف إلى جانبه هناك، لكنه أصرّ أن تبقى في المنزل، وأقنعها أنها مفيدة أكثر حيث هي الآن، وطلب منها أن تنهي المهام التي يلقيها على عاتقها وأن تعمل على المواد التي يرسلها إليها لتنشرها في أكبر عدد ممكن من المواقع وبعثها في البريد الإلكتروني إلى أكبر قدر تستطيع من

الأشخاص، لقد أوضح لها بأن دورها يقتصر على تلك الجبهة وجعلها تشعر بخطأ الوقوف هكذا صراحة بوجه عائلتها، وبأن ضميرها لن يكون هادئًا رغم نبل الغاية، وهي لم تجادله، ذلك أنه أعفاها من خلافات حادة كانت ستنشب بينها وبين العائلة إذا ما نزلت إلى الشارع، وهكذا خدع عدنان سارة وخدع الشارع اللذين ظنا معًا بأن محرك الثورة هو أحد أول المواجهين للحكومة وأحد الثوار الذين لا يغادرون الشارع، يعمل من أجل أن تعود أرض العرب حرّة يعمها السلام والعدل، بينما كان هو يرسم أحلامه الكبيرة بإتقان وصبر طويل حيث لا السلام ولا العدل شيء منها، يفعل ذلك وهو جالس في قلعة المماليك التي خرج منها رجال الأمن وتوقف الناس عن التوجه إليها سياحيًا بسبب الثورة التي قامت في البلاد، فما كان منه إلا أن احتلها مع بعض رجاله لإدارة أعمالهم من هناك، فهو مكان بعيد وقديم وآمن.

مرت الأيام وأصبح ماهر الكرواتي بوضع لا يحسد عليه، أما رئيس الدولة فقد جمع الوزراء جميعًا في محاولة حل تلك المعضلة، وكان رأيهم جميعًا بأن استخدام القوة بات ضروريًا وأن شعبًا كهذا لا يُحكم سوى بالحديد والنار، وكانوا قد اتفقوا على أن يتم إغلاق جميع الطرق المؤدية إلى مجلس الوزراء وقصر الرئيس، وأن يتم تتبع مَن هم وراء نشر هذا الكم من الفيديوهات والأخبار المسربة واحتجازهم فورًا.

بقي الحال على ما هو عليه لعدة أيام، الشوارع مغلقة باتجاه

مجلس الوزراء، وتم الكشف عن بعض الأشخاص المسؤولين عن نشر بعض المواد والقبض على من طالته الحكومة ووجدت له مكانًا، لكن اسمًا واحدًا بقي معلقًا في تلك القائمة لم يدرِ المسؤولون عن المهمة ما يفعلون به، تم التحقّق من مصادره عدة مراتٍ، لكنها كانت دومًا تشير إليه، لم يتم التعامل مع الاسم كما الباقين بل بقي مرسومًا إلى جانب أسماء أولئك الذين لم يتم العثور عليهم في أي مكان ثم تم تسليم القائمة إلى رئيس الوزراء (ماهر الكرواتي).

تلك الليلة اشتعل منزل ماهر الكرواتي بنار كادت تحرق من فيه، غضب ماهر الكرواتي على ابنته غضبًا يحمل بين طياته حنقه على انقلاب حال أرض العرب، وعقدة عجزه في إدارة البلاد، وأما ما هو أكبر من الغضب فكانت الخيبة، فأنت تترك سيف الأقارب دائمًا على رفٍّ قريب بلا أقفال ولا حراس، تظن أنك ستحارب به مَن قد يغدرك، لا تصدق ولو حذرك أحد بأنه هو نفسه السيف الذي سيقضي عليك وبأيديهم.

حين قرأ ماهر الكرواتي اسم ابنته على تلك اللائحة، استدعى الضابط المسؤول ولطمه على وجهه وأهانه لأنه وضع اسم ابنته على قائمة تحمل أسماء إرهابيين كما وصفهم، إلا أن الضابط أوضح بأنه تم التحقّق من الأمر عدة مرات، وأن القائمة سرية جدًا وأن أوامر الاعتقال صدرت بأسماء محددة وفردية وأن أحدًا لم يتسلّم اللائحة سواه. حينذاك ترك ماهر الكرواتي الوزارة المضطربة بسبب ما يجري

في الشارع، وحمل نفسه وعاد إلى منزله، صاح كما المجانين، لم يكن هناك سوى صفية، دخل غرفة ابنته واستولى على كل ما فيها من وسائل الاتصال، الكمبيوتر المحمول، وجهاز التابليت، وهاتف آخر تستخدمه في بعض الأحيان، كلها كانت مغلقة بأرقام سرية، أمر صفية بإشعال التنور الكبير المصنوع لشوي الذبائح في الحفلات المنزلية، حاولت صفية تهدئته لكنه كان على استعداد لإطلاق رصاصة في وجهها إذا ما عارضته بشيء، فأشعلت نار الفرن الكبير وقام هو بإلقاء الأجهزة التي ذابت داخله كأنها لم تكن. ثم عاد يدور يبحث عن شيء قد يستخدمه كعصا، لكنه في النهاية لم يستطع الحصول على مراده فما كان منه إلّا أن خرج إلى حديقة منزله وتوسطها قبل أن يلتف حول نفسه كحيوان يلاحق ذيله، وفي النهاية وقع بصره على سياج صغير يفصل جزأين من الحديقة مصنوع من الخيزران، اندفع نحوه كالمجنون ثم دفعه بقدمه فمال قبل أن يقتلع منه ساقًا ويلوح به يمنة ويسرة، ثم مرّ بجانب صفية التي كانت تقف عند الباب تراقبه بذهول، وقبل أن يقطعها جسده التف وضربها بالخيزرانة بقوة فصاحت من الألم، لكنه قال: «أريد أن أتحقّق أنها تؤلم وحسب»، ثم مضى تاركًا إياها تلوي ظهرها من ألم الضربة.

بعد ذلك اتصل بسعد وأمره بأن يعيد سارة إلى المنزل فورًا. ثم جلس على كرسي هزّاز يهز بنفسه إلى الأمام وإلى الخلف، لا يدري كيف حلَّ عليه مثل هذا الصبر، كأنه تمثال يهز بنفسه ويمسك بالعصا وينظر إلى المدى البعيد؛ سيخرجها من هذه البلاد فور تلقينها هذا

الدرس، هذه الفتاة لا يمكن أن تبقى هنا يومًا واحدًا فهناك حتما من يتلاعب بعقلها، وخطرها على نفسها يفوق خطرها على البلاد.

**

بقيت سارة يومين في سريرها لا تتحرك، تئنّ وحدها من آلام جسدها، بعد أن ضربها والدها أمام سعد وصفية وأمر بأن تصعد إلى غرفتها وأن يقفل عليها الباب من الخارج، قطع عنها أي وسيلة اتصال بالعالم الخارجي، ومنع صفية أن تتحدث إليها، وطلب منها أن تضع لها الطعام والشراب في أوقات محددة فقط وأنه إن علم أنها حاورتها فلن يكتفي بطردها من عملها وحسب بل سيلقي بها في سجون الدولة لتتأدب. وحذرها من أن توفر لها أي مسكّن للآلام. ونبّه أدهم وهيلدا إلى عدم الاقتراب من غرفتها حتى يسمح لهما، أنه لن يكون ذلك حتى ينتهي من اجراءات سفرها. كانت آلامها لا تطاق وكان وجع قلبها مما فعله بها والدها لا يضاهيه ألم، تشعر بأنها رأت وجهه الذي يتحدث عنه عدنان، ورأت انعدام الرحمة التي يتحدث عنها الشعب، لقد أيقنت أخيرًا أن هذا المكان لا يشبهها وأن عليها أن تهرب. بقيت تنظر إلى السقف لا تنام حتى يغلبها النعاس، هي الآن لا تريد إلّا شيئًا واحدًا، أن تصل إلى عدنان، وعليها أن تنجح في ذلك، حين تهدأ آلامها عليها أن تجد طريقة لتتحدث إليه وستفكر في واحدة وهي على سرير التعافي.

بعد يومين آخرين، حين دخلت صفية إلى غرفة سارة لتضع لها الطعام طلبت إليها الأخيرة أن تتصل بهاتفها مكالمة واحدة ولمدة لن تتعدى

الدقيقة، إلّا أن صفية كانت خائفة جدًّا من الرد ولو بالرفض على سارة فانسحبت من الغرفة كأنها ما سمعت شيئًا، وعند المساء، دخلت صفية بالعشاء وعندها أمسكت سارة بكفها وتوسلت إليها، استجدتها بأعز ما تملك بابنها الذي كاد يموت في تفجيرات المحطة ثم نجا، وعدتها ألّا يعلم أحد بالمكالمة أبدًا وأنها ستقوم بها صباح اليوم التالي عند خروج الجميع من المنزل. وبعد جهد كبير اقتنعت صفية، ذلك أن سارة أقسمت بأن أمر المكالمة سيبقى سرًّا تأخذه معها إلى قبرها.

تلك الليلة لم تنم سارة وهي تفكر بالطريقة التي يجب عليها أن تنتهز بها هذه الدقيقة، عليها أن تقرر ماذا ستفعل وأن تكون متأكدة من هذا القرار. هناك قرارات لا رجعة لنا بعدها، نعلم حين نتخذها أنا لن نعود كما كنا، تاريخنا سيتغير بطريقة ما وإلى الأبد. انتظرت عقارب الساعة القارصة على أحر من الجمر، حتى دخلت صفية إليها وفي عينيها التردد ذاته الذي كان بالأمس، اقتربت سارة من رأسها وقبّلته وهي تقول: «إنها دقيقة واحدة، إنك كأمي، بل في الحقيقة لقد قمتِ بالاعتناء بي أكثر منها، وأنا ممتنة لكل شيء قمت به من أجلي منذ عرفتني، وأنا آسفة على كل سيئة قد أكون قمت بها أو سأقوم بها». ثم تناولت الهاتف من يدها وقالت بأنها لن تتخطى الدقيقة لكنها تحتاج منها أن تخرج، وهنا توترت صفية أكثر إلّا أن كفي سارة دفعتاها إلى خارج الغرفة وهي تقول: «انتظري هنا دقيقة واحدة ثم عودي»، ثم أغلقت الباب واتصلت بالرقم الذي تحفظه عن ظهر قلب، رقم عدنان،

لكنه لم يجب، بعثت إليه برسالة تقول فيها: «أنا سارة أحتاج إلى أن تجيب بسرعة أنا في ورطة»، ثم ذهبت عند الباب وقالت لصفية، لم يجب أحد عليّ أن أعيد الاتصال، أعيدي التوقيت، وقبل أن تسمع إجابتها أغلقت الباب في حين كان هاتف عدنان يدق قبل أن يرفع السماعة لتقول سارة بسرعة:

- عدنان أنا سارة، أبي قد كشف أمري والآن عليّ الهروب، أريد أن أكون معك وأن أكون مع الثوار. نصف ساعة كن على مدخل الحي.
- لكن يا سارة..
- لا وقت للكلام الآن، ألتقيك بعد نصف ساعة على مدخل الحي. ستكون هناك أليس كذلك؟

جاءها الصمت على الطرف الآخر قبل أن تكرر:

- ستكون هناك؟
- سأفعل.

أنهت مكالمتها ثم مسحت الرسالة والرقم، وفتحت الباب وأعطت صفية الهاتف وشكرتها بعمق قبل أن تقول لها: «لدي طلب آخر، أرجوك يا صفية، دعي الباب مفتوحًا، لن أغادر غرفتي لكنه لا حاجة لأن أشعر بأنني سجينة».

إلّا أن صفية نظرت إليها بارتياب ثم أجابت بحزم:

- طلب واحد وقد أنجز، ثم أغلقت الباب وأقفلته وغادرت.

أما سارة فالتفتت حول نفسها بسرعة ثم بدأت بجمع بعض الاحتياجات الأساسية التي تظن أنها ستلزمها، معها عشر دقائق من أجل هذه الخطوة دارت في غرفتها تتذكر ما الذي ستحتاجه، ثم أخذت تستذكر أحداث يومها منذ أن تستيقظ صباحًا، أخذت معجون الأسنان وفرشاتها، أخذت كل ما تحتاجه لتنظف وترطب بشرتها وشعرها صباحًا، أخذت أحد أجمل عطورها وأخيرًا أخذت بعض الملابس وحذاء واحدًا آخر غير الذي سترتديه، تلفتت في الغرفة لترى ما الذي قد تحتاجه أيضًا، ثم وقفت أمام صورة تجمعها مع والديها وهي طفلة، شعرت بغصة الفراق، كادت أمام الصورة تتراجع وتنهي كل ما بدأته، كادت الصورة توقظها من حلمها الجميل بنجاح الثورة خوفًا على الواقع الذي تحب أفراده، لكنها لا تفعل خطأ، ستعود إليهم حتمًا عندما يأخذ كلُّ ذي حق حقه، ستأخذ من عدنان عهدًا أن لا يمسهم أحد بسوء وعدنان لن يخذلها أبدًا، تناولت الصورة وقبّلتها ثم وضعتها في الحقيبة التي تجمع فيها أشياءها ولم تأخذ شيئًا من مجوهراتها أو أموالها بل تركت كل بطاقات الائتمان التي في حوزتها على مكتبها، بعد ذلك سحبت أحد رفوف مكتبها وصاحت بأعلى صوتها و ضربت الباب بيديها، وما هي إلّا دقيقة واحدة حتى كانت صفية تفتح الباب فزعة تحاول الاطمئنان على سارة، إلّا أن سارة فاجأتها بضربة بالرف الخشبي على ظهرها أوقعتها أرضًا، ثم خرجت من الغرفة بخفة وأقفلت الباب على صفية وهي تعتذر، مضت مسرعة تودّ الخروج لكن

رائحة العطر العالقة أمام غرفة أدهم استوقفتها، مشت خطوة ونظرت إليها قبل أن تدخلها بهدوء وهي تستنشق بعمق رائحة عطره الرائعة التي ما زالت تملأ الغرفة منذ الصباح، نظرت إلى أشيائه ووجدت أمامها ساعة يده التي لا تدري لم توقف عن وضعها رغم انها كانت جميلة جدا على ساعده، تناولتها كذكرى منه وخرجت وقد قررت أن تأخذ من كل فرد في عائلتها شيئًا من أجل أوقات الحنين، دخلت غرفة والديها وتناولت شالًا يعود لأمها ورشت عليه بعضًا من عطرها ومن ثم نزلت إلى الطابق السفلي ودخلت غرفة المكتب الخاص بوالدها، ونظرت طويلًا إليه، إنه ضخم وكبير كطبيعة القرارات التي تؤخذ فيه، نظرت حولها بسرعة قبل أن تقع عيناهاعلى خاتم والدها الذي يبدو أنه نسيه فوق المكتب، إنها تعلم أن أباها يحب هذا الخاتم و يتفاءل به، وهو جميل حقًا؛ ذهبي يحمل حجرًا أحمر من الياقوت الحر، وهي تعلم ايضًا أنه يستطيع أن يحصل على آخر مطابق إذا أراد ذلك، فأخذته وركبت أحد السيارات التي كانت في الكراج وغادرت المنزل متجاوزة أمن البوابة الذين لا يعلمون مما حدث شيئًا، ثم توجهت إلى المكان الذي اتفقت أن تلتقي فيه عدنان، انتظرت هناك وقلبها يخفق بقوة، إنها تخاف أن تفشل لأي سبب كان، صحيح أن صفية ستبقى تخبط الباب حتى يعود أحدهم إلى المنزل لكن أحيانًا تظهر أشياء أخرى لم تكن في الحسبان وتعيق طريقنا، أخيرًا تنفست الصعداء وهي تلمح عدنان الذي بالكاد عرفته وهو يقود سيارة لا تعرفها، ويضع على رأسه قبعة ويلبس

نظارة على عينيه، لكنها لا تخطئه، إنه هو. ترجلت من سيارتها ورمت المفتاح داخلها وتوجهت إليه، ثم صعدت السيارة إلى جانب عدنان، الذي سارع بلومها:

- هل تدركين كم من الخطر أواجه بالتواجد في حيّ كهذا، ما الذي يجري؟

قالها وهو ينظر إلى وجه سارة وجسدها التي تظهر عليه كدمات واضحة، فتعجب قبل أن تسرد له سارة ما حدث، كان يستمع باهتمام قبل أن يسأل محاولًا حسم الأمر.

- أواثقة من أنكِ تريدين القيام بذلك؟

أجابته وعلامات التوتر تبدو على وجهها:

- نعم. وأنت ستعدني أن لا يصيب عائلتي مكروه في هذه الثورة، أليس كذلك؟

هز رأسه موافقًا ثم أدار وجهه إلى الأمام وهو يقول:

- أعدك.

- لننطلق إذًا.

لم يتبادلا كلامًا بعد ذلك، كانت تنظر إلى الطريق أمامها وتفكر فيما فعلت؛ إنها حتمًا تقوم بالخطوة الصحيحة، إنها تنتقل من الضفة الآثمة إلى الضفة النزيهة، من الظلمات إلى النور، من سوط الظلم إلى صوت العدالة، لا يمكن أن تكون مخطئة، إنها فقط تريد أن ترفع صوتها لتواسي من أخذ منهم هذا النظام كل شيء، ولها كل الحق في ذلك.

ثم إنها مع عدنان وعدنان يعرف كل شيء، لو كانت مخططة لأخبرها بذلك فورًا. ستشتاق إليهم وستبكيهم حتمًا، تعلم كل ذلك سلفًا لكنه سيعوضها عن غيابهم فهي تشعر بجواره أنها غنية عن العالمين. هي تتمنى فقط أن تكون قادرة على التأقلم على الحياة الصعبة مع عدنان، إنها تعتزم أن تتحمل كل ما يواجههما من مصاعب، لكنها تدعو الله أن تستطيع. بعض من الوقت مرّ من دون أن تدرك سارة الطريق التي اتخذها عدنان. حاولت أن تسترخي في مقعدها قليلًا في محاولة لإزاحة التوتر الذي يسيطر عليها قبل أن تظهر أمامها في الأفق قلعة المماليك الشهيرة، و التي توقف عدنان على بابها بعد دقائق قليلة، نظرت بدهشة:

- لماذا توقفت هنا؟

ابتسم عدنان لها وهو يشير إلى القلعة:

- لأننا وصلنا.

- وصلنا إلى أين؟ هذه قلعة المماليك.

- بالضبط وهنا ستكونين سيدة القلعة قبل أن تصبحي سيدة البلاد.

عدّلت جلستها وهي تقول:

- عدنان! لست سيدة شيء، وهذه القلعة! إنها للدولة، أي للشعب وستبقى كذلك.

ثم أشارت إلى القلعة:

- هلا شرحت لي هذا رجاء!

- لقد استولى الثوار على الكثير في الدولة، من بينها كانت هذه القلعة.
- و كيف أتيت أنت إليها؟
- أنا مَن يدير الثورة يا سارة، وهذه القلعة ستكون غرفة العمليات التي نبثّ منها ما يحتاج إليه الشعب من معلومات كما كنت أفعل دائمًا. ثم نزل من السيارة وفتح لها الباب: «إنها مقرّنا المؤقت فحسب».

قالها وأمسك بيديها ليوقفها عن طرح الأسئلة وهو يتابع: «إننا نفعلها يا سارة، كل أحلامنا تتحقق، الثورة وسَبِيلها إسقاط النظام فالحرية فالسلطة». أضافت بصوت منخفض: «ونحن؟». حملها بين ذراعيه وهو يكرر: «ونحن»، ثم مضى يعبر بها البوابة الرئيسة أمام حراسه الذي جرى أحدهم ليُدخل سيارة قائده إلى الداخل. ثم دخلا القلعة من بابها الرئيسي، كان رجال عدنان المسلحون يدورون في كل مكان، وما أن دخلا إلى داخل البناء العظيم حتى وجدت سارة إلى جانب المزيد من رجال عدنان بعض النساء ورجليْن غير مسلحين. كان أحدهما طبيبًا وكانت معه ممرضتان، وسيدة أخرى تعمل في المطبخ ورجل يساعدها على توزيع الطعام وإحضار حاجاته، وكان هناك ثلاث عاملات أخريات يعملن على تنظيف المكان ورعاية الرجال طوال الوقت. أما سارة فقد وجدت نفسها مذهولة أمام كل هذا، هي التي أحضرت معها معجون أسنان! سألته متعجبة:

- ما كل هذا؟ لقد ظننت أنك تعيش في منزل متواضع يفتقر إلى الكثير من الأساسيات.
- لماذا؟ هل أبدو لك فقيرًا إلى هذا الحد؟
- لا أبدًا لكنك أحد الثوار وأنت مطارد فأنت تختفي عن الأنظار حتى لا يتم كشف هويتك، ثم إنني ظننتك زاهدًا.
- هؤلاء كلهم يعملون في خدمة الثورة يا عزيزتي، ولا يوجد أحد هنا بلا عمل، هؤلاء الرجال يحتاجون إلى من يخدمهم ويطببهم وهذه القلعة تستحق مَن يعتني بها، وكذلك أنت يا جميلة، زوجة عدنان الوالي يجب أن تتم خدمتها كما تستحق.

أصابها الدوار، إنها لا تزال غير مصدقة أنه من الممكن أن تكون زوجته، إنه الحلم الوحيد الذي تريد له أن يتحقق. ابتسمت له قبل أن يصفق بيديه وسط القاعة الكبيرة ليلفت انتباه الموجودين وهو يقول:

- الليلة سنحتفل كما لم نفعل من قبل، الليلة سأتزوج من هذه الجميلة وأريد حفلًا يليق بها.

لم تدرِ سارة ما الذي شعرته بالضبط، خفق قلبها فرحًا لأجل الهيام العطش إليه، وانتفض رعبًا من خطوة جريئة ما كانت تظن يومًا أنها ستقوم بها من دون عائلتها، وانتفض خوفًا من مستقبل لا تعرف عن مساره شيئًا، لكنها رغم كل شيء تريده، إنها مستعدة لأن تضحي بكل شيء مقابل أن تقضي عمرها كما تريد، مع شخص يفهم ما تقوله ويشعر به، حياتها السابقة لا تشبهها، حان الوقت لتجرب العيش على الطرف الآخر في هذه الدنيا.

في المساء، كانت مراسم الاحتفال حاضرة على أكمل وجه، وبدت سارة أجمل جميلات أرض العرب، بلا ثوب أبيض لكن بنعومة فائقة ورِفعة واضحة، لقد بدت لعدنان في ذلك الثوب الوردي أشهى امرأة في أرض العرب، شهد على زواجها الطبيب و ريان صديق عدنان المقرب. بعد ذلك بدأ الاحتفال الذي بدا لها شديد البذخ وقليل الذوق، لكنها لم تكن تطمع بأكثر من ذلك، إنها تريد عدنان وحسب، لا أحد ولا شيء سواه. بدأ الرجال يتراقصون ويدبكون ويطلقون النار في سماء ساحة القلعة، وبدأت النساء بالرقص والتمايل وتوزيع الحلوى والمشروب، أما هي فكانت ترقص معه بخفة وسعادة، وكان في الحقيقة ماهرًا في الرقص كما لم تظن، كان يرتدي لباسًا عربيًّا تراثيًّا بدا فيه أكثر رجولة، وأبهى طلة. عاشت بين ذراعيه أسعد لحظات عمرها، قبل أن يتركا خلفهما المحتفلين ويمشيا بين الأقواس والأضواء الحمراء المعلقة كالمشاعل على الجدران، صعدت الأدراج كسيدة من العصر العباسي حتى وصلا إلى أكبر غرفة من غرف القصر والتي تتجاوز الستة عشر مترًا، كانت غرفة تشبه تلك التي في حكايات الخيال، شهريار وشهرزاد، روميو وجولييت، شيء من هذا القبيل، وكانت أصيلة العراقة في جدرانها، شديدة الترتيب والنظافة، مدفأة وحوض استحمام عتيق فاخر، وسرير مغطّى تحيط به أربعة أعمدة ذهبية غاية في الجمال، شعرت كأن حياتها حلم جميل لم ترد أن تستيقظ منه قطّ، أرادت أن توقف الزمن في هذه اللحظة، أن تمسح كل ذكرى قبلها وأن لا تعلم

أبدًا ما بعدها، فهي لا تريد أن تذكر غيره. حملها بذراعيه و دار بها في الغرفة، لمحت السقف الذي كان وحده لوحة فنية رائعة، دار رأسها حين نظر إلى العينين العسليتين؛ منحته ابتسامة، ومنحها الدنيا.

-٨-

صنع أوس قهوته على جرّة الغاز الصغيرة التي تعتلي فوّهتها عين معدنية وحامل صغير، شربها على عجلة من أمره استعدادًا للنزول مع أصدقائه إلى الشارع للتظاهر ضد الحكومة، اعترضت أمه طريقه بذراعيها، معلنة بذلك منعه من الذهاب، وقالت إنها ليست على استعداد لتخسر ابنها الأخير، لقد خسرت مازن الذي لم يكن خسارتها الوحيدة، فقد مات رضيعها قبل ثلاث سنوات قبل أن يتجاوز عامه الأول بسبب الحصبة، لن تخسر أوس؛ إن الأم تحتمل كل ظرف في سبيل الحفاظ على أولادها، أما هذا فلا يمكن أن تحتمله الأنثى إذا أنجبت. هددته في البداية، ثم لعبت معه على وتر الاحتياج حيث أخبرته أنه السند الوحيد لوالده المنهك الذي لن يحمل ظهره ما يحمله اليوم طويلًا، إنه ينشل أكياس الطحين والشعير طوال اليوم وقريبًا سيصيبه الضعف فعمره تجاوز الستين وعندها سيتحتم على مازن أن يكون قادرًا على أن يتحمل أعباء أمه وأبيه وأخواته اللواتي عليه أن يسعى إلى تزويجهن قبل أن يتزوج هو نفسه، لكنها كانت كمن تنفخ

في قِربة مثقوبة، توسلت إليه أخيرًا وقالت بأنها لن تحتمل فقدانه أو اختفاءه في سجون الدولة وأنها ستقتل نفسها إن حدث له شيء من هذا، لكنه نظر في عينيها بعطف وأخبرها بأنه من أجل كل هذا سينزل للتظاهر، لأن هذه حياة لا ترضى بها الأنعام وأنهم كما كل مَن في أرض العرب يستحقون أفضل من هذا بكثير، قال إنه يفعل هذا من أجل مازن الذي خطفه الخارجون عن القانون، ورامز الصغير الذي لم يجد طعامًا ولا علاجًا، ومن أجل أبيه وأخيرًا من أجل أحفادها الذين لم يأتوا بعد، فكلهم يستحقون أن يعيشوا حياة كريمة، ثم قبَل جبينها وانطلق تاركًا إياها محدقة بيأس في الباب المغلق خلفه، إنها تعلم جيدًا أنها ستموت إن مات، ستموت حرفيًّا.

انطلق أوس في أزقة حارته ينادي أصدقاءه الذين تواعد معهم للخروج معًا، مضى مبتسمًا نشيطًا يحلم باليوم الذي ستنجح فيه الثورة، في اللحظة التي سيستسلم فيها النظام ويصبح الشعب مَلِك البلاد. تخيّل مازن سعيدًا فخورًا بهم في الجنة، ليس غاضبًا ولا حزينًا ينظر من أعلى مع أخيه الصغير وهو يخبره بأن كل هذا يحدث ثأرًا لهما، تخيّل نفسه يعمل بكرامة وشرف يجتهد أكثر فيجني مالًا أكثر، ثم يعود إلى منزله راضيًا تمام الرضا عمّا صنع في نهاره، يتخيل زوجة تنتظره على الباب وطاولة طعام مربعة عليها أطفال وحساء ساخن وقطعة لحم كبيرة. يتخيل والديه مرتاحين في بيت غير هذا القبو الذي يعيشان فيه، تأتي طلباتهما كما يتشهيان في آخر سنين عمرهما، تزورهما بناتهما مع

أطفالهن وهن سعيدات لا يشكينَ شيئًا سوى غيرة حمواتهن منهن على أزواجهن، يريد أن يتعلم صغار الحي وأن يلبسوا ملابس لائقة أكثر، مرتبة ومكوية إن أمكن، أن يتمكنوا جميعهم من امتلاك أحذية يمشون بها في شوارع مرصوفة بعناية كتلك التي يمشي فوقها السادة اليوم. عليهم فقط أن يسقطوا هذه اللعنة التي تحكمهم ثم بعدها ستعيش البلاد كلها رغد العيش، أو هكذا يظن.

اجتمع مع أصدقائه الثلاثة، غنوا للحرية وتمايلوا ثم تراكضوا نحو شارع «٢١»، هناك حيث يتجمع مئات الآلاف يوميًّا يتظاهرون ضد الفقر وكمد العيش؛ صحيح أن الشعب كله ثائر لكنهم من دون أن يشعروا وجدوا أنفسهم في مجموعات، كلٌّ انجذب إلى المجموعة التي تشبهه، فكما كانت مجموعات تضم الفقراء فإن هناك مجموعات ضمت مثقفين، ومجموعات أخرى ضمت المتظاهرين بسبب الفساد، ومجموعات ضمت رجال الأعمال وأخرى ضمت الفنانين أو الأطباء وغيرها. لكنهم كانوا جميعًا هناك وكانوا جميعًا يطالبون بإسقاط نظام الحكم في أرض العرب، ولم تكن العاصمة وحدها من تتظاهر بل كانت كل المدن المجاورة والبعيدة أيضًا، لكن مَن كان يستطيع منهم الانتقال إلى العاصمة فقد كان يأتي لأن الحكومة كلها تتمركز فيها.

بعضهم نصب الخيم وبقي هناك لا يتزحزح ليل نهار، وآخرون أحضروا طعامًا وشرابًا لرفاقهم، ومنهم من كان يذهب ليأخذ مكبر الصوت من الشخص الذي كان يسبقه ليقول كلمة ما ضد نظام الحكم،

يهدده ويتوعده، وفي الحقيقة فإن نظام الحكم كان فزعًا خائفًا من دون أن يقول أحد شيئًا، فقد كان يحيط بتلك الشوارع الممتدة إلى شارع «٢١» صانعًا حائطًا بشريًا من الشرطة في محاولة لمنعهم من الوصول إلى مجلس الوزراء والقيام بأي فعل غير متوقع، وهو ما كان يخطط له بالفعل رؤوس الثورة الذين كانوا قد عزموا النية على الذهاب إلى مجلس الوزراء ويليها إلى القصر الرئاسي لإسقاط الحكومة والحاكم، لكنهم كانوا ينتظرون الوقت المناسب لذلك ولربما كانوا يتأملون أن يتنحى الرئيس وتستقيل الحكومة من دون الاضطرار إلى المواجهة.

هتف أوس وأصدقاؤه عاليًا وطويلًا، صاحوا غاضبين وفي بعض الأحيان سمحوا لدموعهم بالهطول، ظلوا هكذا حتى المساء ثم مضوا بين الجموع واتجهوا حيث يقف سدّ الشرطة في وجوههم، هتفوا أمامهم مطالبين أن يمضوا على الطريق إلى مجلس الوزراء، لكن الشرطة لم تتحرك، وكان بعض الضباط يعطون أوامرهم من الخلف يحذّرون السد من الانشقاق، كانوا يعلمون أن السيل خلفه هادر، وأنه ما إن يتسلل من خلاله ثائر واحد حتى ينهار كاملًا، لمحت عين أوس رجلًا ستينيًا يحمل زجاجة ماء في يده يصيح في وجه رجال الشرطة: «لا تمنعونا من عدوكم وعدونا، خذوا بأيدينا وانصرونا». كان يعيدها ويكررها حتى أعادها الجمع كله خلفهم. كانت الشرطة أمامهم كالتماثيل، كأنهم لا يسمعون، إلّا أنه كان في الحقيقة نفر منهم ليسوا بقليل يشعرون بما يقوله الثائرون أمامهم، وكان «جمال» أحد أفراد

الشرطة من الذين يتمنون لو أن أحدًا من رجال الثورة يستطيع أن ينخر في سدهم، لكنه كان يعلم أن الأوامر هي الأوامر، وأنه حتى تسقط الحكومة فقد عاهدها وعاهد نفسه أن يكون مخلصًا وخادمًا مطيعًا، كان الرجل الذي يصيح يقف أمامه تمامًا وكان يشعر بالقشعريرة تسري في جسده كلما صاح وصاح الشعب خلفه، لكنه بقي صنمًا لا يتحرك، يستمتع بموسيقى التمرد بهدوء غير ظاهر، فخور بما يرى أمامه لكنه لا يجرؤ أن يقول شيئًا، بقي الأمر هكذا حتى اقترب الضابط في الخلف وشق طريقه بجانب الشرطي جمال، نظر إلى الرجل الستينيّ طويلًا وهو يهتف في وجه الشرطة ثم ما لبث أن صفعه على وجهه فأسقطه أرضًا، فلمح أوس كف الشرطي «جمال» وهي تمسك بكف الضابط وكأنها تمنعه أو تؤنبه، ولمح الضابط ينظر إليه بحدة كأنه لا يصدق أنه أنكر عليه ما فعله، اقترب أوس أكثر لكنه توقف حين سمع الضابط يأمر الشرطي بأن يطلق النار على الرجل. في الحقيقة لم يقصد الشرطي أن يمسك كف الضابط، لكنه وجد نفسه يفعل ذلك من دون وعي منه، إن الرجل الثائر أمامه كوالده فكيف يجرؤ شاب لم يتجاوز الخامسة و الثلاثين أن يضربه حتى لو كان ضابطًا! لقد تربى على أفضل من هذا. لكنه حين سمع الأمر تجمّد في مكانه، شعر بأن صاعقة أصابت دماغه، حاول أن يخدع نفسه بأنه ما سمع شيئًا، حتى كرر الضابط طلبه بوضوح وسمعه يقول له بصوت حازم جاد: «هذا أمر»، ما الذي يمكن أن يفعله في مثل هذه الحالة، لو استجاب لطلبه لن يغفر لنفسه أبد الدهر ولن

يغفو براحة حتى يموت، أما لو رفض الأمر فقد يخسر وظيفته على الأغلب هذا إذا لم يتم إلقاء وابل من التهم عليه وزجه في السجن حتى يتعفن، لم يدرِ ما يفعل، كان عليه أن يقرر بسرعة لكنه لا يستطيع، خفق قلبه بسرعة وعرق جبينه بشده، وبقي كالصنم أمام الضابط الذي سحب مسدسه من جيبه ومنحه إلى الشرطي وهو يقول: الآن.

إلّا أن جمال لم يستطع أن يأخذ السلاح من الضابط، بل إنه قال بصوت عالٍ: «سيدي! لا أستطيع يا سيدي». فما كان من الضابط إلّا أن صفعه على وجهه وأخبره بأنه سيعيش عمره القادم كله ليندم على رفضه تلقي الأمر من الضابط. كان يعلم جمال هذا، لكنه لم يستطع، يعلم أن الأمر هو الأمر وعليه أن ينفَّذ، لكنه لم يستطع. ناول الضابط المسدس إلى شرطي آخر بجوار جمال، وأمره بإطلاق النار على الرجل وهو يقول: «هذا الرجل متهم بمحاولة قتلك وقد أطلقت النار في محاولة لحماية نفسك وحماية زملائك». ما إن أنهى الضابط كلماته حتى كانت الرصاصة مستقرة في رأس الرجل، وما كان من الصفوف القريبة من الجموع إلّا أن تراجعت، لقد حلّ الصمت حرفيًا بين مئات الآلاف من الناس قبل أن يصيح أوس: «عليك اللعنة». ثم صاح بالجموع وقال: «ادفعوهم وهيا إلى مجلس الوزراء». فتدافع الجمع باتجاه رجال الشرطة ليجتاز سدّهم، وكان الشرطي جمال قد شق السد بابتعاده عن زملائه وانضمامه إلى الجماهير التي كانت كالسيل الهادر الذي هدّ السدّ واجتازه.

مضى الشعب يحمل في أمواجه أوس وأصدقاءه والشرطي جمال الذي وجد نفسه بينهم نحو مجلس الوزراء، ساروا معًا كتفًا بكتف، كانت الطرق خالية تمامًا إلّا منهم ومن أولئك الذين اعتلوا الأسطح ليشاهدوا، أولئك الذين كانت قلوبهم في الشارع وعقولهم تخاف ظلمة السجن. مضوا لا شيء أمامهم وكأن المدينة هجرها سكانها أو انضموا إلى موجهم الهادر، قطعوا شوارع وأحياء قبل أن يصلوا إلى الشارع المؤدي إلى مجلس الوزراء حيث هناك تظن نفسك في باريس، لا شيء في هذا الشارع يشبه الوطن فهو نظيف وواسع ومريح للروح والقلب، كل شيء فيه نُسِّقَ كما يجب ووضع في مكانه الصحيح. الغريب أنه كان في مدخل الشارع بوابة، إلّا أنها أيضا كانت خالية تمامًا، لا أحد يقف بوجه الثائرين ولا أحد داخل غرفها، لقد كانت تبدو هذه إحدى علامات خوف الحكومة منهم، بل وانسحابها من أمامهم. هتفوا وكبروا وصاح أوس فيهم: «إنهم خائفون، لا أحد اليوم يقف أمام الإرادة الشعبية أبدًا». وصاح خلفه الموج كله: «لا أحد اليوم يقف أمام الإرادة الشعبية أبدًا». كان الشرطي جمال يمشي جنبًا إلى جنب مع أوس ورفاقه، وكان لديه ذلك الشعور الذي تغلب الراحة فيه القلق، كان يعلم أن أمره انتهى مع هذه الحكومة وهو ما جعله يرغب بإسقاطها بقوة، لكنه لم يفكر بأمره إذا ما فشلت الثورة، ربما هو لم يأبه، أحيانًا نحتاج إلى أن نفعل الصواب وحسب ثم نترك للقدر حكم القادم من أيامنا. كانت الأمواج تسير في الشارع حتى توقفت الصفوف الأولى

فجأة، ما جعل حالة عدم انتظام في الصفوف الخلفية، حالة الفوضى هذه أصابت نفوسهم أيضًا، فقد ظنوا جميعًا أن الحكومة انسحبت أمام هديرهم وأنهم كانوا أقرب إلى تحقيق الحلم منهم إلى الاستيقاظ على صفعة. فتح أوس عينيه بدهشة بالغة وأما الشرطي جمال فقد ارتجف حرفيًّا، لقد كان المنظر أمامهم أبعد ما يكون عن خيال أكثرهم تشاؤمًا، لقد كان موجعًا ومخيبًا للآمال، فقد أعلنت الحكومة كما يبدو الحرب رسميًّا على الشعب ووقف الجيش الذي صُنع ليحارب من أجل الشعب أمام الشعب يحاربه. دبابات ومدرعات وعساكر يقفون أمام الثوار وكأنها جبهة حقيقية للحرب، نظر أوس إلى الشرطي يسأل:

- هل هذا يمكن أن يحدث حقًا؟

- لا تستغرب، إن هذه الحكومة مستعدة لتدفن الشعب كله لتعيش، إنه يحدث حقًا.

عاد أوس ينظر إلى قوات الجيش أمامه، إنها لا تشبه شيئًا من قوات محاربة الشعب، إنها هناك لتقتل، لا شيء سوى ذلك يجعل دبابات ومدرعات تنزل إلى الشوارع لتحارب أهلها. بقي الأمر مضطربًا على حاله دقائق عدة، قبل أن يصيح الشرطي «جمال» بالجماهير: «الكرامة أو الموت، هل تريدون العودة إلى بيوتكم هكذا فارغي الأيدي؟ ثم ماذا، سيبحثون عنكم فردًا فردًا، وسيزجون بكم في سجونهم حتى لو اضطروا لبناء عشرات السجون الجديدة، نحن الآن بلا مفر، الجند أمامنا والذل والسجن والعذاب والمهانة خلفنا، وهناك ستتمنون الموت

حرفيًّا، فلا تتراجعوا، تستحق هذه البلاد منكم تضحية». وقبل أن ينهي جمال كلماته كانت رصاصة تستقر في قلبه جعلته يقع أمام الجماهير جثة هامدة. حاول أوس إنعاشه لكنه لا يعرف شيئًا عن الإسعافات الأولية، صاح بالجموع إن كان فيها طبيب يستطيع المساعدة، فحضر عدد منهم وحاول إنعاش الشرطيّ إلّا أنه كان على ما يبدو قد فارق الحياة منذ أن اخترقت الرصاصة صدره، ولحق بالشهيد الذي سبقه قبل لحظات، وحين أعلن أوس ذلك للجموع اضطربت مجددًا لكنه وقف بينهم وصاح فيهم كلمات الشرطي «جمال» مجددًا ودعاهم للسير نحو الأمام، تفرق الجميع عن الجميع لكنهم جميعًا يركضون نحو الجيش، لقد حملوا أرواحهم على أكفهم حقًّا هذه المرة واحتدموا مع الجيش في ملحمة عربية لن ينساها التاريخ.

**

المئات سقطوا في مواجهة الشعب الأعزل للجيش، وأما مئات الآلاف من الثائرين فقد أصبحوا ملايين، ذلك أنه وفور تناقل وسائل الإعلام المعارضة لما يحدث أمام مجلس الوزراء حتى انضم كثيرون ممن أخافهم الشارع من قبل إلى الثورة، وتوجه الكثيرون هذه المرة من المدن المجاورة إلى العاصمة، كأن شيئًا صفعهم وهو يقول لهم بأنّ دورهم في الإبادة سيأتي وإن لم يكن اليوم فغدًا. غلت البلاد كما لم يحدث من قبل، وصار ما يحدث في أرض العرب محط أنظار العالم أجمع. وأثناء هذا، كان عدنان قد وصل إلى المرحلة الثالثة من خطته

فجمع رجاله وأبلغهم بأن الوقت قد حان لتنفيذ الخطوة التالية، وأن البلاد مضطربة وعليهم أن يقلبوها على رأس الحكومة، وأن رجالهم ورجال الأحزاب المعارضة الأخرى ما زالوا يقبعون في سجونها. ثم أضاف:

- يوم الجمعة وأثناء التظاهرات التي دَعونا إليها سنقتحم السجن لنخرج كلّ من فيه، وسأمنحكم أسماء من يجب عليكم أن لا تعودوا من دونهم مهما كلفكم الأمر.

وهنا أضاف ريان بأنه سيستميل بعض الأسماء البارزة في الثورة، وأنه كان قد مدَّ بينه وبينهم جسرًا من الحوارات من دون أن يعلموا إلى أي حزب أو توجه ينتمي ريان، وأنه سيقنعهم بضرورة توجههم مع مجموعة لا بأس بها إلى السجن معهم وذلك للتحقّق من قدرتهم معًا على اقتحام السجن. وما هي إلا أيام قليلة حتى كان عدد من رجال عدنان قد خرجوا من أحراشهم بأمر من ريان، وكان أوس وأصحابه قد حرّضوا المتظاهرين من أجل التوجه إلى السجن، وهناك تواجد مئات الآلاف من الناس خارج السجن يهتفون بالحرية للأسرى، بل وهجموا على بوابات السجن المغلقة من الخارج يحاولون اقتحامها، أما رجال عدنان فكانوا قد تسللوا إلى السجن باكرًا وبدأوا بالتخلص من الحرس في الساحات قبل أن يقوموا بفتح البوابات لمئات الآلاف في الخارج، وهكذا دبّت الفوضى داخل السجن، واشتبك المتظاهرون مع القوات داخله، أما رجال عدنان فتحركوا حسب خطتهم، لقد دخلوا

الدهاليز وفتحوا الأبواب وهم يصيحون بالرجال والنساء أن عودوا إلى بيوتكم، وكانوا كلما فتحوا بابًا خرج منه رجال ليعانقوا رجال عدنان شاكرين فرحين بخروجهم، وكانت الأبواب الأخرى التي لا زالت مغلقة تضج بأصوات الملاعق والأواني التي يطرق بها السجناء على الأبواب والجدران استعجالًا بالخروج. وكان رجال عدنان يطلون من الشبابيك الصغيرة ويبتسمون لهم ثم يخبرونهم أنهم سيخرجونهم، أحد المساجين أمسك بكف أحد رجال عدنان الواقف خلف الباب كأنه يخاف أن يتم نسيانهم فيذهب الرجال من دون أن يُفتح الباب لهم، أو كأنه يرتعب من فكرة أن تكون الأماني التي يراها سرابًا أو حلمًا جميلًا سيستيقظ منه على كابوس.

بعض المساجين كانوا عاجزين عن السير من المرض أو التعذيب فجمعهم رجال عدنان في مكان واحد ليتم نقلهم إلى المشافي. أما الأصحاء المحررون فقد كانوا يبكون فرحين غير مصدقين بأنهم خرجوا، تلك اللهفة في وجوههم وهم يتزاحمون للعودة إلى بيوتهم لا تقدر بثمن. وما إن خرجوا من مبنى السجن حتى كان الثائرون في الساحات قد حطموا سياج الحراسة والشبك المحيط بأبراج المراقبة، ولم يبقوا على أحد من العاملين في السجون، وكانوا قد ضربوا بعضهم حتى كادوا يموتون، ونجح بعضهم الآخر في الفرار وأما عدد لا بأس به من الحرس والسجانين فقد تم قتلهم بالرصاص من قبل رجال عدنان. وأخيرًا فرغت غرف السجن من سكانها، وما بقي فيها من أحد لا ظالم

ولا مظلوم، لا ضابط تستهويه عذابات سجنائه ولا أولئك الذين تمنوا الموت من دون أن يعلموا أن الفرج كان قريبًا. اجتمع أوس بريان وهَنَّأَه على هذا الإنجاز وأخبره بضرورة مغادرة السجن قبل أن يحدث أي شيء يقلب هذه الفرحة إلى مصيبة، وأنّ عليه هو أن يعود مع الثوار إلى الشارع «٢١»، ووافقه ريان إلا أنه نظر إلى القائمة بين يديه وبدأ يحصي الأسماء التي لديه، وجد معظمهم بخير وعلم أن اثنين منهم كانا قد قتلا تحت التعذيب وكان بعضهم متعبين في زنازينهم متعبون لكنهم قادرون على العودة إلى أحزابهم مع القليل من المساعدة، إلا خالد، لم يجده في أي مكان، لا في الزنازين ولا العنابر. حاول أن يسأل بعض الموجودين، لكن لا أحد يعلم عمن يتحدثون، فخالد لم يغادر زنزانته الانفرادية قط، وكاد ريان يأمر رجاله بالمغادرة إلا أن أوس استفسر منه إن كان قد اقتحم مشفى السجن، فقد يكون هناك بعض المرضى أو المعذبين، و أنه رغم نقل الحالات المستعصية غالبًا إلى المستشفيات خارج السجن لكنهم أحيانًا يتركون بعضهم هنا لعدة أسباب. لم يكن ريان قد فكر بالمشفى فقد غاب ذلك عن ذهنه تمامًا فأمر رجاله باقتحامه، نظر أوس إليهم وهم يطلقون قنابل الغاز على مدخل المشفى ويوجّهون فوهات بندقياتهم إلى الأمام، وكانوا يصيحون أن سلّموا أنفسكم ولا تقاوموا تسلموا، إلا أنهم وجدوا المشفى خاليًا تمامًا على إثر ما حدث، لقد هرب الجميع؛ أطباء وممرضون وعاملون وحراس وأمن، كلهم اختلطوا بالثوار

وهربوا. بعض المرضى كان يحاول الخروج وبعضهم الآخر كان يطلب نقله لأنه لا يستطيع النهوض، وقد تمت مساعدتهم من قبل أوس وبعض رجال الثورة ورجال عدنان. أما خالد فقد كان هناك، غارق في بئره المظلمة لا يدري عما حوله. قرأ ريان اسمه على السوار في كفه المقيدة بالسرير، صاح برجاله أنه وجده، اقترب منه وتفحصه من قرب، لقد كان وجهه متأثرًا بشكل كبير، وجسده متضررًا جدًّا، إنه لا يدري إن كان يستطيع حقًّا نقله أو لا، لكن عدنان مصر أن تعود كل الأسماء في اللائحة، فما كان من ريان إلا أن أمر رجاله بحمله ونقله إلى إحدى سيارات النقل الصغيرة التي كانت تحمل بعضًا منهم، وهذا ما كان ثم افترق كلٌّ من ريان وأوس، كلٌّ إلى وجهته وعمله.

**

هو لا يدري بعد كيف وصل إلى هنا، آخر ما كان يذكره هو وقوعه في بئر لا قاع لها، نظر إلى السقف العالي للغرفة العتيقة الفاخرة، شعر أنه بخير، بطنه ممتلئ وجروحه بدت آيلة للشفاء، إلا يده، فتحها وقبضها عدة مرات. ترى أين هو ومَن تكون تلك التي تؤويه؟ ومن هؤلاء الرجال خارج الغرفة! ماذا جرى خلال نومه الطويل، ربما لا يريد أن يعرف، إنه يعلم أن يد القدر أنقذته وهذا يكفي.

طرق أحدهم بابه ودخل عليه أحد الرجال وهو يحمل مرآة بيده، فعدل خالد جلسته ثم تناولها شاكرًا، فحيّاه الرجل وأدار وجهه يهم بالمغادرة قبل أن يستوقفه خالد يسأله:

- كيف وصلتُ إلى هنا؟

أدار الرجل وجهه إلى حيث خالد:

- لقد اقتحموا السجن وأخرجوا كل من فيه.

- من؟

- الشعب الثائر ورجال السيد عدنان، يبدو أنه مهتم بكم.

ابتسم خالد:

- هناك ثورة؟ ثم أطرق قليلًا قبل أن يسأل «تقصد بعدنان عدنان الوالي؟»

- نعم، هو بعينه.

- ومن تكون السيدة التي قابلتني قبل قليل؟

- زوجته.

قالها ثم حيّاهُ وغادر.

هو إذًا عند عدنان الوالي، لا عجب! لا يمكن لرجل معارض للنظام أن يخرجه من ترسانة سجون الحكومة سوى الخفاش، هكذا كان يطلق على عدنان الوالي بين قادة أحزاب المعارضة، لكنه قبل أن يتوجه إليه علم اسمه من رئيس حزبه مباشرة و كان اسمًا شديد السرية ممنوع الإفصاح عنه رغم أنه كاد يفعل أمام جبروت حديد. كم يشكر الله على الرسالة التي سبقته إلى عدنان قبل أن يتم اعتقاله وهو متوجه إليه، لقد عارض قائده يومذاك خوفًا من أن يتم كشف الرسالة بأي طريقة، لكنها بالتأكيد كانت السبب الذي أتى به إلى هنا اليوم. إن

عدنان كما قال قائده هو الرجل الوحيد على علّاته القادر على إسقاط الحكومة، وإن وجود أحد رجالهم بجواره حتمًا سيجعلهم على اطلاع دائم بالمجريات التي تطرأ على حال المعارضة هنا.

نظر إلى المرآة في يده المرتجفة، كم من الوقت مضى قبل أن يرى وجهه في المرآة، لقد كاد ينسى شكله، لكنه رغم ذلك يخاف النظر، إنه يعرف تمام المعرفة بأن وجهه لا يمكن أن يكون كما كان في الماضي، فهو يشعر بجروحه وبعض العاهات التي لازمت وجهه بعد الاعتقال، لكنه يعلم أيضًا بأنه يجب أن ينظر إليها، وعليه أن يتقبل الرجل الذي بات عليه، وضع المرآة في يده اليسرى كي تستقر ثم رفعها إلى وجهه، ويا الهي! مَن هذا الذي يراه؟ لا يمكن أن يكون مَن في المرآة هو، أين ذهب خالد القديم وكيف تتعرف المرآة إليه وقد عكست وجهه الجميل سابقًا آلاف المرات. تحسس بذهول الحروق على خده الأيمن كأنه يعرفها للمرة الأولى هي التي آلمته أيامًا ولياليَ، وقد أبدى حديدٌ إعجابه بها عشرات المرات، لكن ألم النظر إليها أكثر وجعًا من وجع الإصابة بها، عين مصابة وأذن مبتور جزء منها، إنه مسخ!! أهذا ما تفعله الحكومات الظالمة إذًا؟ تحولنا من رجال إلى مسوخ، تقلب كياننا كله وتجبرنا أن نتحول إلى وحوش أو متسولين فإن لم تستطع رسمت ذلك على وجوهنا، اتكأ على الوسادة خلفه ووضع المرآة في يده على صدره وأغمض عينيه، إنه يحاول أن يتذكر كيف كان يبدو قبل كل هذا، فهل حقًا يذكر؟ لمَ تستغرب يا خالد فأنت لم تعد تمتلك شيئًا مما كان

لك في الماضي، لا شيء، مات الذين تحبهم وغابت معالم الحياة التي اعتدتها منذ زمن طويل، فلمَ تريد من وجهك أن يبقى، إنه ليكون وجهًا من دون حياء أن يبقى كما هو رغم كل ما فقد.

أخرجه من حزنه هذا طرق خفيف لبابه، فعاد وعدّل جلسته. دخل عليه رجل وسيم الوجه بهي الطلة، جلس على طرف سريره وهو يقول:

– كل هذا نوم يا رجل! وصلني أنك أقوى من ذلك بكثير.

لكن خالد بقي ينظر إليه لا يقول شيئًا. إلّا أن الرجل تابع بحرارة:

– في الحقيقة لا ألومك، ما كنا نظنك ستنجو، وربما ما كنت لتفعل لولا أننا اقتحمنا السجون لنخرج أصدقاءنا وحلفاءنا، في البداية لم نجدك قبل أن يقترح أحد الرجال البحث في مشفى السجن ولحسن حظك فقد حملوك من هناك على عجل رغم خطورة ذلك عليهم وبالطبع عليك. وهنا قمنا بتطبيبك و العناية بك على اكمل وجه.

ثم نظر إليه وابتسم وهو يتابع: «وبهذا يا خالد فأنت تدين بحياتك هذه لي».

من دون أدنى شك هذا هو عدنان الوالي، إنه وغد كما وصفه قائده تمامًا؛ متعجرف وصريح:

– أنت إذًا عدنان الوالي!

– بشحمه ولحمه. أظنك بخير الآن، الطبيب يقول إن باستطاعتك مغادرة السرير متى شعرت برغبتك بذلك. إننا نحتاج إليك،

يقول قائدك بأنك تملك الكثير مما نحتاجه من معلومات لننجح في مسعانا هذا. وأنا أحتاجك متيقظًا مستذكرًا كل ما تعرف.

- بالطبع، أشعر أنني بخير وأعتقد أنني سأغادر سريري هذا قريبًا جدًا.
- جيد، الرجال في الخارج ينتظرون منك أمرًا. تستطيع أن تقوم وتغتسل وسيزودونك بكل ما تحتاج اليه ثم سيأخذونك إليّ في الوقت الذي تكون فيه جاهزًا.مكتبة .. سُر مَن قرأ

قالها وقبل أن يسمع رد خالد قام وأغلق الباب خلفه بهدوء وغادر.

**

من كان يصدق أن الدولة ستستخدم جيشها وأسلحتها الثقيلة بل وحتى أسلحتها المحرمة دوليًّا لصدّ شعبها عن ثورته، ما فعله الثوار بمن وقع بأيديهم من السلطة كان وحشيًّا بالطبع لكن ما كانت تقوم به الحكومة كان مجازر بكل ما تحمله الكلمة من معنى، أحياء كاملة أُبيدت بطائرات الجيش، دبابات نزلت إلى الشوارع لتصد الجمع، وجيش وقف في وجه الشعب يقتله بدلًا من أن يحميه، كثيرون من أفراد الجيش هربوا وكثير منهم خالفوا الأوامر، ومن وقع في يد الحكومة منهم تمت تصفيته أمام زملائه لمنعهم حتى من التفكير في فعل الأمر نفسه، ومع الوقت والأيام، لم تعد الثورة أو أحداث الشغب كما تسميها الحكومة تسعى لإسقاط الحكم الظالم لاستبداله بآخر يعطي الحقوق

لأصحابها فقط، إنما باتت حربًا من الحكومة على الشعب وتشريد أحياء بأكملها، بل وكان هناك مجهولون يدخلون المكتبات العامة فيحرقونها وكانوا يدخلون إلى المتاحف الفنية والوطنية ويدمرونها عن آخرها، كانوا يسرقون ما يستطيعون من آثار وكنوز، ويحرقون تاريخ الأمة وكنزها الثقافي، كان ما يحدث أمرًا عظيمًا في حق الأمة كلها، وفي الحقيقة لم يكن أحد يعلم مَنْ بالضبط الذي يقوم بذلك. وكانت القنوات التابعة للحكومة والتابعة للمعارضة تتناقلان الأحداث على حد سواء، بل إنَّ الفضائيات الأجنبية العالمية لم تكن تنقل من أحداث الثورة إلّا هذا! وكان خالد يشاهد ذلك على الشاشات مع عدنان صامتًا، كان الغضب قد أصاب كل أفراد الشعب فوق أرض العزب الذين كانوا يردّون بتحطيم المراكز والمنشآت الحكومية، إنَّه يعلم أن لا شيء اليوم سيرد هذه الجماهير الثائرة عما تفعله، إنها سيل غضب هادر لا يدري أنه يصبّ غضبه على خيرات بلاده، قطع عدنان صمته وهو يقول:

- من الرائع ما وصلنا إليه.

إلّا أن خالدًا أجابه بامتعاض:

- إنهم يحرقون المكتبات وينهبون المتاحف.

- وهذا يزعجك؟

- أي شعب يفني تاريخه وماضيه؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

عاد عدنان ينظر إلى الشاشة:

- قد لا يكون الشعب وراء ذلك، أنت تعرف أعداء أرض العرب كثر ودسائسهم في كل مكان.

- معك حق، هذه الفوضى تسمح لكل مجرم أن يمارس إجرامه تحت اسم الثورة والثوار، وإن حاول أحدهم ردعه انقلب عليه الباقون جهلًا ومحوه عن وجه البسيطة.

عاد عدنان ينظر إليه:

- هذا يزعجك حقًا!

لم يقل خالد شيئًا، ولم يسأل عدنان إن كان الأمر لا يزعجه، فهو يعلم تمامًا أنه لا يزعجه، إنَّ بروده تجاه ما يحدث يجعله يرغب في ضربه، وهذا الهدوء الخارجي ليس إلّا انعكاسًا لسعادته من الداخل، رجل مثل هذا لا يعنيه شيء فوق أرض العرب سوى الجلوس على كرسي الحكم لينهب أهلها ويستعبدهم، وها هو يتحدث عن المدسوسين كأنه أشرف من أنجبت أرض العرب، لقد سمعه غير مرة يتحدث إلى جهات خارجية بلغات أجنبية، لا يمكن لعدنان أن يحظى بهذه القوة والجبروت إلّا إذا كانت دول أخرى كاملة السيادة تدعمه، متى إذًا ينتهي هذا الكابوس، تذكّر بيته وأطفاله، تذكر حديد وعذاباته، تذكر وجهه الغائب أيمكن بعد هذا كله أن يفشلوا، هل يمكن لشخص خسر كل شيء أن يخسر مجددًا؟

عاد وتابع الشاشات إلى جوار عدنان، يدعو الله أن تنتهي الأمور على خير، قبل أن تدخل سارة إليهما، تحمل بين يديها شيئًا ليشرباه، اقترب عدنان وأخذ منها كوبًا وأعطاه إلى خالد قبل أن يأخذ كوبه ويتحسس بطنها المنتفخ برفق:

- ألن تغيّري لنا هذا الشراب؟ أعلم أنكِ تعشقين الليمون الآن،

إلّا أن رجالًا مثلنا في مساء كهذا يحتاجون لبعض البيرة، لكن خالدًا أجاب «أنا بخير الليمون يفي بالغرض». التفت عدنان إلى سارة وهو يقول:

- لا بأس إذًا، فلتكن نبيذًا فاخرًا، في القبو يوجد بعض الزجاجات، خذي هذا مفتاح الغرفة التي ستواجهك مباشرة عند نزول الدرج، في داخلها ستجدين هناك خزانة خشبية عتيقة وستجدين الزجاجات داخلها، واستدعي إحدى العاملات في المطبخ لتحضر كؤوسًا زجاجية وثلجًا.

إلّا أن سارة ابتسمت في وجهه:

- لا بأس سأحضرها أنا.

ذهبت تخطو بعيدًا، وبدأت تنزل ذلك الدرج العباسي القديم، متجهة إلى القبو حيث لا أحد هناك على الإطلاق. كان المكان موحشًا، تحسست بطنها كأنها تستمد من الجنينين الموجودين فيه بعض الأمان، أدارت المفتاح في الباب وفتحته، فأصدر أزيزًا يوتر الأعصاب، بحثت عن مفتاح إنارة فلم تجد فأمسكت مصباحًا كان معلقًا في الردهة الخارجية ودخلت، التفتت تبحث عن الخزانة الخشبية حتى رأتها، فتحتها برفق وتناولت زجاجة من بين عدة زجاجات، كان يبدو نبيذًا رديئًا، تعلم تمامًا كيف يبدو النبيذ الجيد رغم أنها لا تشربه، همّت بالخروج من الغرفة، إلّا أنها التفتت وألقت نظرة سريعة عليها، مكتب وجهاز حاسوب وأجهزة اتصال، وأسلاك هنا وهناك، إذًا ففي هذه الغرفة كهرباء تمامًا كما في الغرف العلوية، لم لا تجد المفتاح إذًا! اقتربت من

المكتب فوجدت ملفات وأوراقًا، تحسست بطنها مجددًا وهي تقول: «هذا هو يا صغيريّ المكان الذي يعمل فيه والدكما، إنه لا يكلّ ولا يملّ في سبيل أن يحقق لكما حياة ملؤها العدل والكرامة لتعيشا على أرض عادلة وقوية». ثم أخذت تقلّب الأوراق أمامها وهي تتابع: «إنه يعيش هاربًا، مختبئًا من أجل أن يحقق هذا، ليس لكما فقط بل لكل الأطفال القادمين إلى أرض العرب، إنّه يضحي بحريته في كل شيء من أجل أن يضمنها لكم جميعًا، عليكما أن تكونا فخورين بأن لكمـ..» ثم بترت عبارتها فجأة، حين وقعت من أحد الملفات التي كانت تمسكها صورة لطفل تعرفه، طفل تحدثت إليه وأمسكت كفّه وأهدته شالها ذات يوم، إنها صورة مازن!! هي الصورة نفسها التي رأتها على هاتف فادي، فما الذي تفعله الصورة الأصلية هنا في مكتب عدنان! إذًا فهو ربما يحاول أن يجده وجميع الأطفال الآخرين الذين تم اختطافهم، لقد وعدها بأن يتصرف، ويبدو أنه يَفِي بوعده، هذا ما كانت تقوله سارة لنفسها إذ إنها لا يمكن أن تقول كلامًا غيره، الاحتمال الثاني لا يملك لها إلّا الدمار، الاحتمال الثاني يعني أنها باعت نفسها إلى الشيطان، وأنها تحمل في أحشائها أبناءه، وعدنان لا يمكن أن يكون شيطانًا إنه الملاك الوحيد الذي عرفته في حياتها التي كانت مكتظة بالشياطين. أعادت الصورة إلى داخل الملف من دون أن تطّلع عليه ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها قبل أن ترسل إلى إحدى العاملات لتأخذ الزجاجة والكؤوس إلى عدنان و قد قررت أن تتناسى تمامًا ما رأت.

**

صباح اليوم التالي لمحها من بعيد كانت تتدرب على السلاح بمفردها. هذه إذًا ابنة ماهر الكرواتي، الشيطان الذي أمر باعتقاله وتعذيب روحه كما أمر باعتقال الآلاف وتعذيبهم في أرض العرب، إنّه يحمل أوزارهم جميعًا، وها هو القدر يعاقبه بأن جعل ابنته تهرب مع ألدّ أعدائه وإن كان لا يعرفه، أهي حقًّا مَن رآها أمام مبنى السجن ذات يوم؟ لكن ما الذي يجعل ابنة ماهر الكرواتي تدخل سجنًا كهذا مقيدة اليدين! إنه لأمر مستحيل، لكنه يعلم أنها هي لا يمكن أبدًا أن يخطئها، انتقل ببصره حول القلعة حيث يتوزع بعض الرجال من الحرس حول الأسوار بعيدًا، عاد يراقبها بصمت، كانت سارة تصوب سلاحها نحو الهدف بعزم ومن دون حقد، لم تتخيل كما يفعل الكثيرون أي أعداء، لم تتخيل أي شخص، ربما مرّ في خيالها الفقر والتشرد اللذين أصابا الكثيرين من أطفال أرض العرب، فأرادت أن تطلق النار على الجوع وعلى البرد الذي لا رادّ له في أجساد الكادحين الفقراء، وعلى تلك الأيدي التي خطفت الأطفال وأخفتهم، كانت تظن ربما أنّها حين ستطلق النار ستُحيل الأرض جنة، كأنها لا تدري بأنّ الإنسان خرج من الجنّة لأنه ما استحقها، وحين يفعل سيعود إليها هناك في السماء لا على الأرض، فلا جنة على الأرض أبدًا، وهذا ما لا يصدقه البشر ولا يعونه. كانت الأقدار تحوم حولها تنادي بلا صوت: إنه لن ينقطع شيء من الشرّ هنا يا سارة لكنكم تستطيعون ردّه عن أمتكم وأولادكم وثرواتكم، وأن تقفوا في وجهه تحاربونه ما دام على الأرض إنسان منكم يتنفس،

أطلقت النار مرة ومرتين قبل أن تمسك يده أعلى فوهة سلاحها ويرفعه إلى أعلى:

- ما هذا الذي تفعلين؟

التفتت ليلتقي وجهها وجه خالد المشوّه الذي يثير في نفسها من غير قصد، نوعًا من الاشمئزاز الفطري، لكنها تغلبت عليه:

- أنت تتكلم إذًا! ظننتك أبكمَ.

- من أين حصلت على هذا السلاح؟

- أنا أتدرب على إصابة الهدف، عدنان طلب مني ذلك.

- ولم ذلك؟

- ابتسمت بهدوء وهي تقول:

- مَن يسأل سؤالًا كهذا! كل إنسان في أرض العرب عليه أن يتدرب على حمل السلاح.

- حمله وليس دقة التصويب.

- قل لي يا سيد ما فائدة حمله إذا لم نتمكن من إصابة الهدف؟

سحب خالد السلاح من يدها:

- وما هو الهدف الذي تنوين إصابته؟

- أعداء أرض العرب.

- لم أفهم!

- أعداء أرضنا.

- وهل تطلقين النار على كل أعدائك؟

- أعداء أرضنا وليس أعدائي.
- أعداء أرضك هم حتمًا أعداؤك. لكنك أحيانًا تعجزين عن رفع السلاح في وجوههم حتى وإن كنت تمتلكينه وتحسنين التصويب به.
- لم أفهم أنا هذه المرة.
- إنَّ أعداء أرض العرب اليوم هم من أهلها وأبنائها، مشكلتنا لا علاقة لأي دولة خارجية بها، لا أحد يقف خلف أسوارنا بالمناجيق.
- أحيانًا الخطر الداخلي أخطر بكثير.
- هذا لا شك فيه.

ثم أطرق قليلًا قبل أن يردف:

- لكن ليس هكذا تحلّ الخلافات، ما نحن فيه لا يحلّ بهذه الطريقة.
- كيف إذًا؟
- إذا كان نصف الشعب يريد شيئًا واحدًا أو يرفض شيئًا محددًا وكان يمتلك الإرادة للحصول عليه أو التخلص منه وأيًا كانت حالة هذه الفئة من الشعب من فقر أو ضعف في القوة فإنه سينجح إنْ وقف وقال «لا» بصوت واحد.
- أنت تهذي، ويبدو أنك لا تعلم مدى القدرة التي يمتلكها من يحكمون البلاد.

- بل أعلم، وأعلم أنهم قتلوا منا العشرات وربما المئات حتى الآن، لكنهم يفعلون ذلك لأنهم خائفون، ولأنهم يعلمون أنهم لن يصمدوا في وجه الشعب طويلًا. ثم ابتعد بنظره بعيدًا وقال كأنه يحدث نفسه:
- هناك مشكلة واحدة فقط.
- وهي؟
- الخيانة، على هذه الفئة أن تقف كلًّا واحدًا وأن لا تضم الخونة والجواسيس في صفوفها أو أقلّه أن يمتلكوا القدرة على التعامل معهم.
- قلت لك أنت تهذي. لن نستطيع يومًا التخلص من هؤلاء إنهم مزروعون بيننا منذ الأزل وإلى الأبد، لا يفل الحديد إلّا الحديد، انظر إلى عدنان، لقد وصلت أرض العرب إلى ما وصلت إليه بفضله، وهو قويّ ويحمل السلاح، إننا محظوظون بامتلاكنا رجلًا قويًّا ومخلصًا مثله.

لم يقل شيئًا، إنما نظر إليها وبدا كأنه يفكر بما يعارض ما تقول، وهي التقطت شيئًا مما فكر فيه ولم ينطق به، لكنها أزاحت ما التقطته ورمته في مؤخرة الذاكرة بعيدًا عن التحليل قبل أن تمد كفها اليه:

- الآن أعطني سلاحي.

رفعه إلى أعلى:

- لن أفعل، أنت بالذات حين تحمليه فإنك ستواجهين فئة كنت

تنتمين إليها يومًا، ولا أظنك تودين الوصول إلى ذلك الجزء المظلم لأنك لن تخرجي منه أبدًا.

- أنت من يقول ذلك؟ انظر ماذا فعلوا بك!
- ليس هذا وحسب ما فعلوه بي، لكن ذلك لا يعني ألا نحاول السير بالطريق الأنسب لرفع الظلم عن البقية.
- سآخذ قطعة أخرى من عدنان.
- تأكدي أنني لن أسمح لهذا بأن يحدث، ثم اقترب منها قبل أن يشير بإصبعه إلى رأسها وهو يقول: «حين نحارب بعضنا بعضًا داخليًّا نحتاج إلى هذا أن يعمل قبل أن نسعى أن تعمل أسلحتنا».

ثم تركها ومضى.

**

-٩-

لم تنم سارة تلك الليلة، ما رأته بالأمس في القبو وما رأته في عينيّ خالد اليوم بقيا يلاحقانها مثل كابوس لا ينتهي، حاولت أن تتجاهل كل تلك الأسئلة التي انقضّت على عقلها تطالب بإجابة، قلبها مطمئن ويعرف الإجابة جيدًا، فلمَ لا تقتنع هذه الأسئلة بأجوبته، ما قرأته في عينيّ خالد لم يكن شيئًا، إن وجهه كله لا يمتلك أن يمنح تعبيرًا واحدًا واضحًا فهو شديد التضرر والتشوه. وصورة مازن! إنها هناك لأنها طلبت من عدنان أن يفعل شيئًا تجاه خطف الأطفال ولقد وعدها بأن يفعل، فلم إذًا تتقلب هكذا كأنها تنام فوق سرير من شوك!

قررت أن تواجه مخاوفها لكنها تحتاج إلى المفتاح، كيف ستحصل عليه من جيب عدنان، إنها تستطيع في الواقع لكن ماذا إن أمسك بها، قد يظنها خائنة أو لا تثق به على أقل تقدير! فكرت طويلًا قبل أن تتجه نحو أحد الأدراج في غرفتها وتأخذ منه عقدًا ذهبيًا رفيعًا ثم لفت نفسها برداء طويل ووضعت العقد في جيبه وسحبت المفتاح من جيب سترة عدنان وخرجت برفق تمشي في دهاليز القلعة قبل أن تصل إلى الدرج الذي يؤدي إلى القبو. وهناك وقفت طويلًا تنظر

إلى ذلك الباب حتى ليكاد الرائي يظنها صنمًا أو تمثالًا وضع أعلى الدرج، أحيانًا نخاف فتح الباب المغلق أمام الحقيقة، لأننا نعلم أن خلفه حقيقتنا نحن وأنها قد لا تكون أبدًا كما نريد، لذلك نبقيه مغلقًا ثم نزيّف أنفسنا ونبدأ بإقناع الآخرين ثم إقناعنا بأنها نحن، لأننا نعلم أنها إن لم تكن جيدة بالقدر الذي نرغب به قد ننهار، نعلم مقدار الألم الذي يخلّفه أن تعرف واقعك، لكن الاختباء، ورغم أنه حل موقت جيد، إلّا أنه لا يجدي على المدى الطويل، لكن المعرفة وتخطي الألم سيخلقان منّا أشخاصًا حقيقيين، وأحرارًا يفهمون أنفسهم جيدًا.

هبطت الدرج برفق وتسارعت نبضات قلبها، إنه قلب يعرف عدنان جيدًا فلم ينبض خوفًا وقلقًا! وصلت حتى باب الغرفة، تناولت المصباح ثم وضعت المفتاح داخله وأدارته برفق، دفعت الباب بكفّها من دون أن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام، أعادت النظر إلى الغرفة، إنها تحاول أن تركز في كل شيء إلّا طاولة المكتب. أخذت نفسًا عميقًا وتقدمت خطوة واحدة، ثم أقنعت نفسها بأن تخطو مرّة أخرى، وهكذا خطوة بعد أخرى وصلت إلى المكتب. نظرت إليه وكانت الملفات والأوراق فوقه مترامية بطريقة غير منظمة أبدًا، أخذت الملف الأول وفتحته؛ «لؤي حسان البغدادي، تسع سنوات، فصيلة الدم أ موجب، كليتان». معلومات وصور وفحوصات وتواقيع كثيرة هنا وهناك أحدها توقيع وزير الصحة شخصيًّا! أصابها الدوار، فتحت الملف الذي يليه والذي يليه قبل أن تصل إلى الملف المطلوب، وفي الحقيقة ما كان

هناك من داعٍ أن تصل إليه، فقد علمت تمامًا قبل أن تصل إلى ملف مازن أن عدنان كان الطرف المقابل لفادي. هو من كان يقوم بإمرار البضاعة التي يوفرها فادي، بل في الحقيقة فإن الأوراق تظهر أنَّ طلب الأعضاء ونوعها يأتي من طرف عدنان أولًا، لكن لا وجود لأسماء أيّ منهما فوق أي شيء، لا فادي ولا عدنان. إنهما بريئان أمام القانون فيما لو وقعت هذه الأوراق في أيدي الحكومة، كان ملف مازن أكثرهم قبحًا، فما تم أخذه منه لا يمكن أن يُتخيل أو أن يصاغ في عقولنا بطريقة طبيعية، لقد كان شيئًا موجعًا أكثر من أي شيء آخر؛ عينيه! لقد اقتلعوا عينيه لمنحهما إلى غريب ما خارج أرض العرب قبل أن يقتلعوا روحه إلى الأبد، انهارت سارة وأدركت بلمحة بصر بأن حياتها كانت كذبة كبيرة، حاولت أن تكذّب مشاعرها، قررت أن تتراجع عن قرارها، إنها لم تعد تريد أن تعرف، سرير الشوك ذلك أرحم من هذا بكثير، إنها تنسحب، هي لا تستطيع أن تتعامل مع حقائق كهذه، فهذه الحقائق تدمرها عن آخرها وتتركها بلا شيء. إنها الآن لا تملك شيئًا، كما تدرك تمامًا أن أرض العرب لا تملك أحدًا وليس لها اليوم إلا الله، وأن كل الذي يجري ما هو إلا فوضى تجري بيد مجرمين لا يمكن أن يصنعوا خيرًا لهذه البلاد.

غطت وجهها بكفيها في محاولة لتمالك ما تبقى لها من أعصاب قبل أن تفزعها طرقة هادئة على الباب، رفعت رأسها بحركة غريزية حادّة لتجد خالد أمامها:

- ترى ما الذي تفعلينه هنا في مثل هذا الوقت؟

تلعثمت أمامه تمامًا، ولفتت عيناها المحمرتان والمحتقنتان انتباهه:

- سيدتي! هل أنت بخير؟

نظرت إليه من دون أن تقول شيئًا، بدت لها الرؤية ضبابًا، وصوته يأتي من بعيد، وكل شيء يدور، إلّا أن صوته الحازم وهو يقول مجددًا «سيدتي!» جعلها تستيقظ قليلًا من دهشتها:

- لقد أضعت عقدي حين أتيت إلى هنا سابقًا، وأنا هنا أبحث عنه.

- وهل حالفك الحظ؟

نظرت إليه بعينين تائهتين:

- ماذا؟

- هل وجدت عقدك؟

- نعم لقد وجدته ووضعته في جيبي ثم أخرجته وهي تقول ها هو.

إلّا أن خالد لم ينظر إلى العقد، بل نظر إلى الغرفة بكل تفاصيلها، هنا إذًا تحدث الخيانات الكبرى ضد البلاد، وهنا يضع عدنان كل أسراره. كم يتمنى لو أنه يستطيع الدخول هناك، ليحصل على كل ما يحتاجه.

قالت سارة: سأخرج الآن.

ابتعد خالد عن مدخل الباب وتناول منها المصباح وهي أغلقت الباب بالمفتاح وهمّت بالصعود ثم نظرت إليه بشرود كأنما أرادت أن تقول شيئًا، لكنها عادت واستدارت ثم صعدت الدرج وهي لا تدري ما الذي عليها أن تفعله الآن!

أما هو فقد لمح انطفاء البريق المعتاد في عينيها، هذه الفتاة رأت شيئًا في الداخل لم يسرّها، ويبدو أنها التقطت شيئًا من أسرار عدنان السوداء! غادر وهو لا ينوي أن يخبر أحدًا بما حدث، كتم سرها كما يكتم عشرات الأسرار في قلبه ومضى.

***

هي وحدها اليوم، مشت في ساحات القلعة حيث بدا وكأن الهواء البارد الذي يضرب وجهها يصفعها بقوة حتى تستفيق على المصيبة، لكن المصيبة الحقيقية هي أنها لا تشعر بالطوفان الذي يظن من تتهدم حياته أنه سيغرقه، في الحقيقة هي تظن أنها لم تعد تشعر قطّ، شيء من تلبد المشاعر أصابها، لا ترغب بالضحك ولا ترغب بالبكاء، لا شيء على الإطلاق هناك في خانة المشاعر، إلّا أن عقلها كان يعمل بقوة وسرعة، تحسست بطنها ونظرت في وجوه الحرس والرجال في الساحات، هي الآن لا تثق بأحد على هذه الأرض، تخيل!! حين يكون ما يقارب الثمانية مليار شخص يعيشون معك فوق هذا الكوكب لكنك تدرك أنك لا تمتلك شخصًا واحدًا منهم تستطيع أن تثق به! عليها حتمًا أن تجد طريقة ما لتفعل ما يدور في عقلها، كانت قبل ذلك قد أخذت

المفتاح من جيب عدنان عدة مرات لتزور تلك الغرفة المظلمة، مرت بجانب كل حارس وكل رجل، شغّلت حواسها جميعًا، إنها تحتاج إلى أن تسمع شيئًا يساعدها، سمعتهم يتحدثون عن اتساع دائرة الثورة في جميع المدن والأقاليم، ثم سمعت ريان يتحدث إلى خالد عن أوس! أحد شباب الثورة الذي لا يدري شيئًا عنهم أو عن أحزابهم، ساعدهم مع أفراد من الشعب الثائر الذين يثقون به -وما كانوا بقليل- في إخراجه ومَن معه من السجن، جذبها الحديث؛ شاب من الشعب يثور في الطرقات ولا يختبئ هنا كالنساء، يستمع له الشارع و لا زال يمدّ يد المساعدة من دون أن يطرح الأسئلة، عليها أن تجده، لكن عليها أن تعلم اسمه الكامل ثم تجده على مواقع التواصل الاجتماعي حتى تستطيع التحدث إليه.

كانت سارة تطيل البقاء في غرفة اجتماعات عدنان في القلعة، وتحوم حولها طوال الوقت، تحضر طعامًا أو شرابًا، تتابع الشاشات مع عدنان ومن معه سواء كان ريان، أو خالد كثير الصمت، أو أي رجل آخر من رجاله، وفي لحظة غادر فيها عدنان القاعة، انتهزت الفرصة ودخلت لتجلس على كرسي قريب من خالد ثم نظرت إلى الثوار في الشاشات أمامها و سألت:

- ترى هل ذلك الشاب أوس الذي ساعدكم بينهم؟

نظر خالد إليها وأدار وجهه إلى الشاشات طويلًا حتى ظنت أنه لن يجيب لكنه هز رأسه وقال:

- لا أدري!
- ترى ما اسمه الكامل؟
- أنا لا أعرفه أبدًا.
- أوس المغموس، هذا اسمه يا جميلتي.

التفتت سارة إلى عدنان الذي أجابها بهذه البساطة! كم كانت غبية، لماذا لم تسأله هو! عدنان لا يعرف شيئًا مما تعلم أو يدور في عقلها فلمَ لم تسأله وحسب، يبدو أن البطحة تقف حقًا على رؤوس أصحابها وتزعجهم أكثر مما يظنون أنها تزعج الآخرين، سألته ببراءة مصطنعة:

- وهل هو بين هؤلاء الآن؟

اقترب عدنان من الشاشة الوسطى، ومرّ بجانبها واحتك جسده بكتفها فانكمشت بطريقة جعلتها تدرك أنها لم تعد تحتمل الاقتراب منه قطّ، وأشار إلى شاب نحيل أسمر البشرة، يظهر قهر الزمن بالصلابة المرسومة على محيّاه، كان يهتف فوق أكتاف رفاقه بصدق وحرقة، كم كان يبدو صادقًا كاشفًا صدره بشجاعة لرصاص الحكومة وغدرها، قال عدنان:

هذا الشاب كنز لنا، إنه متعاون جدًا معنا ويثق بنا ثقة عمياء.

رفع خالد عينيه إلى عدنان وشعر بغصة في قلبه، في حين قالت سارة:

- حقًا؟

- بالطبع إنه يجعل مني قائدًا لهذه الثورة، ويتحدث باسمي مع كل المتظاهرين، بعد أن كنت ألعب من وراء الكواليس رجلًا مجهول الهوية يرغب الشعب كله بالتعرف إليه، قدمني إليهم بطلًا كما أستحق.
- غريب! ألا يتساءل الناس أين تكون منهم ومن ثورتهم؟
- ابتسم عدنان ثم قرص خدها يلاعبه :
- أوَتظن زوجة البطل أن أمرًا كهذا يغيب عن خاطره؟ إن أوس نفسه يظن أنني بالقرب منه، لكنه يظن أيضًا أنني مضطر إلى إخفاء هويتي حتى لا يتم إلقاء القبض عليّ أو إرسال مَن يغدر بي ويفسد كل خططي التي أعمل عليها حقًا هنا، إنه يرى جهودي على الأرض، ويتبع خطتي ويظن أنني في الشارع وسط الجماهير.

في الأيام القليلة التالية، كان كل همّ سارة هو أن تتوصل إلى أوس المغموس، لكنها لم تجد له أي صفحة خاصة على أي من مواقع التواصل الاجتماعي، لقد كانت تقرأ أخباره مرافقة لأخبار الثورة طوال الوقت، لكنها لم تجد شيئًا خاصًا به، بحثت عن شاب آخر من شباب الثورة فوجدت له عنوانًا، صنعت حسابًا باسم مستعار وبعثت تطلب إليه التحدث حول عدنان الوالي، وأنه خائن من الدرجة الأولى، لكنه رد عليها بالسباب واتهامها بالتواطؤ مع النظام قبل أن يقوم بحظرها تمامًا عن موقعه، دخلت صفحات الثورة وحاولت أن تكتب شيئًا إلّا أن الجميع هاجمها بشراسة وتم اتهامها بأنها خائنة للوطن وموالية للنظام،

وكان الجميع يؤكد على أن أعداء عدنان الوالي هم حتمًا أعداء الوطن، وكادت سارة تفقد الأمل في قدرتها على التواصل مع أوس أو أي من شباب الثورة المؤثرين، حتى خطرت ببالها فكرة شيطانية، إن نجحت بتطبيقها والحصول على معطيات دسمة تخدمها، فستجعل من عدنان هذا رجلًا في خبر كان.

**

بعد عشرة أيام، كانت قد حصلت بتجسسها على رجال عدنان على المعلومات التي تريد، خرجت إلى ساحة القلعة صباحًا نظرت إلى السماء التي كانت تضج بصوت طائرات الجيش!! انتظرت حتى كان وحده في ساحة القصر الكبرى، كان قد ترك ريان وأخذ يمشي ببطء يشرب فنجانًا من الشاي وهو ينظر إلى الزهر في الأحواض، اقتربت منه من دون أن يتنبّه إليها خلفه، قبل أن تقول بلهجة ثابتة و جادة:

- سأقول لعدنان كلّ شيء.

عرف خالدٌ صوتها، وتسمر مكانه منذهلًا، رفع رأسه إلى الأعلى قليلًا ودارت عيناه قبل أن يتمالك نفسه ويلتف ليواجهها:

- كل شيء حول ماذا؟

- حول محاولتك التودد إليّ، والاقتراب أكثر من اللازم، وسأقول له كيف حاولت أن تختلي بي في إحدى القاعات مرة.

نظر إليها وهو يكاد لا يصدق ما تقول! إنها الشيء الوحيد الجيد في هذا المكان فكيف ظهرت بهذا الوجه الخبيث فجأة. قال بهدوء:

- أنتِ تعلمين أنني لم أفعل شيئًا من هذا.

رفعت كفيها وفتحتهما:

- لكن عدنان لا يعلم.

- لا دليل على صحة ما تقولين.

ابتسمت بمكر وبدت له ملامحها نسخة أخرى عن ماهر الكرواتي، والدها وأكثر أهل أرض العرب شرًّا:

- صدقني أنا أملك من الأدلة ما يكفي.

صغرت عيناه وهو ينظر إليها نظرة شكّ قبل أن تُردف:

- يكفي أن أعلن الآن عن اختفاء أحد أثمن ما أملك ويجدونه بين أمتعتك.

- ولمَ قد تفعل سيدة مثلك هذا؟

ابتسمت ابتسامة نصر هذه المرة:

- لكنك تستطيع أن تتحاشى كل هذا، وتنسى أنني قلته.

- حقًّا!

- عليك أن تسأل مقابل ماذا.

بدت هذه المرة بقولها هذا كالضابط المحقق الذي كان يبتزه ليحصل منه على المعلومات، لكنه رغم ذلك كرر خلفها:

- مقابل ماذا؟

- أن توصل رسالة إلى شخص ما خارج أسوار هذه القلعة.

ابتسم بسخرية:

- أتظنينني أخاف عدنان؟
- عليك أن تخافه.
- ماذا لو أعطيته الرسالة وكشفت أمرك؟ ألم تفكري في هذا.
- لا أظنك ستفعل ذلك؟
- ما الذي يمنعني؟

تلفتت حولها واقتربت منه هامسة:

لديك معي سر صغير.

ابتلع ريقه، و بقي ينظر إليها من دون أن يقول شيئًا، أردفت:

- ألم تسأل نفسك لمَ أنت بالذات، لمَ لا أفعل هذا مباشرة مع الرجل الذي يحمل المراسلات خارج القلعة.

بدأ كل شيء فيه يتجمد خوفًا، إنه لا يخاف الموت ولا التعذيب ولا السجن، إنه يخاف أن يضيع كل ما قدمه في حياته سدى؛ لقد احتمل فقدان عائلته والسجن وأهوال الموت ولا يزال يحتمل الصمت على ما يفعله عدنان، كل ذلك في سبيل ما يؤمن به، لقد تجرع الصبر وانتظر طويلًا جدًّا، حتى أنه غدا يصبر على الصبر، وها هي ذات العينين العسليتين، مَن أنقذه خيالها مرة تهدد كل ذلك، ترى كم تعرف فتاة كهذه شيئًا عن صبره على البراكين التي تغلي داخله والتي يردمها طوال الوقت بكفين عاريتين؟ تابعت:

- في الفترة السابقة كنت أراقب كل القريبين جدًّا من عدنان، حدسي وتجربتي الصغيرة في الحياة أخبراني بأنه من المحتمل جدًا أن يكون أحدٌ ما يفعل شيئًا من دون علمه، وفي الحقيقة يبدو أن رجاله كلهم مخلصون له إلى أبعد الحدود إلّا واحدًا منهم، كان يتصل بجهات لا يعلم عنها عدنان شيئًا ويخبرهم بتحركاته.

خفق قلبه بقوة، إنها تتحدث عنه حتمًا، لقد سمعت إذًا إحدى مكالماته مع أعضاء حزبه وفهمت ما يقول!! ما كان لأحد أن يسمع ما يقول إلا إذا لاحقه متعمدًا، إنه حذر إلى أبعد الحدود، ثم إن عدنان يعلم تمامًا إنه يتحدث إلى حزبه ليطّلع على المستجدات أو ليطلعهم عليها، لكنها بالتأكيد سمعت ما لم يتوجب عليها سماعه.

- لم لا تقول شيئًا؟ تبدو لي الآن خائفًا من عدنان.
- أين هي رسالتك؟

أخرجت من جيبها مغلفًا مغلقًا وناولته إياه:

- هذا المغلف يذهب مغلقًا إلى أوس المغموس، سلمه إياه من دون أن تقول شيئًا، ولا تنتظر منه شيئًا، هذا كل شيء.

تناول منها الرسالة التي ارتجفت مع ارتجاف كفه، وتنبّهت هي إلى ذلك فرفعت عينيها إليه وتابعت: «إن فعلت ذلك فلك مني أن لا أتدخل في شؤونك ثانية، وتستطيع عندها أن تطمئن إلى أن ما قلته قبل قليل سيمحى من ذاكرتي تمامًا، وأنني لن أطلب منك شيئًا آخر مجددًا،

وسأكون ممتنة جدًا ولك مني جزيل الشكر، أما لو حاولت أن تغدر بي فأنت تعلم تمامًا ما الذي قد يحل بك».

- لا تقلقي. ستصل رسالتك حيث طلبتِ أن تصل.

منحته ابتسامة باهتة ومضت إلى داخل القلعة تاركة إياه في حيرة وقلق.

**

بعد عدة أيام، وعلى طاولة الإفطار، حضرت السيدة المسؤولة عن المطبخ وأخبرت السيد عدنان بأن الرجل الذي يخرج بالبريد في مثل هذا اليوم من كل أسبوع مصاب بمغص شديد لا يعلم له سببًا، وأنه سيتعذر عليه الذهاب لإرسالها، رفعت سارة عينيها حيث خالد الذي لم يبادلها ذلك إنما أبقى عينيه أمامه حيث توجد صحون الطعام على الطاولة، أما عدنان فأشار إلى الممرضة الجالسة على المائدة :

- لا بأس ستتفقده الممرضة الآن وإذا تحسن حاله سيأخذها غدًا.

إلّا أن خالد تدخل في هذه اللحظة:

- لا بأس، سآخذها أنا.

خفق قلب سارة حين أجابه عدنان بأنه لا داعيَ لذلك وهو على أي حال لن يكون على دراية بمواقع التسليم بالضبط.

إلّا أن خالد أصرّ على الخروج مبررًا ذلك إلى أنه يشعر بحاجته إلى الخروج قليلًا من هذا المكان، وأن هناك مكانًا عزيزًا عليه يحتاج

أن يزوره، وأنه سيأخذ الأماكن ووصف الأشخاص من رجل البريد، فهو يحفظ العاصمة شبرًا شبرًا، وما من داع لأي اختلاف في المواعيد، وأن كلّ شيء سيبقى على ما هو عليه.

أومأ عدنان برأسه:

- إذا كنت مصرًا فلا بأس، لكن انتبه لنفسك جيدًا وارسل كل ما يجب إرساله.

أكد عليه خالد ما قال، ثم استأذن وهمّ بالصعود لتجهيز نفسه للخروج قبل أن يلتفت إلى الممرضة وهو يقول:

- قد يكون أكل شيئًا قديمًا أو عفنًا، أو قد يكون تعرض للبرد من هواء الساحة، وأظن أن شراب الزنجبيل مع العسل والليمون قد يفيده، والكلمة الأخيرة للطبيب.

أدركت سارة بأن خالدًا كان وراء ما أصاب الرجل، وأنه وضع شيئًا في طعامه أو شرابه ليصيبه بشيء من التوعك وأنه كان يمنح الممرضة وصفة مخففة لما أصابه، فقررت أن تقوم بصنع الشراب له إن لم تفعل الممرضة، أما خالد فقد انطلق بالسيارة إلى العاصمة وهو يحمل رسائل عدنان ورسالة سارة إلى أوس، وقبل أن يدخل العاصمة بقليل أوقف السيارة على قارعة الطريق، ثم أخرج رسالة سارة، إنه يعلم تمامًا ما تحتويه رسائل عدنان إلى الأحزاب الأخرى وحتى إلى أوس، لكنه لا يعلم ما الذي تحمله رسالتها إليه، إنه بالتأكيد ليس أمرًا في مصلحة عدنان وإلّا لما كانت أخفته عنه، لكن هل هو يا ترى في

مصلحة الثورة؟ فكّر طويلًا إن كان سيفتحها أم لا، إنه لا يرغب بذلك، لكنه في الوقت نفسه لن يسمح لأي شيء أن يؤثر في مسار الثورة التي قد يطاح بها رأسًا على عقب على إثر رسالة، لكن ما الذي سيكون بين يدي سارة وسيؤثر في مجريات الأحداث؟ لا يظن أنها تمتلك شيئًا قد يؤدي الى ذلك، قد تكون علمت بفساد عدنان لا أكثر. أمسك بالرسالة ومزق ظرفها، لن يرسل شيئًا تحت التهديد من دون أن يعلم محتواه،على الأغلب ليس بالشيء الكثير إلّا أن عليه أن يتحقّق.

قرأ رسالتها باهتمام وكان يبتسم أثناء ذلك، فكر بأن هذه الفتاة مجنونة، لكنها حتمًا صادقة ونقية، يكاد لا يصدق أنها من صُلب ماهر الكرواتي، لكنها حتمًا أخذت شيئًا من الشدة منه، بدت له تشبه نفسه بطريقة ما، فبالرغم أنها قد تخسر كل شيء لكنها لم تقف ساكنة أمام الظلم والاحتيال! إنها أقل صبرًا منه فقط، وأضعف خبرة بالطبع، أنهى قراءتها وحفظ ما فيها عن ظهر قلب، ثم أشعل فيها النار بقداحة سيارته وألقى بها في الطريق ومضى يسلّم البريد إلى أصحابه. كان في الرسالة ما توقّعه تمامًا، لقد علمت بفساد من تعاشر و تريد من أوس أن يتواصل معها على حساب محدد خاص بها، نقل ما في الرسالة كاملًا الى قائد حزبه وأوضح له خطة قد رسمها في مخيلته حتى يستطيعوا أن يتصرفوا معها بناءً على ما لديهم من معلومات جديدة، وأنه يتوجب عليهم أن يفهموا ما الذي بحوزتها حول عدنان، حتمًا هناك المزيد. حين عاد في المساء وجد رجل البريد قد تعافى، وطمأن سارة بإشارة من رأسه بأن

كل شيء سار على ما يرام، وجلس مع عدنان يشرح له بعض التفاصيل ويسلمه البريد الذي تسلّمه.

مضى يومان ولم تتلقَّ سارة أي رسالة على العنوان التي بعثت به إلى أوس، فتوجهت إلى خالد تسأله إن كان متأكدًا بأنه أوصل الرسالة إلى أوس، فأكد لها بأنه فعل، وفي مساء ذات اليوم تلقت رسالة من شخص يختصر اسمه بالرمز أ.أ يوضح فيها المتحدث أنه تسلّم رسالتها، وأنه حتمًا سيقوم بالخطوة المناسبة لكن في الوقت المناسب أيضًا، تبادلا حديثًا قصيرًا واضحًا؛ كان قد طلب منها أن تجد معلومات أكثر حول بعض الأمور التي تحدثت عنها والخاصة بتخابر المذكور مع جهات خارجية أجنبية، وهي ربطت مساعدتها له بمقدار ما ستشعر به من تراجع شعبية عدنان في الثورة، وأصرت على طلبها الأخير. وما هي إلا أسابيع ثلاثة حتى بدأ اسم عدنان يتردد على أنه خائن لشعبه ووطنه في عدة صفحات للثورة لكن دون أدلة حقيقية أو إثباتات واضحة، وانتهز الكثيرون من مؤيدي النظام هذه الأقاويل، وبدأ الكثيرون من المفكرين والمحللين المشككين بنزاهة الثورة يرون في ذلك احتمالًا كبيرًا. جنَّ جنون عدنان، وبدا فاقدًا لتوازنه، فقد كانت الثورة لا تزال في أوجها، لكنها بدأت تلتف حول الشعب وتبتعد عن اسمه، لم تكن سارة تتخيل أن رسالتها ستفعل كل ذلك، يبدو أن الأثر الصغير يأخذ منحىً كبيرًا عندما يكون العدد أيضًا كبيرًا، على أي حال ظنّ عدنان في البداية أن مؤيدي الحكومة يقومون بعمل اعتبره حلاوة

روح، لكن الغريب في الأمر أن المعلومات التي كانت تظهر على الصفحات، ورغم عدم وجود أي أدلة عليها، دقيقة إلى الحد الذي بدأ يدرك معه عدنان بأن أحد رجاله خائن ويعمل لمصلحة الحكومة على الأغلب، مرّ عليهم واحدًا واحدًا، إنهم جميعًا عرّضوا أنفسهم للخطر ألف مرة من أجل أن يعيش، كلهم جاؤوه قبل سنوات عديدة يطلبون أن ينضموا إلى القتال لأن هدفهم الأسمى الانتقام من هذه الحكومة، والنساء لا يخرجن من القلعة ولا يعرفن شيئًا عن طبيعة عمل عدنان، خالد يعرف بعض تفاصيل المراسلات، وهي لا تحتوي على شيء ممّا يخفيه، ثم أنه واجه الموت وعذاباته وكاد يجن داخل سجنه المظلم ولم يقل شيئًا ولم يذكر اسمًا واحدًا. من يكون إذًا؟ إنه يحاول أن يحلل كل ما لديه من معلومات، ريان! رجله المخلص وأخوه الذي عاش معه منذ اليوم الأول الذي بدأ عدنان يصنع فيها إمبراطورتيه الخاصة، إنه وحده الذي يعلم كل شيء، لكنه ريان، أيمكن أن يغدر به في الخطوة الأخيرة لتحقيق حلمهما معًا! ثم خطر له خاطر، لا أحد يدخل ويخرج من القلعة سوى رجل البريد، هو فقط يمكن أن يكون قابل أحدًا استماله بعد أن رآه يسلم الرسائل إلى بعضهم، ربما راقبه طويلًا وابتزه ليحصل على شيء! لكن من أين يمكن أن يحصل عليه، على أي حال لا يمكن أن يكون أحدًا آخر، إنه الرجل المسؤول عن البريد، صاح باسمه بصوت غاضب دوّى في أرجاء القلعةِ فحضر فورًا وتسمّر كل من كان هناك يترقب الذي يحدث، اتهمه عدنان بالخيانة ولم يسمح للرجل

الذي انذهل أمام التهمة أن يتحدث، وقفت سارة هناك وهي ترى فوهة مسدس عدنان موجهة إلى رأسه، سيقتله حتمًا إن كان يظنه خائنًا. إنها لن تسامح نفسها إنْ قتله زورًا وبهتانًا، لكنها تعلم أيضًا أن الرصاصة ستتحول إلى رأسها هي إن قالت شيئًا عن الحقيقة، ما أصعب أن تكون أمام قرار مصيري خطر ووقت ضيق جدًا! إنها إما أن تموت كريمة وإما أن تعيش عمرها كله تحتقر نفسها إلى جانب ذلك الاحتقارالذي تشعر به بعد أن باعت نفسها وعائلتها من أجل رجل خائن مثله.

رآها خالد وهي تهم بقول شيء ما، فأشار إليها بعينيه أن لا تفعل، فتراجعت قليلًا إلّا أن عدنان كان جادًّا في إطلاق النار على الرجل فوجدت نفسها تصرخ:

- أنا فعلت ذلك.

أغمض خالد عينيه ممسكًا أعصابه وقد علم أنها أوقعت نفسها في ورطة لا حل لها، أما عدنان فقد التفت إلى سارة وكأنه لم يسمع ما قالت، أحيانًا نعلم أننا سمعنا، لكننا نكذبه لسبب واحد فقط وهو عدم وجود معطيات تشير إلى أن ما يقال أمامنا صحيح، فهو ببساطة لا يمكن أن يكون، فلا تصدقه، قال بصوت مندهش:

- -لم أسمع.

ابتلعت ريقها، وبدت ملامح الخوف على وجهها وفي صوتها الذي قال:

- أنا من تحدث إلى بعض أصحاب الصفحات، لا علاقة للرجل بذلك.

اقترب عدنان منها بخطوات بطيئة غاضبة، حتى قابلها وجهًا لوجه، ارتجفت أوصالها حين أمسك فكها بكفه وقال:

- أنتِ؟!

نظرت إليه والرعب يظهر في عينيها قبل أن يتابع «يبدو أنكِ قذرة تمتهن الخيانة».

بقيت جاحظة العينين لا تقول شيئًا فصاح فيها: «قولي شيئًا».

إلا أنها صرخت بخوف وألم حين انفجرت مياه رحمها على الأرض أسفل منها معلنة عن حالة ولادة.

**

ها هي اللحظة تأتي، تبدأ هادئة لتخبركِ أنها هنا، تزحف إلى إعصابكِ ببطء الزائر الوقور ثم تبدأ بالسيطرة عليكِ حتى تتملكك، هنا لا يبقى في الروح متسع لشيء، فهي لا تفكر إلا بالخلاص، يفقد كل شيء معناه وتتكسر كل القواعد، لا خيارات، وإن كانت فإنها محدودة توارب ما سيحدث وتتحايل عليه، في مثل امتحان كهذا لن تنظري إلى ظروفك المحيطة، يأتي الحلم بأصدق صورة، ويتحقق المبتغى كما يجب عليه أن يتحقق، فهو لا ينظر إلى أي من العقبات المحيطة، لا عقبات المكان ولا الزمان حتى لو كنتِ في الشارع أو السيارة أو في السجن، وحتى لو كنت تحت سقف أكثر رجل ترغبين في الرحيل عنه، تذوب حواجز الممنوع والمسموح، الصواب والخطأ، ما يجوز وما لا يجوز، لا مكان للخجل أو الحياء، ولا أمل في الثبات من دون الصراخ

أو البكاء أو حتى الهمهمة، هناك أنتِ والروح فقط تنجبان من سيكون أعزّ من الروح، ستمسكين بكلّ يدٍّ مارة، وستتوسلين بعمق إلى كل من لا تعرفين ثم ستهلوسين! نعم ستكون هذه هدية القدر إليك حتى لا تقومي بالتساؤل عن كل ما اختفى وستغادرين الواقع حتمًا، ومع الألم والهلوسة ستلعبين باحتراف، ستدركين أنه يجب عليك المشاركة لتحصلي عليه فتوافقين؛ طفلك فقط وفقط هو من يجعلك تريدين التحليق لتعانقي الألم طائعة رغم أنك لا تملكين الخيار، وتقبّل الهلوسة كصديق عزيز على أمل أن يمضي ذلك الوقت الذي ستكتشفين لاحقًا أنه أبطأ وقت ستعرفينه، وما إن تتفقوا أنتم الثلاثة حتى تمر الساعات من دون حتى أن تعلمي، وفي اللحظة الأخيرة ستشترك المعدة في اللعبة فتلتعي بقوة، قبل أن تعيدك إلى الواقع لتضمي عزيزًا غرسته التجربة في مكان أبعد من الروح بكثير. أمسكت طفليها بين ذراعيها وهي تستمع إلى صراخهما المحبب، قبّلتهما ونظرت إلى وجهيهما وتناست كل ما مرت به أمام المعجزة؛ كفّان وعينان وأصابع ورموش ولسان، إنهما منها وهما حقًا جميلان، كل شيء كان مثاليًا حتى فتح عدنان الباب، ضمت أطفالها إليها غريزيًا، وتحدثَ هو إلى الطبيب الذي طمأنه على زوجته وعلى الطفل والطفلة، وهنا التفت عدنان إلى الممرضة وطلب منها أن تنقل سارة إلى غرفتها، وأن تأخذ الطفلين إليه بعد ذلك، ثم غادر من دون أن يلتفت إليها ولا إلى طفليه، ضغطت أكثر على طفليها وهي تخبر الممرضة بأنها لن تسمح لها بأخذهما إلى أي مكان، فطمأنتها

الممرضة بأن أحدًا لن يأخذ منها شيئًا، ثم حضّرت حقنة مغذية حسب ما وصفت لسارة وغرزتها في ذراعها قبل أن تستسلم سارة لما دسّ في جسدها فتغفو عميقًا وترخي ذراعيها بالطفلين إلى الممرضة التي أخذتهما إلى عدنان وأمرت بنقل سارة إلى غرفتها.

بعد عدة ساعات استيقظت وقامت لتبحث عن طفليها في أرجاء الغرفة، نظرت في كل مكان، في غرفة الملابس وتحت السرير، حتى أنها بحثت في الحمام! أعادها الإعياء إلى سريرها، إنهما حتمًا يحتاجان إلى الطعام، عادت وغادرت الفراش متجهة نحو الباب، وما إن فتحته حتى وجدت أحد رجال عدنان يقف خلفه! لم تسأله عمَّ يفعله في ذلك المكان، ولم يخطر ببالها أنها كانت محتجزة، إنها تبحث عن طفليها. طمأَنها الرجل وأخبرها بأن السيد عدنان سيحضرهما فورًا ووعدها بذلك، دخلت غرفتها مجددًا وجلست على طرف سريرها تنتظر أن يطرق أحدهم الباب، وهذا ما حصل فعلًا، طرق عدنان الباب ودخل، وقفت ونظرت في ذراعيه بذهول، قبل أن ترفع عينيها إليه «أين هما؟».

اقترب عدنان منها فتراجعت في حركة غريزية خائفة، إلا أنه أمسك بكفيها وأجلسها على السرير بجواره وهو يقول:

- اسمعي أيتها الجميلة، لقد انتهى دورك هنا، أما طفلاي فانسي تمامًا أنك أمهما، أنت الآن لا تمتلكين أحدًا سوى نفسك البغيضة، فاستمتعي برفقتها، وإذا التزمت الهدوء وكنت مطيعة، أتيناكِ بالطعام والشراب وبقيت في غرفتك هذه

حتى ننتقل من القلعة، أما إن سمعت أنك تقومين بالمشاغبة فسيكون الموت أهون عليك كثيرًا مما سأفعله بك.

نظرت إليه بحدة وقالت كأنها لم تسمع حرفًا مما قال:

- أريد طفليّ. الآن.

ابتسم في وجهها مبديًا إعجابا:

- إنك حقًّا ابنة الكرواتي! لكن أتعرفين ما الذي تغير الآن؟ لقد هُزم الكرواتي على يديك، وقريبًا سينهش الشعب لحمه، لا كلمة لك اليوم فأنت هنا لستِ إلا عبدة لي، وأنا يا سارة لست والدك، ولا تظني أبدًا أنكِ قادرة على الغدر بي، وأما ما فعلتِه مع شباب الثورة فستصلحينه بيديك، وعلى حسابك الخاص، أعدك بهذا.

صرخت في وجهه:

- أنت قاتل، ليس هذا وحسب بل أنت خائن يغدر ببلاده مع آخرين في الخارج، فلا تظن بأنك أطهر من ماهر الكرواتي أو الحكومة، لا بد من أنّك شيطان، ثم ضعفت نبرة صوتها كأنها تتوسل: «كيف يمكنك أن تكون إنسانًا وأنت تحرم أمًّا من أطفالها؟»

ما زالت كلماتها رغم ضعف موقفها واختلال عقلها الظاهر عليها بعد الولادة تهز فيه شيئًا، وتشعره بأنه يصغر أمامها وينكمش ولو قليلًا، نظر إليها طويلًا ثم قال:

- سأريك طفليك إن أجبتِ على بعض الأسئلة.

تهلل وجهها لهفة على طفليها وغاب عنه الغضب اليائس:

- أي شيء، سأفعل أي شيء.

- حسنًا، قولي لي إذًا كيف أمكن للحكومة أن تسمح لمن كانا مثل والديّ أن يناما مع أطفالهما الصغار وهم يشعرون بالجوع الشديد، في حين أنّ أرض العرب كانت ترمي الأطنان من الطعام الزائد كل يوم في حاويات القمامة؟

نظرت إلى عينيه وانهمرت دموعها على خديها بصمت وقد علمت بأنه يسأل أسئلة لا تملك لها جوابًا ثم انزلقت عن السرير إلى الأرض لتصبح تحت قدميه:

- أرجوك ألّا تفعل.

نظر إليها وأمسك بكتفيها وأعاد رفعها إلى السرير وهو يقول:

- و كيف أمكن لها أيضًا، أن تهدم بيت أطفال صغار يُتّم لا ظل يؤويهم في أرض العرب، والحُجة قصاصة من ورق تدعى رخصة بناء؟ وكيف أمكن لكل أثرياء أرض العرب أن يمرّوا عن طفل مشرد في الشارع من دون أن يلتفتوا إليه حتى ظن بأنه شبح أو هواء ملوث؟ هذا الطفل كان يعيش اليوم بيومه، كان لا يفكر بالأمس لأنه سيقتل نفسه حزنًا وغضبًا إن فعل، ولا وقت لديه للتفكير بالغد لأنه يبحث عن كسرة خبز يقتاتها اليوم. كيف أمكن للحكومة أن تراه هو والمئات من أمثاله

غارقين بمياه مطر الشتاء القارس من دون أن يهتز لها رمش؟ لم يعنِ له الوطن كثيرًا يا سارة فلا تأمريه بأن يتغنى به.

- أتوسل إليك لا ذنب لي في كل هذا ولا ذنب لطفليّ.
- وما كان ذنب ذلك الطفل؟

نظرت إليه بعينين دامعتين من دون إجابه فصاح في وجهها: «أجيبي ما كان ذنبه؟».

- لا ذنب له.

ثم شرد بعيدًا وقام يدور في أرجاء الغرفة:

- وذات يوم توقفت سيارة أمامه، ونظرت إلى عينيه امرأة شقراء وابتسمت، شعر لأول مرة منذ ألقي في الشارع بأن أحدًا ما قد رآه حقًّا، لم تكن تريد أن تتصدق كما يفعل الآخرون، إنما دعته باسمه، وأخبرته بأنها ستأخذه إلى منزلها الجميل، أنه سيصبح منذ اليوم ابنها. ثم أخذته وملأت بطنه بطعام لم يحلم بتذوّقه حتى في الجنة وجعلت فوقه سقفًا وصنعت له سريرًا دافئًا. فلا تقولي إنني خنت الوطن، ما قدم لي الوطن شيئًا حتى أصونه، وأصون عروش من يحكمونه.

ثم عاد واقترب منها وثنى نفسه حتى قابل وجهه وجهها وتابع: «لن أجوع حتى يشبع أبناؤهم، ما كنت لأجوع لتشبعي أنت يا سارة، واليوم عليك أن تدفعي شيئًا كما دفع كل مَن على أرض العرب، لقد حان الآن دورك لتعاني، فعاني بصمت ولا تزعجي راحتي وإلّا أخذت

روحك وألقيت بها إلى الجحيم في أول رصاصة تخرج من مسدسي، وأظنّك تفهمين جيدًا ما أقول».

ثم أفلت كفيها بعنف وغادر الغرفة وسمعت صوت المفتاح يدور فيه، لكنها لحقت به وضربت الباب حتى تعبت ثم سقطت فوق ركام حياتها المنهارة عن آخرها.

***

-١٠-

على طاولة الاجتماعات في قصر الرئاسة جلس الحاكم مع رئيس وزرائه ووزير الدفاع السيد ماهر الكرواتي والوزراء جميعًا في محاولة إيجاد حل لوقف ما يحدث من شغب في الخارج، كانوا يراقبون مشدوهين ما يجري وهم يعلمون أنهم سيسقطون إلى الأبد إذا ما نجحت هذه الثورة التي يبدو جليًّا أنها ستفعل. كان ماهر الكرواتي قد استدعى باسم الحاكم قادة الجيش وجميع المستشارين في شؤون البلاد، بعضهم كان قد سيطر عليه الخوف من انتفاضة هذا الشعب فلم يكونوا يتحدثون إلا عن طرق الفرار والوسائل التي لا تزال متاحة لهم بعد أن سيطر الشعب على أغلب الموانئ والمطارات وسكك الحديد، وكيف أنّ عليهم أن يتعجلوا في أخذ هذا القرار لأنه لم يعد باستطاعتهم إلا استخدام بعض الطائرات الخاصة الصغيرة التي لا تحتاج إلى مدرجات طويلة، هذا إن استطاعوا الوصول إليها، أو طائرات الهليكوبتر التي قد تنطلق من على سطح مبنى الرئاسة، هذا إن نجحت في النجاة من الثوار الذين سيطلقون عليها قذائف (آر. بي. جي) لإسقاطها، أما الآخرون فكان الخوف من الحاكم ووزيره

لا يزال مسيطرًا على عقولهم فكانوا يمجدون بقوة الحكومة التي لن يستطيع الشعب كسرها وإن انثنت، وكيف أنّ على الجيش أن يمنع هذه المهزلة بشتى الطرق التي يستطيع، وأن من واجبه حماية هذه البلاد من هذه الشرذمة وأفرادها الذين -وإن كانوا ملايينًا- فهم ما زالوا بنظر أبناء الحكومة قلّة لا يقدرون على شيء، أما قادة الجيش فقد كان لهم رأي مختلف ما كان ليعجب رئيس الحكومة ولا وزيره ومن معهما، قالوا بأن العالم كله يراقب عن كثب ما يحدث في أرض العرب، وأن المجتمع الدولي انقلب عليهم وبدأت الكثير من الدول تتدخل بشكل علني في شؤون البلاد بحجة أنها تنقذها من ديكتاتورية سلطتها؛ كان الحاكم من الوهن والعجز والمرض ما لا يستطيع معه حقًا أن يقول شيئًا، إنه لا يدري عن أمر هذه البلاد وهو متعب ومقعد وطاعن في السن، فكيف له إذًا أن يقول شيئًا نافعًا! شعر ماهر الكرواتي بالدنيا تغلق جدرانها على قلبه، ذلك أنه إذا انسحب قادة جيشه فقد حسمت المعركة لمصلحة الشعب، وقف بحركة غريزية غاضبة وضرب بكفه على الطاولة وصاح في وجه قائد الأركان:

- الشوارع الآن تحت سلطة اللجان الشعبية، هل تعلم ما معنى أن يحكم شعب بهذا الحجم نفسه؟ هذا يعني أن وجودكم مثل عدمه ويعني فراغًا في السلطة وفوضى عارمة لا يعلم مدى تأثيرها على البلاد إلّا الله.
- نأسف يا سيدي! على الجيش أن يأخذ صفًا محايدًا، لن

نستخدم القوة ضد هذا الشعب مجددًا، لقد وقع من الضحايا ما يكفي لجعلنا مجرمين في عيون العالم.

- فليذهب العالم إلى الجحيم! هل أنتم مستعدون حقًا لتفقدوا كل شيء من أجل العالم، كم أنتم ساذجون!! هذا العالم الذي تتحدثون عنه لن يرحمكم إن سقطتم.

تدخل قائد القوات الجوية قائلًا:

- نحن الجيش يا سيدي. لا يحق لأحد أن يحاسبنا طالما كنّا نتبع الأوامر وإذا انسحبنا الآن، فهذا سيحفظ كرامتنا وماء وجهنا أمام جميع الأطراف.

- وتتركون هذه الحكومة للهلاك!

أجاب قائد الأركان:

- نحن مستعدون أن ندفع أي شيء لحمايتكم لكن كرامتنا وصورتنا أمام العالم تهمنا أيضًا.

ضيّق ماهر الكرواتي عينيه وهو ينظر إلى قائد الأركان وكأنه اصطاد في كلامه شيئًا ثم قال:

- هذا يعني أن ما يحدث لو لم يكن تحت اسم جيشنا فلن يعنيكم الأمر.

هز قائد الأركان رأسه نافيًا:

- لا.. ليس كثيرًا في الواقع.

- فليكن إذًا، لكنني سأحتاج منك إلى خدمة.

- أي شيء يا سيدي.
- أحتاجك أن تدفع بالكثير ممن ينتظرون فرص كسب المال في ظروف كهذه لينزلوا إلى الشارع ويهتفوا إلى جوار أنصارنا القلَة هناك، وأريدك أن تزودهم بما استطعت من الأسلحة البيضاء وتطالبهم بإحداث ما يستطيعون من شغب، دسوا ببعضهم بين المتظاهرين، واجعلوهم يقومون بما استطاعوا من مباغتات تحدث بلبلة في الصفوف، نحتاج أن نشتت المتظاهرين عن أنفسهم وأن نجعلهم يحذرون النزول إلى الساحات حتى يخاف المتظاهر ممن يقف بجانبه ولو كان يهتف بمثل ما يهتف.
- لك ذلك يا سيدي، وسأجعل بعضًا من عناصرنا يتخفون بلباس مدني ويدخلون بينهم ليجلبوا لنا أخبارهم ولينقلوا لهم الأخبار التي نريد لها أن تنتشر لإحباطهم في الساحات والعمل على فض شملهم وكسر شوكتهم وقهقرتهم إلى الوراء.
- سيكون هذا معروفًا لن أنساه لك، وأنت تعلم تمامًا أنني لا أخلف وعدي إنْ وعدت.
- خدمتكم من دواعي سروري يا سيدي.

انفض الاجتماع على هذا الاتفاق، أعيد الحاكم إلى جناحه قبل أن يبقى ماهر الكرواتي وحده واقفًا خلف الشاشات يراقب ما يحدث

باهتمام، ثم همّ إلى مكتبه ليجري عدة اتصالات خارجية يسهب فيها بالشرح ويتلقى التعليمات اللازمة، حتى اذا ما انتهى الأمر عاد إلى الشاشات يتأملها وهو يحاول أن يفهم كيف وصل الحال إلى هنا، لقد عاشوا عشرات السنوات كما يجب أن يعيشوا، ولقد توخوا الحذر وكانوا يعملون بعناية فائقة وخطوات مدروسة فكيف جرى ما جرى؟ كانوا يأخذون من أرض العرب ما يأخذون ويمنحون الدول الصديقة ما يحتاجونه من مواردها وخيراتها، واليوم لا يلتفت منهم إليه أحد، كلّ ما يظهرونه له وعود باهتة بالمساعدة وحجج واهية بعدم القدرة على التدخل في شؤون البلاد! فكّر بسارة وندم على تساهله معها وإخفائه الكثير من الحقائق عنها، ليته أرسلها مبكرًا إلى الخارج لتكمل تعليمها، ليته استطاع إخراجها من هذه الأرض العفنة قبل أن تهرب مع ذلك الوغد، وليته الآن يجدها، فكر في المدعو عدنان الوالي وكيف أنه اخترق منزله وحكومته بل وأرض العرب جميعها وأصبح اليوم أهم رموز الثورة بعد أن كان معارضًا مختبئًا كفأر لا يجرؤ على الظهورأو حتى الكشف عن اسمه، فكر بأدهم وكيف أن عليه أن يسرع في إخراجه من هنا في أقرب وقت، حتى أنه ليشعر أنه تأخر كثيرًا في ذلك، سيرسله بعيدًا ليبدأ حياته حيث يجب، فكر في نفسه وكيف أن عليه وضع خطة بديلة لنفسه في حال تخلت عنه كل الأطراف، نعم سيلحق بأدهم إذا ساءت الأمور هنا، هذا ما فكر فيه ماهر الكرواتي وعدا ذلك فليذهب إلى الجحيم.

**

كان أوس دائم الحضور في الشارع، لا يعود إلى المنزل أبدًا، يتجمهر الناس حوله ويؤمنون بصدق نيّاته وأفعاله ويزداد من يلتفون تحت رايته عددًا وإيمانًا بحريتهم، وازداد أيضًا عدد الذين يعارضون عدنان ويطالبونه بالظهور ويعارضون فكرة الالتفاف حوله سواءٌ كانوا ممن وصلتهم أخبار فساده التي قايضتها سارة مقابل إعطاء معلومات أخرى محددة تم طلبها منها، أو ممن دستهم الحكومة في الشوارع وعلى شبكة الإنترنت للطعن ببعض قادة الثورة والتشهير بهم، أما أوس فقد كان مؤمنًا جدًا بعدنان، فهو رغم أنه لم يلتقيه قطّ، إلّا أنه ما أشار عليه بشيء سواء عبر الهاتف أو عن طريق وسطائه إلّا ونجح وقدّم الثورة خطوات كثيرة إلى الأمام، على أي حال وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر إلّا أن الشعب الصامد في الشوارع لا يرغب إلّا بشيء واحد وهو إطاحة هذه الحكومة الفاسدة، في النهار يثورون ويواجهون قوات الشرطة والجيش، ثم يشيعون قتلاهم ويداوون جرحاهم في الشوارع والميادين، ويوزعون الماء والطعام بعضهم على بعض، ويحلون المشاكل التي قد تنتج بين المتظاهرين، أما في الليل فقد كانوا يتجمعون في خيمهم ويشعلون النار وينظفون الشوارع من الحجارة والذخيرة التي تطلقها قوات جيش الدولة عليهم في النهار.

وكان صوت الطائرات لا يزال مسموعًا في الأجواء، قبل أن يأتي شاب من أصدقاء أوس وهو يقول: «لقد أعلن الجيش تخليه عن الحكومة، وقرر أن يقف إلى الحياد في هذه المواجهة». أجاب

أوس ساخرًا: «أي جيش هذا الذي لا يقف مع شعبه ويقرر أن يقف متفرجًا؟». ضحك رفيقه: « لا نريد أكثر من أن يكف بلاه عنا، هل حقًا تريد من اليد التي قتلتك بالأمس أن تمد إليك يدها اليوم لتساعدك؟». أجابه أوس بثقة: «ما دام هذا الجيش حمل بين رجاله رجلًا كجمال الذي ضحى بعمره في سبيل أن يقف مع الحق فما زال الأمل فيه قائمًا».

في صباح اليوم التالي، سمعت العاصمة أصواتًا قوية لطائرات تحلق في سمائها، حتى ظن الناس أن الجيش غُلب على أمره وعاد تحت سيطرة الحكم، إلّا أن الطائرات المحلقة فوق المنازل كانت لا تمُتّ إلى طائرات جيش العرب بصلة، إنما كانت طائرات تابعة لقوات التعاون الدولي، التي كانت تنتظر الفرصة المناسبة للتدخل في شؤون أرض العرب تحت مظلة الإغاثة وتعزيز الجهود الإنسانية. لقد قررت تلك الدول أن تعاون الشعب المسكين للتخلص من ظلم النظام الحاكم الآيل إلى السقوط؛ هذا ما أذاعته الأخبار ذلك الصباح، سُمع صوت انفجارات قوية تصم الآذان في مناطق متفرقة من العاصمة، وسُمعت استغاثات قادمة من مناطق عدة، كان أوس يخبر الثوار بأن أرض العرب ستضيع إن تدخل فيها آخرون، وأن الجيش قد انسحب فما الداعي الذي يجعل دولًا كهذه تتدخل الآن، فسقوط النظام نتيجة حتمية تحتاج إلى القليل من الوقت وحسب.

ذلك اليوم سار المتظاهرون إلى مجلس الوزراء، صاحوا ونددوا، في حين كان الشارع العريض مفتوحًا هذه المرة والبوابات كالعادة فارغة

من حراسها، وصلوا إلى المجلس الذي كان قد أصبح مهجورًا عن آخره، جالوا في أروقته، وطوابقه، جلسوا حول الطاولات المستديرة فيه وبعضهم مدّ جسده عليها في حالة شعور باسترداد الملكية، وآخرون وقفوا على كراسي الانتظار يكبّرون، نزلوا إلى طوابقه السفلى وعاثوا في أرشيفه ووثائقه، ثم بدأوا حفلة التخريب التي كانوا يؤمنون أنها بطريقة ما تؤكد على انتهاء عصر وابتداء آخر، ثم تغنوا أمام المبنى بأغاني الوطن والحرية، رفعوا علم أرض العرب، والأغصان الخضراء، التي وزعوا بعضها على قوات الأمن التي وقفت تنظر من بعيد لا تفعل أو تقول شيئًا إلّا أنها كانت تبدو بطريقة أو بأخرى راضية عما يقوم به الثوارالذين رصّوا أكتافهم بعضها بجوار بعض وبدأوا يدبكون بفرحة عظيمة والدموع تتساقط من عيون بعضهم، انطلق معظمهم متوجهين إلى الحي الدبلوماسي تاركين آخرين خلفهم مندهشين بالمكان ومتفكرين في تأثيره السابق على أرض العرب، الآن سيأخذون بثأرهم من الحاكم ووزرائه وسينتزعونهم من بيوتهم ليحاكموهم أمام الأمة بأكملها، كانت فرحة النصر تمنح أجسادهم وأرواحهم قوة هائلة يستطيعون بها اقتلاع جبل كبير، وكانت رغبة الانتقام فيهم قد وصلت إلى ذروتها وتعطشهم للدم كان حاضرًا وإن لم يلحظوه. ساروا حتى وصلوا الحي الدبلوماسي، كان يبدو لهم حيًّا من عالم آخر، كأن أحد أرقى شوارع أوروبا قد انتزع من هناك وزرع هنا، هادئ لا تسمع فيه سوى زقزقة العصافير على الأشجار، البيوت فيه جميلة منظمة ومرتبة،

ذات حدائق واسعة، حملوا أوس على أكتافهم وساروا مبتهجين حتى وصلوا إلى بيت الحاكم، كسروا بابه الكبير ودخلوه وهم ينظرون إليه باندهاش، كان قصرًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، بناء ضخم فاره؛ كل شيء فيه مطلي بالذهب الخالص، حتى مقابض الأبواب والمغاسل في الحمامات، حطموا عشرات اللوحات التي تقدر بمئات الآلاف إن لم يكن بالملايين، ووجدوا خلفها كنوزًا استطاع بعضهم سرقة جزء كبير منها، إلا أنهم لم يفاجأوا حقًا حتى عثروا على خزائن من الفولاذ في مساحة كبيرة بنيت خصيصًا في قبو القصر كل خزنة منها بحجم غرفة كبيرة، جميعها كانت مغلقة بإحكام فما تمكن أحد من فتحها أو حتى تحريكها قيد أنملة، لكنهم كانوا جميعًا يعلمون أنها تحوي كنوزًا هائلة القيمة باهظة الثمن، وعلموا بأن عليهم انتظار مختصين وجهات بعينها من أجل فتح وتوثيق ما في داخلها من دون أن تتم سرقتها بطريقة أو بأخرى.

أما أوس وأصدقاؤه الثلاثة فقد حاموا حول المكان يتفحصونه برفق قبل أن يجدوا درجًا صغيرًا في إحدى زوايا القبو، نزلوه بحذر ومشوا في سرداب قبل أن يقابلهم درج آخر ينتهي بباب يبدو قديمًا لكنه رغم ذلك قوي، كان ما خلف الجزء المفتوح منه مظلمًا فظنوا أن فيه كنوزًا من نوع خاص، وما إن دفعوا الباب حتى فاحت رائحة كريهة من خلفه، أشعل أوس ضوء هاتفه يتفقد الأمر قبل أن يشعل رفيقه النور، كان نورًا أحمر مخيفًا وكأنه صنع لتصوير أحد مشاهد الرعب، إلّا أن المشهد هذه المرة كان حقيقيًا. كان المكان مسلخًا حقيقيًا قذرًا ومخيفًا،

جدرانه ملطخة بدماء جافة، وعلى الأرض حصيرة قش تنكمش فوقها فتاة لا تتجاوز الثامنة عشرة ترتجف وهي مغمضة العينين لا يمكنك أن تخمن إن كان من الضوء الذي سطع في وجهها فجأة أم من خوفها رؤية القادمين، وقف أربعتهم ينظرون إليها من دون أن يخطو أحدهم خطوة واحدة داخل الغرفة وقد أصابهم الذهول، لقد تخيلوا كل شيء إلّا هذا! كان الحاكم يبدو ضعيفًا قد هدّه المرض فما الذي يفعله بغرفة كهذه؟ كاد يدخل أحد أصدقاء أوس الغرفة لكن أوس أوقفه بيده وهو يشير إليه ألّا يفعل، ثم تنحنح فتراجعت الفتاة في حركة خوف غريزية، إلّا أنه قال برفق: «نحن رجال الثورة، لقد هرب الحاكم، وأنت الآن بأمان، افتحي عينيك واسمحي لنا بالاقتراب لنفك قيودك»، فتحت الفتاة عينيها الزرقاوين وبقيت تنظر إلى الأربعة من دون أن ترمش بهما، ثم هزت رأسها برفق موافقة، اقترب أوس وحاول أن يفك القيد المعدني في يديها لكنه لم يستطع، سألها إن كانت تعلم مكان المفاتيح، إلّا أنها هزت رأسها نافية، نظر أوس حوله وهو يطمئنها بأنهم سيخلصونها منها بأي طريقة.

دار أوس في الغرفة قبل أن يجد في أحد زواياها كرات حديدية ثقيلة فأخذ إحداها وبدأ يحطم بها قيد الفتاة من دون أن يقول شيئًا إلّا أن ما أصاب روحه كان عميقًا و قاسيًا، لقد ظنَّ طويلًا أنه يعلم الحضيض وقاعه، لكنه اليوم يعلم أنه لم يكن يمتلك أدنى فكرة وأنه مكان يعج بقذارة أكثر بكثير مما كان يظن.

سألها أحد رفاق أوس: «هل يعلم أهلك عنك شيئًا؟ هل تستطيعين أن تدلينا عليهم؟».

كان أوس قد أنهى فك قيود يديها وقدميها قبل أن يشعر بأنه كاد يختنق فخرج من الغرفة إلى السرداب ليستنشق هواء أقل تلوثًا ورطوبة، أراد أن يبكي فلم يستطع، شعر بالغثيان وتذكر مازن وجمال، عاد يقول بأن عليهم إعادتها إلى أهلها من دون أن يشعر أحد بذلك، لكن رفيقه أخبره بأنها وحيدة بلا أحد، نظر إليها طويلًا وسألها إن كانت تستطيع أن تمشي وتتحرك وحين أومأت بإيجاب خطف الطاقية عن رأس صديقه وأمرها أن تجمع شعرها كله تحتها وتلبسها قبل أن يخلع قميصه وطلب منها أن تلبسه وأن تبقى ببنطالها القطني الذي كان متسخًا، ثم سأل أصدقاءه أن يخرجوا معها على أنها أحد الثوار عند اندفاع الناس إلى الخارج لأن آخر ما تحتاج إليه هذه الفتاة هو فضيحة لا ذنب لها بها، وأمرهم أن يأخذوها إلى أمه، كل ذلك بعد أن يخرج إلى الثوار في محاولة إلهائهم قدر الإمكان وهذا ما كان، فقد خرج وقال فيهم بعض كلمات الحماسة التي ولأول مرة لم يكن يستشعرها، وأخبرهم بأن الوقت طويل للبحث عن مقتنيات القصر الكبير، وأن عليهم الآن أن يذهبوا لمحاسبة البقية وأمرهم بالتوجه معه إلى منزل الكرواتي، ذاك هو من عليهم أن يأخذوا بثأرهم منه حقًّا، وهذا ما كان فقد اندفع الناس جميعًا إلى منزل الغول «ماهر الكرواتي» وأخرج أصدقاؤه الفتاة معهم بسلام.

**

«تعال شاهد يا خالد، إنَّ الشعب كله في الشارع»، قالها عدنان بحماسة وثقة بل وبسعادة عارمة استطاع أن يلحظها خالد وهو يقترب منه ليتابع ما تعرضه الشاشة ثم تابع بالحماسة نفسها:

- أظن بأن الحرب الفاصلة قد بدأت حقًّا، وأن هذا الشعب لو مات نصفه اليوم لن يعود قبل أن يحطم هذا النظام عن آخره.

ما يقوله عدنان حقيقي جدًّا، ما دام الملايين قد نزلوا إلى الشوارع واقتحموا مجلس الوزراء والحي الدبلوماسي فإن النظام حتمًا قد انتهى وابتدأت الفوضى التي سيستغلها كل طرف كما يشاء ليوجه هذا الشعب حيث يريد، وهنا سيبدأ دور خالد بالعمل مع مجموعته للإحاطة بكل ما يخطط وسيخطط له هذا القذر، كم سيكون صعبًا عليهم أن يقاوموا هذا الرجل الذي سيُسقط الحكومة ويستلم الحكم على الأغلب،.ما أصعب دوره! إنه يرافقه لمتابعة خطواته إلى الحكم من دون أن يستطيع حتى الاعتراض على خطوة واحدة من خطواته. فضحه ليس صعبًا؛ يكفي أن يكشف هذا الرجل للجماهير حتى تلتفت إلى غيره، لكن بالطبع هذا آخر ما يحتاجون إليه في المرحلة الحالية، صحيح أنهم روّجوا فساده، إلا أن شيئًا مما نشروه لم يكن مؤكدًا أو مثبتًا، وكان ما فعلوه ضروريًا لإقناع سارة بأن أوس استلم رسالتها ولأخذ ما يحتاجونه منها من معلومات كانت بخيلة بها إلى حد كبير، الصبر يا خالد..

- مالك يا خالد! ألست سعيدًا بما حققناه؟

- لا أبدًا، الأمر أنني أشعر بالتوتر قليلًا فهذه لحظات حاسمة.

ضرب على كتفه وهو يمسك بكأس نبيذ احتفالًا بما حققه على ما يبدو:

- الساعات القادمة ستجلب لنا النصر وسنرتقي إلى سلم الحكم حيث ننتمي وحيث نستحق، انظر إلى الفئران لقد هربوا جميعًا وتركوا خلفهم قصورهم لنسكنها من بعدهم، ماهر الكرواتي بكل جبروته هارب الآن من العدالة، وفي أحسن أحواله سيتشرد ويتيه في أرض العرب.
- ماذا إن وجدناهم؟
- دع الشعب يقرر، وانظر إلى إبداعه في هذا.

ثم أطلق ضحكة مجلجلة وهو يتابع:

- صدقني قد يأكلونهم أحياء.

كان مبتهجًا إلى أقصى الحدود لكن دخول ريان عليهما أفسد عليه فرحته وهو يخبره بأن هناك بعض الأمور المقلقة، وأن هناك عددًا كبيرًا من المتظاهرين يطالبون بظهوره أمام العلن، وأن صفحات التواصل الاجتماعي مليئة بالأخبار التي تقول إنه ليس أكثر من إشاعة أو أسطورة غير موجودة وإنها وإن كانت موجودة فإنها غائبة وليست بينهم، هذا عدا عن تلك الإشاعات التي روج لها أتباع النظام ومدسوسو الجيش.

هز عدنان رأسه متوعدًا:

- لقد طعنتني ابنة الكرواتي في ظهري، وسرقت مني بعض أضواء الثورة التي ما كانوا يفعلون شيئًا تحت رايتها من دون أن ينطقوا فيها باسمي، لكنني أقسمت أن تدفع الثمن.

ابتسم ريان وبرقت عيناه موضحًا أنه يحمل إليه بشرى، فاقترب منه عدنان وهو يقول: «هاتِ ما لديك يا رجل»، أخذ ريان نفسًا عميقًا:

- إننا دومًا هنا لنعيد إليك مجدك، ونثبت لمن في صدره ذرة شك تجاهك بأنك أشرف رجال أرض العرب»، ثم همس لعدنان: «لقد عرفت مصادرنا إلى أين هرب الكرواتي وزوجته».

رقص قلب عدنان وطرب ثم ابتسم بمكر وهو ينظر إلى ريان الذي كان يوضح له حدود المكان ويغزل في رأسه خطوته القادمة، ثم عكف على ورقة وقلم وأخذ يكتب كل ما يمليه عليه رأسه الذي رسم طريقًا جديدًا منذ تلك اللحظة، وحين أنهى ما لديه صعد إلى الأعلى متوجهًا إلى غرفة سارة وهو يحدث نفسه بأن اللحظة قد حانت ليفعل شيئًا أمام الشعب الثائر الذي يتساءل عن دوره الحقيقي، فقد ضاقت الأمور عليه كثيرًا مؤخرًا. وما إن وصل وفتح الباب حتى هبت واقفة في حالة خوف ودفاع، أمسك عدنان بشعرها وشده إلى الخلف قائلًا:

- والآن أيتها المتمردة،عليك إصلاح الخطأ الفادح الذي ارتكبتِ، وستفعلين ذلك برضاك أو من دونه.

كانت سارة ترتعد أمام عدنان، إنه يخيفها إلى أبعد الحدود، صورته المرتبطة بذهنها لم تعد تذكرها إلّا بما أصابها وأصاب أرض العرب من دمار، أومأت برأسها موافقة من دون أن تدري حتى ما الذي يطلبه، فقد باتت تعرفه جيدًا الآن، إنه يحصل على كل ما يريد ولا يستسلم، ما كانت لتقف أمامه وهو بكل قوته وهي في غاية ضعفها، طلب أن تمشي

أمامه بهدوء فمضت معه من دون أن يقول أحدهما شيئًا، ثم صرخ في المربية وما كادت تأتي حتى طلب أن تأخذها للاغتسال ثم أمرها بأن تضع عليها أفضل ما لديها من ثياب، ووضع بعض مساحيق التجميل لإخفاء معالم الإرهاق على وجهها.

بعد أن اغتسلت سارة حاولت المربية أن تضع لها بعض مساحيق التجميل إلّا أن سارة طلبت منها أن تفعل ذلك بنفسها، فهي لا تدري إن كانت هذه المرة الأخيرة التي ستضع بها شيئًا من هذا على وجهها، كانت الأنواع بين يديها رديئة جدًا إلى الحد الذي ما كانت ستبدو معه جميلة أبدًا، لذلك قررت الاكتفاء بقليل من التحسينات أسفل عينيها وبعضِ الكحل وأحمر الشفاه وما إن بدأت بوضع القليل منه على وجهها حتى تذكرت مصففة شعر أمها، كم تشتاق إلى تلك المرأة البغيضة وإلى ذلك اللون الأحمر القاني، كم تشتاق إلى اليخت وإلى والدها وإلى فادي. لبست أحد فساتينها وخرجت إليهم مع مربية أطفالها التي أعلنت لعدنان بأن السيدة سارة على أتم الاستعداد، و حين رآها ابتسم:

- كدت أنسى كم أنك جميلة.

ثم طلب منها أن تدخل إلى الغرفة التي أمامهما وأن تجلس على الكرسي أمام الكاميرا ففعلت من دون أن تقول شيئًا.

اقترب منها، ثم دار حول الطاولة أمامها وتناول ورقة كانت فوقها وقال بهدوء:

- لقد قمتِ بعمل كان من المفترض أن أقتلك بسببه، لكنني سأكون رحيمًا وسأطلب منك طلبًا بسيطًا واحدًا عوضًا عن ذلك وهو أن تقرئي هذه الورقة أمام الكاميرا، ولن أطلب منك رسم ملامح الأسى فهي واضحة تمامًا على وجهك من دون أن تصطنعيها، لكنني أريدك أن تقرئيها وأنت تصدقينها، ثم ناولها الورقة التي أخذتها وبدأت تقرأها سريعًا بعينيها قبل أن تتوقف وترفع عينيها إليه:
- هل تريد مني أن أقول هذا؟
- ما رأيك أنتِ؟
- هذه تصريحات كاذبة وعارية من الصحة.
- وهل كان والدك يستشيرك في إدارة أموره السياسية؟
- لا، لكن هذه الأخبار ملفقة بالتأكيد، لا يمكنني أن أقول هذا الكلام عن والدي، لمَ لا تقوله أنت فالناس يصدقونك أكثر على أي حال.
- نعم إنهم يصدقونني بالطبع، لكن الحديث عن ماهر الكرواتي على لسان ابنته هو أمر لا يضاهيه شيء للطعن في الحكومة السابقة وإعادة مصداقيتي إلى مكانها بعد أن زعزعتها في قلب هذا الشعب.

نظرت إليه متوسلة:

- أرجوك، لا تفعل هذا بي.

سحب عدنان كرسيًا من حول طاولة الاجتماعات ووضعه أمامها قبل أن يميل بجذعه إلى الأمام ويقول:

- اسمعي أيتها الوضيعة، ستقرئين هذه الورقة سواءٌ رغبت بذلك أو لا، ستقرئينها لو اضطررتُ لتحريك لسانك وخنق حنجرتك بنفسي، وإن ظننتِ أنني لا أستطيع إجبارك على ذلك فاعلمي أنني على استعداد أن أعذبك عذابًا لن يشعر بناره سواك، ثم اقترب أكثر وهو يقول: سأذبح ولديك أمامك وببطء.

أصابها من الذهول ما شعرت أمامه أنها لا تستطيع أن تقول شيئًا، كيف لهذا الوغد أن يذبح ولديه! بالتأكيد هو يكذب، ولا يمكنه فعل ذلك أبدًا، نظرت إليه بدهشة:

- إنّهم ولداك!

- لا بأس! التضحية واجبة من أجل تحقيق الحلم، بعد أن تنتهي هذه الزوبعة وأجلس على كرسي الحكم سأتزوج بأخريات وأنجب عشرة أولاد، لا تكترثي بي الآن واقلقي على حياتك وحياة ولديكِ واقرئي هذه الورقة بهدوء.

ثم التفت إلى أحد رجاله وأمره ببدء التسجيل فعد الرجل حتى الثلاثة وبدأ بالتسجيل:

أما سارة فقد أمسكت الورقة بين يديها وأخذت تقرأ بصوت خفيض وعينين لا ترتفعان عنها وقالت:

- « أيها الشعب العظيم، أيها الثائرون لحريتكم.».

لكنها توقفت حين صاح عدنان بالرجل ليوقف التصوير واقترب منها ووضع وجهه أمام وجهها ليخيفها:

- أكنت تظنينني أمزح وأنا أقول بأن حياتك وحياة طفليك في خطر؟

نظرت إلى عينيه برعب قبل أن يصيح في رجاله:

- أحضروا الطفلة.

لكنها أمسكت يده متوسلة وهي تقول بأنها ستعيد القراءة كما يريد، فصاح بها وأخبرها بأنه يريد من صوتها أن يكون ثابتًا وواضحًا ومرتفعًا، وعلى عينيها أن تنتقلا بين الورقة والكاميرا ولن يكون هناك فرصة أخرى لها إن أخطأت، ثم أشار إلى الرجل الذي عد حتى الثلاثة وبدأ التصوير وانطلقت سارة تقرأ الورقة كما طلب منها تمامًا:

«أيها الشعب العظيم، أيها الثائرون لحريتكم. لقد خرجتُ إليكم بهذا الخطاب الذي لطالما وددت أن أطلقه إليكم، لكنني كنت دومًا أتردد لأنني خفت أن لا يغفر لي الماضي القذر الذي كنت قد عشت فيه والذي شرب من دمائكم وأكَلَ ما أكَلَ من أموالكم، إلّا أنني اليوم أطلب رحمتكم لأنني خرجت من ذلك الماضي، وكان مَن أخرجني مِن ضلالي هو الثائر والقائد عدنان الوالي، والذي نسي كل فوارق الشرف بيننا وقبل بي زوجة رغم تاريخ عائلتي الأسود وقد أنجبت منه طفلين خُلقا على روح الحرية والعدل والمساواة، وكم نفخر أنا وعدنان بذلك.

أنا سارة ماهر الكرواتي، أنا تلك التي هاجمت رجال الأمن يومًا، وأنا التي نشرت الكثير من فضائح الحكومة على مواقع التواصل الاجتماعي لكي تصلكم الحقيقة وتحرك فيكم روح الثورة المزروعة في نفوسكم جميعًا، وأنا التي تركتْ الفساد والفاسدين واختارت أن تعيش بين الشرفاء ومع زوجها القائد عدنان الوالي...».

في تلك اللحظة كان خالد قد حضر إلى الغرفة، واتكأ على إطار الباب يستمع وهو ينظر إليها يكاد لا يصدق ما وضعها عدنان فيه، كم تملؤه الشفقة عليها وهي تضطر إلى أن تقول هذه الكلمات مكرهة أمام الشعب كله حتى يستطيع عدنان خداعهم والسيطرة على عقولهم من جديد، نقل بصره إلى عدنان، هذا الوغد الحقير كم يتمنى أن يقتله بطلقة واحدة يفرغها في رأسه فينتهي هذا الكابوس الذي يحياه، لكنهم يحتاجون إليه ليتخلصوا من كابوس أكبر أصاب البلاد وأهلها سنوات طويلة، هنا لا مكان إلّا للصبر في نفسه، أملًا في أن ينجحوا في التخلص من رؤوس الشر جميعهم بما في ذلك عدنان نفسه، هذا ما يكرره خالد لنفسه كل يوم بل و كل ساعة. كان صوت سارة يصدح في المكان، ورغم تهديدات عدنان إلّا أن الرجفة في صوتها كانت تظهر أحيانًا قبل أن تتمالك نفسها لتعود إلى ثباتها، لكنها وأثناء ذلك كله توقفت فجأة، فوقف عدنان في غضب وهو يصيح فيها: «ما الذي يجعلك تتوقفين أيتها السخيفة المعتوهة؟». لكن سارة بقيت تنظر إلى الورقة لا تقول شيئًا، في حين اقترب عدنان منها ورفع سلاحه نحوها

وهو يقول: «ستنطقين بتلك الكلمات كالطفلة المطيعة وإلّا فسأجعل هذه الرصاصات في هذا المسدس تعشش في جسدك حتى يتعفن».

لكنها رفعت عينيها إليه وهي تقول بخوف وتصميم: «لن أفعل»، هنا فقد عدنان عقله وسحب مشط المسدس استعدادًا لأن يطلق رصاصة في إحدى قدميها ثم أطلق رصاصته بالفعل، لكن يد خالد كانت قد سبقته إلى يده ورفعتها إلى الأعلى لتستقر الرصاصة في السقف، ثم نظر إلى سارة وهو يقول: «ستقول كل شيء كما يجب عليها أن تفعل، فهي ليست غبية لتنهي حياتها هكذا فطفلاها يحتاجان إليها وهي لا تريد أن تمضي الوقت هنا برصاصة تستقر في جسدها». أنزل عدنان الوالي كفه وهو يقول: «من الجيد إذًا أن تنطق قبل أن أطلق الرصاصة القادمة في رأس طفلتها».

نظر خالد إلى سارة يحثها على قراءة الورقة، أما هي فكانت تستجديه بأن يخرجها مما هي فيه وهو قرأ ذلك في وجهها وعينيها لكنه يعلم تمامًا أن هذا غير ممكن إطلاقًا.

أعطى عدنان الرجل الإشارة فبدأ الرجل التصوير من دون أن يعدّ هذه المرة:

«سأفصح عن مكان والدي ماهر الكرواتي، لكن قبل أن أخبركم بذلك وقبل أن تقبضوا عليه أريدكم أن تتذكروا جرائمه البغيضة التي قام بها، والتي سأعدّ القليل منها فقط، فعلينا أن لا ننسى أن ماهر الكرواتي

وكل من يشبهه سلبوا أرض العرب ثرواتها وكرامتها وأبناءها، لقد ضلّلكم هو وحكومته وتجاهلوا قضاياكم، وضربوا بإنسانيتكم بعرض الحائط، ولأزيدكم من الشعر بيتًا فإن ماهر الكرواتي كان هو المسؤول الأول في الحكومة عن التجارة بأعضاء أبنائكم وبيعها خارج البلاد، وأنا تركت كل هذا لأنني لم أستطع إلّا أن أقف مع الحق هنا مع هذا الرجل المخلص الذي يدعى عدنان الوالي. أيها الشعب العظيم، إنَّ على هذه الحكومة أن تدفع ثمن ما مارسته من سلب ونهب وتسويف وخداع وتخدير لكم، وها هو الانتقام أمامكم، لا يفصله عنكم سوى بضع كلمات سأقولها الآن». هنا لم تستطع سارة إلّا أن تبكي، لم تستطع أن تنطق من دون أن تغلبها دموع الندم والأسى والأسف، إلّا أن عدنان أشار بذراعيه كأنه يهز طفلًا صغيرًا ثم أشار إلى مسدسه الصغير كطريقة لتذكيرها بتهديده، فتابعت من دون أن تتوقف دموعها: «إن ماهر الكرواتي وزوجته موجودان في أنفاق الصحراء الجنوبية قرب الطريق ستة وتسعين، إلى الشمال من قبائل الدارسي، هناك جدوهم وحاكموهم كما شئتم، فاليوم لكم الحق في القصاص وأخذ حق كل من مات ولم يتم الأخذ بثأره، دمتم أحرارًا وثوارًا للحق».

وعندما انتهت انهارت تمامًا، في حين صفق لها عدنان بقوة، ونظر إلى خالد الذي كان حقده قد تضاعف عشرات المرات بعد المشهد الاخير، وقال:

- الآن سننتقل جميعًا إلى الأحراش، ما عاد هناك من داعٍ لبقائنا

هنا، ولا يمكننا أن نظهر جميعًا ولا أن نتفرق ونحن لا ندري على ماذا ستستقر البلاد، بعد ذلك عليّ الخروج إلى الثوار، لقد انتهى أمر الحكومة وعلينا أن نبدأ بالخطوة التالية وهي الظهور.

ثم التفت إلى أحد رجاله وقال وهو يشير إلى سارة:

- كافئوها بوجبة لذيذة ودسمة قبل أن نرحل الليلة، إنها تستحق ذلك.

في المساء وقبل رحيله عن القلعة دخل عدنان إليها، أشاد بحسن ما صنعت اليوم، وأشاد بجمالها ثم اقترب منها، كانت رائحته لا تطاق حتى كادت تتقيأ، رجعت عنه إلى الوراء لكنه أخذها عنوة، بعثر روحها المكسورة تمامًا كما بعثر خصلات شعرها بين يديه، أما هي فكانت له تمثالًا باردًا حزينًا فارغًا، تركها بعد أن انتهى من تحطيم روحها عن آخرها وغاب.

**

-١١-

كان بعض رجال عدنان قد توزعوا بين الثوار على اعتبار أنهم رجال عاديون خرجوا من بيوتهم إلى الشارع في الثورة، وكانوا قد بدأوا يخبرون الثوار مِن حولهم عن عدنان الوالي، يعيدون ما لقنهم على أنها خطابات كان يقولها في الثورة، ويمثلون كذبًا بطولاته في الميدان، قال الثوار بعضهم لبعض إنهم لم يروه قطّ، وآخرون قالوا إنه لم يكن بين الثوار، إلّا أن رجال عدنان كانوا قد بدأوا بوصف الأماكن التي كان يرتادها، وكيف أنه لم يختر مكانًا واحدًا ليكون فيه، وأنه كان كل يوم في مدينة أو في حي مختلف، كذبوا ودلّسوا وحاكوا ما حاكوا بدقة قبل أن يسألهم الناس أين هو اليوم إذًا، فقد كان متخفيًا خوفًا من أن يطيح به جواسيس النظام، لكن النظام سقط وإن كان من وجود لعدنان الوالي فعليه بالظهور، مضت أيام قليلة على هذه الأحداث قبل أن يظهر فيديو سارة التي أعلنت فيه عن مكان والدها وقبل أن يظهر عدنان في اليوم نفسه للجمهور، كان هذا كفيلًا جدًا بأن يجعله بطلًا قاهرًا للمستحيل في أعينهم، ومنذ اللحظة التي رفعه فيها أحد رجاله على الأكتاف وهتف آخرون باسمه صار لوجوده بين الثوار مفعول

السحر عليهم، وعاد إليه مجده الذي ضاع بين اختفائه عنهم وبين ما قامت سارة على نشره بمساعدة مجهولين، كم تمنى وهو على أكتافهم أن يعود بالزمان ثلاثين سنة إلى الوراء ليقول لذلك الطفل البائس على الطريق عن المجد الذي ينتظره، كم يتمنى أن يعود ليهوّن عليه وجعه وخوفه، دقيقة واحدة تجمعه معه ستكون كفيلة بدب الأمل في البؤس وفي الظلمة التي ملأت قلبه حينذاك، كم يشفق عليه كأنه قد تركه هناك على حاله، يتراكض خلف الأغنياء يطلب قوت يومه، يتمنى اللحاق به ولا يستطيع، يريد أن يأخذه إلى هذه اللحظة قبل أن يكتمل الوجع في قلبه، يريد أن يخطفه ثلاثين عامًا إلى الأمام، ليستمع إلى الشعب الذي يصيح باسمه كأنه نبيّ أو ملَك نزل من السماء، ما كان لهذا الطفل أن يتألم إن عرف ما سيكون عليه غده، كان سينظر في وجه الحياة و يقول: «هاتِ ما لديك لأريكِ ما لدي».

في ذلك الوقت كان مَن في القلعة جميعهم قد انتقلوا إلى الأحراش، وأُخليَت القلعة تمامًا من كل متعلقات عدنان ورجاله، طوال الرحلة إلى هناك وسارة تبكي ما فعلته بوالديها، تندم أشدّ الندم أنها صدقت عدنان، وتمنّت بعمق أن تستيقظ فوق سريرها على أنغام دقة أدهم على الباب أو على رائحة قهوة صفية، وما إن وصلت مع الجميع إلى الثكنة التابعة لعدنان، لم تصدق سارة ما تراه، إنه معسكر بحق! ضخم وحقيقي، وكان هناك رجال في كل مكان في زي عسكري موحد، يتحركون بترتيب كأنهم حواسيب مبرمجة، وآخرون يتدربون بقسوة، تبدو أجسادهم قوية ومرنة، تذكرت ذلك اليوم الذي التقت فيه

عدنان كيف أنها أعجبت تمامًا ببنيته، وكيف قارنتها ببنية فادي الممتلئة شحمًا، كم خانها النظر! ففادي على إجرامه ما كان ليحرمها أطفالها! ما الذي تفكرين فيه يا سارة، أتتمنين اليوم لو كنتِ مع فادي! كفي عن خيبتك، فكلاهما علقم، تنهدت وهي تمضي حيث يسبقها ريان هي ومن معها، بعض الرجال كانوا يعرفون المكان فراحوا إلى أماكنهم وبعضهم الآخر مثل خالد وسارة لا يعرفون عن متاهاته شيئًا، مضت معهم فدلّ ريان الطبيب على كوخه، وبعض الرجال على خيمهم، و كذلك النساء، ثم وصل كوخًا صغيرًا يبعد عن بقية الأكواخ بشكل ملحوظ، له نافذة صغيرة جدًّا تكاد لا تدخل طائرًا، وأمرها أن تدخل إليه، كان بابه أكثر سماكة ومتانة من بقية الأكواخ، وكان يحتوي سريرًا وحمّامًا بلا جدران، لا شيء آخر مما رأت في الأكواخ الأخرى التي احتوت خزائن وأدراجًا وأغطية ومغاسل ومرآة ومعدات شخصية كفرشاة وصابون وغيرها، أشار ريان إلى سارة بأن تدخل الكوخ ففعلت، ثم نظر إلى خالد: «ممنوع عليها مغادرة هذا الكوخ وعليك أن تتابع هذا بنفسك!»، همّ خالد بالاعتراض، إلا أنَّ ريان أخبره بأن هذه أوامر عدنان حتى يعود، ثم أغلق الباب وأقفله من الخارج بالمزلاج الخشبي المثبت فيه وقال لخالد:

- لا يفتح لها الباب إلا من أجل إدخال الطعام والشراب! عدا ذلك فإن الأمر سيعود إلى عدنان.

شعر خالد بالامتعاضِ، فهو لا يريد أن يمضي الوقت في هذه

الغابة خلف باب امرأة يخاف سيده أن تهرب! ولا يريد أيضًا أن يجعل خلف بابها رجلًا آخر، كانت خيمته ملاصقة للكوخ، هدأ وهو يقنع نفسه أن باستطاعته إلى جانب هذا أن يكمل عمله كالمعتاد حتى يعود عدنان إلى مركز تدريبه هذا في الأحراش.

أما هي فجلست على حافة السرير، ونظرت إلى الجدران الخشبية التي صنعت بمهارة من أغصان الأشجار، والسقف المنحني فوق رأسها يكاد يلتقي حيث سريرها المنزوي على أحد أطراف الكوخ، رجعت إلى الخلف ووضعت ظهرها على الفرشة التي كانت رديئة الجودة ورقيقة جدًّا، تعطي شعورًا مزعجًا أكثر منه مريحًا، ثم مدت قدميها وحملقت في السقف طويلًا وبكت بحرقة؛ ها أنتِ اليوم على الطرف الآخر من العالم يا سارة فهل أعجبك! إنّ هذا الطرف تمامًا كذلك الذي يقابله، لا شيء فيه واضح المعالم، يمتزج تحت رايته الكثير من الشر، أقلّه يا سارة كان لكِ شيء هناك، كنت كريمة كاملة. وضعتْ كفّيها على رأسها كمن يندب حظه، ترى ماذا سيحصل لوالديها، هل سيستطيعان الهرب، أم أن الشعب سيقبض عليهما ويحاكمهما، أم تراه لن يمنحهما هذا الخيار وسيقتلهما حيث يجدهما؟ تلفتت حولها، قامت ودارت تبحث عن شيء حاد، تتساءل وتجيب محاورة ذاتها؛ ترى عمّ تبحثين يا سارة! عن شيء تقتلين به نفسك؟ نعم. بقيت تتفقد كل شيء بعينيهاعلّها تجد شيئًا فلم تجد، عادت واستلقت قبل أن تعيد استنكارها لذاتها؛ بهذه البساطة يا سارة قمتِ تبحثين عن شيء تقتلين

به نفسك كمن يبحث عن كأس ماء ليشرب أو عن قلم ليكتب؟! نعم بهذه البساطة، إن الرغبة في الموت الآن طاغية ومنطقية فلا خوف ولا توتر أثناء التفكير باستحضاره.

بعد عدة أيام، أمسك عدنان الذي انضم إلى رجال الثورة بالحاكم، كان رجاله يتحرّون عن مكانه منذ اليوم الذي هرب فيه، ولأن عدنان يريد أن يظهر للشعب بمظهر المتحضر العادل فقد طالب أن تتم محاكمته محاكمة عادلة من دون أن يسمح لأحد من الرجال أن يمسّه بسوء، ثم طالب بتشكيل لجنة مكوّنة من موظّفي المتاحف لفتح الكنوز المغلقة في بيوت رجال الحكومة الفارين، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد ما تعرضت له المتاحف في الثورة من نهب وما أصابها به القصف من خراب، ودعا الشعب إلى محاربة كل أنواع السرقات التي بدأت تظهر خلال الثورة وبعد سقوط الحكومة، أو التنقيب غير الشرعي عن الآثار التي صارت فريسة سهلة بعد سقوط الحكومة.

**

طرق خالد الباب، فاعتدلت سارة جالسة على سرير الأسر، دخل وبيده صينية فوقها طعام، وضعها على حافة السرير، ثم سألها إن كانت تريد شيئًا، نظرت إليه بارتياب:

- أنت من أخبر عدنان أليس كذلك؟
- وماذا أقول له؟ لقد أوصلتُ بنفسي رسالة من زوجتك ضدك إلى شباب الثورة!

- لا. لكنك وجدت طريقة ما لتحذره بأن لديه خائنًا ما من دون أن تبوح باسمه.
- ما كان عليكِ أن تقولي شيئًا، لقد نبّهتك.
- وأحمل ذنب الرجل إلى يوم القيامة؟
- الرجل خائن يا سيدتي وليس لمصلحة طرف ما، إنه خائن من أجل المال وحسب.
- وكيف كان لي أن أعرف ذلك! ولو عرفت ما كنت لأحمّله ذنبي.

دار خالد بعينيه في المكان وسألها إن كانت تحتاج إلى شيء محدد لكنها قالت مستجدية:

- أخرجني وطفليّ من هنا مقابل أي شيء تريده. ثم أضافت مهددة: إن لم تفعل أقسم بأنني سأقتل نفسي.

نظر إليها وقد تذكر السجان أمام زنزانته يدعوه أن يقتل نفسه بشفرة لا يدري كيف قُدّر لها أن تدخل السجن، احتقر نفسه حين شعر أنه يشبهه بطريقة أو بأخرى، وأشفق على سارة التي ما زالت تظن أن لحياتها قيمة في مثل هذا المكان.

- لا أستطيع.
- سأجعل الأمر يبدو وكأنني هربت.
- عدنان ليس غبيًّا، إنه أذكى منا جميعًا وسيدرك تمامًا أنني قمت بإخراجك.
- أنا أعلم أنك تخون عدنان، سأخبره إن لم تخرجني من هنا.

- جيّد! عندها سيحتجزنا معًا أو يقضي علينا معًا.
- أحضر لي طفليّ إذًا!

تلفت في الغرفة متجاهلًا عاجزًا عن فعل ما طلبته:

- أتقرئين الكتب؟
- تحدث لي بما أسألك، ما الذي أتى بأمر الكتب الآن؟
- الكثير من الحقيقة مُضنٍ، نحتاج دائمًا إلى شيء من الوهم لنعيش، رأيتُ مكتبة صغيرة هنا، سأحضر لك بعض الكتب لتقرئيها حتى نرى ما ستؤول إليه الأمور، وحتى ذلك الحين كوني هادئة، وقبل أن يهمّ بالخروج سألته:
- هل تعتقد أنهم سيقتلون والدي؟

كم يتمنى خالد ذلك، إن موت الكرواتي من دون شك سيثلج شيئًا من نيران صدره:

- لا أدري! لكنهم وجدوا الحاكم وهو يهمّ بالمغادرة بطائرة خاصة، وعدنان فضّل أن يُحاكم محاكمة عادلة وهذا ما فعله الشعب نزولًا عند رغبته، ربما هذا ما سيحدث مع والدك إن استطاعوا القبض عليه.

تهللت أساريرها وهي التي تتمنى أن يستطيع والدها الفرار، اطمأنت قليلًا تجاه ما يمكن أن يحدث لو أمسكوا به، فما الذي سيجعلهم يقتلون أباها إن كانوا قد قرروا أن يحيلوا حاكم البلاد إلى القضاء، ارتاحت للفكرة ولم تحاول أن تغايرها.

**

ما إن عاد أوس مساء إلى منزله المكون من غرفتين أضيف إليهما مطبخ وحمام خارجيان، حتى اختطفته أمه التي كانت كما يبدو تنتظره عند الباب، وجذبته من يده بقوة وأخذته إلى المطبخ وقالت موبخة: «ما هذه المصيبة التي أتيتَ بها إلى بيتنا؟»، وقبل أن يوضح أوس الأمر كانت قد أضافت لائمة: «نحن نجد قوت يومنا بمشقة، ونسعى جاهدين أن نزوج إحدى أخواتك الثلاث حتى يخف الحمل وأنتَ تحضر لي رابعة!».

- لا أهل لها يا أمي.
- و هل أجمع مشردي أرض العرب وأضعهم في بيتي؟

تحسس رأسها وقبّل جبينها: «إنها ضيفتنا لثلاثة أيام وبعدها أكون وجدت لها صرفة».

ثم دخل يبحث عنها فوجدها قد اغتسلت ولبست ثيابًا بدت عليها كبيرة المقاس بوضوح، تجلس بجوار أخته الكبرى لكنهما لا تقولان شيئًا، اقترب أوس قليلًا:

- هل أنتِ بخير الآن؟

هزت رأسها ببطء رغم شرودها الواضح، فتابع:

- كما فهمت فإنه لا أهل لك، ولهذا ستبقين هنا حتى تعلمي ماذا ستفعلين.
- لا يخلق أحد بلا أهل وإن بدا كذلك، لكنهم إما أضاعوه وإما أضاعهم.

كانت تتحدث ببطء كآلة تخاطب العدم.

نظر أوس إلى أخته الجالسة على حصيرة بجانب الفتاة ثم سألها إنْ كانت قد أكلت شيئًا، فأجابت بأنها وضعت لها طعامًا لكنها ما تذوقته، التفت أوس إلى الفتاة:

- سأحضر لك شيئًا لتأكليه.

إلّا أنَّها بدأت تموج إلى الأمام والخلف كأن شيئًا من التوتر الحاد لمس روحها:

- لم أكن وحدي، كان لي رفيقات، لكنني لا أعلم إن كانوا قد قتلوهن أم أعادوهن إلى الشارع؛ من جحيم إلى جحيم.

قال مشفقًا:

- أنا متأكد أن كل واحدة منهن وجدت طريقها، التفتي إلى نفسك الآن.

استكانت قليلًا ونظرت إلى الأرض وعقدت حاجبيها:

- كنت لآكل لحمي على أن أفرط فيه لهؤلاء، قالوا لي ستعملين مع فريق الخدم في القصر وأنا صدقتهم.

كان أوس وأخته ينظران إليها بذهول يمتزج بوجع وهي تموج بجسدها مجددًا وتكمل كمجنون يتحدث إلى نفسه:

«كانت أمي تقول: تموت الحرّة ولا تأكل بثدييها، وأنا متّ ألف مرة وهم يعبثون بجسدي، وُجّعت طويلًا رغم ذلك. مسكينة أمي كانت تظن أن على هذه الأرض حرائر».

عاد أوس ينظر إلى أخته كأنه يبحث في وجهها عن شيء يقوله ثم

قام وعاد إلى المطبخ يبحث عن طعام، وجد صحنًا فيه بعض الفريك وخبز، أخذه ومضى قبل أن توقفه أمه:

- هذا الطعام لك! لا يوجد غيره.
- لست جائعًا لقد أكلت في الشارع يا أمي.

كانت تعلم أنه يكذب وكان يعلم أنها تعلم، لكنه قالها حتى لا تثور مشكلة في البيت وهي صمتت للسبب نفسه، في الوقت الذي تلعن فيه داخلها الساعة التي دخلت فيها هذه الغريبة البيت.

وضع الطعام أمامها وجلس:

- لن أقوم من هنا قبل أن تأكلي شيئًا.

أكلت، ثم أمر أخته بإزالة الصحن من أمامها وبدأ يطمئنها بأن قصتها ستبقى طي الكتمان، وأنه ما من أحد في أرض العرب سيعلم بما أصابها، وأنه لم يظهرها إلى العلن في القصر حتى لا ترتبط ذكراها بهذا عمرها كله، لكنه أصيب بالذهول حين أوضحت له بأنها ترغب بالظهور إلى العلن وقصّ ما حدث معها إلى كل من يمتلك أذنًا تسمع وعينًا ترى.

- وماذا ستقولين للناس؟ وكيف ستحدثينهم بما أصابك.
- سأقول كل شيء، كل شيء.
- يا..، أنا ما زلت لا أعرف ما اسمك.
- ليلى.
- يا ليلى، أما الحاكم فقد قبضنا عليه، وأما ما ستقولين فلن ينساه الناس.

- ومن قال إنني أريدهم أن ينسوه!

نظر إليها أوس مذهولًا، هل تدرك فتاة كهذه معنى أن تقول ما ستقوله في أرض العرب! إنَّ العار سيلازمها ما دامت حيّة هي وكل مَن عرفها، إلّا أنه أجل مناقشة الأمر إلى وقت لاحق ثم غادر إلى الغرفة الأخرى، لكن أمرها أقلقه كثيرًا من دون أن يعلم سببًا لذلك، فأرض العرب مليئة بالمصائب، تقلّب في فراشه طويلًا قبل أن يغلبه التعب فينام.

**

كانت سارة منهمكة في قراءة كتابٍ ما حين دخل خالد من الباب الموارب حتى آخره لكنه لم يكن مغلقًا تمامًا، كان قد أخذ منها عهدًا ألّا تغادر المكان إلّا في حدود عدة أمتار لا تتعدى الخمسة أمام بابها، وأن لا يراها أحد من رجال عدنان الذين قد يقتلونها إن رأوها خارج الكوخ، وفعلًا بدا أن خروجها منه ومطالعتها لبعض الكتب استطاعا إبعادها ولو قليلًا عن نفسها المتعَبة حد الانتحار، طالعها وبدت له من عالم مختلف لا يعلم هو ومَن مثله أو مثل عدنان عنه شيئًا، ويبدو أنهما لن يعلماه ولو عاشا عمرهما بأكمله تحت أسقف قصور فاخرة ومليئة بالذهب؛ كانت قد صنعت من أغصان الأشجار شوكة بشعبتين، وكانت بقايا الطعام في الصينية مرتبة بطريقة لا يمكن وصفها، طريقة جلوسها وحملها للكتاب وطريقتها في تقليب صفحاته.

- لا أدري يا ابنة الحلال ما الذي جمعك بعدنان الوالي.

رفعت عينيها عن الكتاب:

- لا يعرف أولاد الحلال أنّهم أولاد حلال حتى يلتقوا بأولاد الحرام، ثم إنَّ عدنان الوالي هو من سعى خلفي لأنني ابنة ماهر الكرواتي هذه هي الحقيقة رغم أنني كنت دائمًا أظن العكس.

- وما الذي يدبّ بابنة الكرواتي في سجون الدولة؟

أجابت متعجبة:

- وما الذي يدفعك إلى الظن بأنني كنت في السجن؟

نظر إلى عينيها نظرة بهت فيها الفضول الذي كان قد طفا على السطح للحظة:

- لا عليكِ.

- لقد خدعني بحلم العدالة وضرورة الانقلاب على الحكومة وإصلاحها وأوهمني بأنني لست واحدة منهم وأنا صدقته. ظننت أنني أستطيع أن أفعل شيئًا في هذا الوطن المريض، وأنني سأستطيع الانتماء إلى من هم أمثالكم.

- إنّه على حق، أنت لست واحدة منهم. ثم تابع: ولستِ واحدة منّا أيضًا.

ابتسمت بأسى:

- حقًّا! ماذا أكون إذًا؟

هز رأسه:

- لا أدري.

- كم أنا حمقاء، ليتني فقط أعود إلى إحدى تلك الليالي التي لم أكن أعلم فيها شيئًا عن كلّ هذا، نائمة في فراشي الوثير وإلى جانبي ذلك النور الذي ينتشر شعاعه الأزرق الهادئ خلف رسومات غطائه في الغرفة فيثير في النفس الراحة و السكينة، وفي الغرف المجاورة يغرق أبي وأمي وأدهم في نوم عميق هنيء ثم يأتي الموت وينهي حياتي هناك.

رفع حاجبيه كأنه معجب بما قالت:

- ما كنت لأعترض على ميتة مشابهة، في الواقع إنَّ أرض العرب كلها ما كانت لتعترض على ميتة كهذه، المعضلة تكمن في أنهم لا يعلمون شيئًا عن الأسِرّة الوثيرة والإضاءات اللامعة والنوم الهانئ، فأغلبهم فقراء ينامون تحت وطأة البرد أو الحر الشديدين، وأسَرِّتهم الأرض ومراتبهم رقيقة متهرّئة كالتي في كوخك وسيكونون محظوظين إنْ حصلوا على غطاء، أغلب الشعب فقد أحدًا من أفراد أسرته بسبب الإهمال الطبي للأمراض المنتشرة، أو فقدهم في السجون أو في الإعدامات المتكررة أو حوادث الخطف الجائرة، صدقيني لم يتبق فرد في أرض العرب لم يصله أذى هذا النظام. لقد كنتِ محظوظة أن حصلت على شيء من السلام لفترة فكوني ممتنة. على أي حال جميعنا يتمنى أن يعود إلى نقطة ما مرّت في حياته وينتهي هناك.

- ماذا فعلوا بك أيضًا؟

- ماذا؟
- يوم أخذت مني السلاح، قلت إنهم آذوك أكثر مما نرى.
- بالطبع آذوني أكثر مما ترين.
- بل كنت تقصد شيئًا بعينه.

صمت ولم يقل شيئًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لم لا تخبرني؟
- لأنني لا أرغب بذلك.
- تحدّث إليّ أنا أحتاج التحدث إلى أحد.
- تحدثي إلى نفسك.ثم أردف: من دون صوت.
- أنا جائعة.
- اقترب موعد الطعام، عودي إلى كتبك وسأحضر لك شيئًا بعد قليل.

خرج واتكأ إلى جانب باب الكوخ وهو يحاول أن يلتقط ما صدح به اللاسلكي الذي يحمل صوت ريان يخبر رجاله بآخر أخبار عدنان في العاصمة، ويطالب المسؤولين عن المخازن باستلام شحنة من السلاح والذخيرة وحفظها فيها.

- الوغد.

قالها خالد وصوته يحمل الكثير من المقت.

جاءه صوتها من الداخل:

- إن كنت لا تحبه لِمَ تعمل معه إذًا؟
- ما علاقة محبتي له بالعمل معه؟

- إنه يشتري السلاح ويقاتل به أيضًا فلمَ تعمل في صفّه؟ ألم تقل إن الأمور لا تسير هكذا؟
- قلت كيف يجب أن تسير الأمور ولم أقل شيئًا عن كيفية سيرها فعلًا.
- إذًا فأنت هنا تحارب في صف شخص لا تحبه ولا تؤمن بطريقته.
- أنا أحني رأسي للعاصفة حتى تمرّ.
- تعترف إذًا بأنك تخونه.
- أنا مخلص للثورة.

اقتربت من الباب هامسة:

- إن قلت لك شيئًا هل ستخبر عدنان بأنني قلته؟
- إنْ كنت تخافين أن أقوله فلا تقوليه.
- أنا أحتاج أن أقوله لأحد، لكنه قد يقتلنا معا إن علم بأنني أخبرتك.
- بماذا؟
- هل ستقول شيئًا؟

التفتَ خلف ظهره ونظر إليها وسكت برهة ثم أجاب:

- لا.
- عدنان وغد أكثر بكثير مما تظن. لقد كان يتاجر في الأعضاء البشرية وكان ذلك يشمل الأطفال.

هز خالد رأسه نافيًا:

- مخطئة! الحكومة هي من كانت تفعل هذا.

نعم صحيح، الحكومة كانت تشاركه في ذلك أيضًا، لكنّ عدنان هو من كان يطلب الأعضاء التي يحددها زبائنه في الخارج؛ تأخذها الحكومة ممن يغيّبون في السجون قسريًّا أو ممن يموتون تحت التعذيب أو من خلال خطف أشخاص بعينهم من أجل ذلك.

شعر بالنار تشتعل في عروقه لكنه حاول ان يتمالك أعصابه و يهدئ من روعه في محاولة أن يفهم:

- كيف تعرفين ذلك؟
- فادي!
- فادي؟
- ابن رئيس الوزراء السابق.
- حقًّا! وكيف علم فادي بهذا؟
- فادي كان الطرف من الحكومة وبالطبع لديه الكثير من الرجال.
- وهو أخبرك بأمر عدنان؟

اقتربت من الباب أكثر وخطت خطوة واحدة خارج الغرفة قبل أن تستقر إلى جواره:

- لا، صدق أو لا تصدق سنوات من هذا العمل القذر والأموال الغارقة بالدماء وفادي وعدنان يشكلان القطبين الرئيسين في هذه العملية إلّا أنهما لم يلتقيا قطّ بل إنهما لا يعلمان أسماء بعضهما بعضًا، فلعدنان رجل وسيط ولفادي رجل مثله أيضًا،

طبعًا يحيط بهما الكثير من الرجال الذين يعملون كخلية النحل لكن كل طرف لا يعرف إلّا رجلًا واحدًا هو في الحقيقة أبعد ما يكون عن فادي أو عدنان، وحين يشعرون بأنه بات خطرًا عليهم يجري قتله واستبداله بآخر.

كان صدر خالد يرتفع و يهبط بسرعة:

- وكيف عرفت أنت كل هذا؟
- قصة طويلة لكنك تستطيع أنْ تقول إنَّ الأول كان يحبني وأنا أحببت الآخر.
- وهما أسرّا لكِ بذلك؟
- قلت لك لا! إنّها قصة طويلة، لكن القدر رسم لي أن ألتقي طفلًا في الشارع قبل أن يختفي لأجد صورته بعد ذلك على محمول فادي ثم أجد ملفه الكامل على طاولة عدنان ثم بعد ذلك استطعت أن أفهم بقية الحكاية وحدي.

كان رأس خالد يدور ويدور، وما تبقّى من أعصابه تُلِف على إثر كلماتها: إنّها حتمًا تكذب! لربما تعلم قصته وتعاقبه، التفت إليها ونظر بوجهه المشوّه إلى وجهها الذي لم يتوقف فيه فمها عن الشرح والتفصيل ثم صاح بها أن تتوقف.

**

تناقلت وسائل الإعلام المحلية جميعها افتتاح الاجتماع الأول الذي أقيم في العاصمة على طاولة اجتماع بيضاوية كبيرة، جلس على

رأسها عدنان جامعًا حوله رجالًا من القوى السياسية والمؤسسات العسكرية وممثلين لمعظم أحزاب المعارضة عدا القليل منهم، وعصبة من رجال الثورة الذين كان أوس أحدهم، كل فرد من الحاضرين جاء ممثلًا عن مجموعته محاولًا أن يعرف شيئًا عن الخطوة القادمة من أجل التغيير أو حاملًا معه ملفًا مليئًا بالأفكار والخطط المستقبلية المطلوبة من وجهة نظر حزبه أو مجموعته.

أمّا عدنان فكان يشعر أنه يتربع على عرش العالم، مُشبع الغرور مؤمنًا بأنه بدأ يسترد من الدنيا ما ارتكبت في حقه، افتتح تلك الجلسة بخطاب رنان يتحدث فيه عن أسس الحكم الرشيد والتغيير الحقيقي ورسم سياسات جديدة اجتماعيًا؛ حيث يجب نشر الديمقراطية الحقيقية والسماح بالمشاركة السياسية الفعالة والالتفات إلى حقوق الإنسان والعمل على تمكين المرأة، وسياسات اقتصادية أخرى تعالج إدارة الثروات وتقديم الخدمات بطريقة تليق بدولة جديدة مدنية تحترم جميع الأديان وجميع الانتماءات. بعد ذلك احتد النقاش بينهم جميعًا حول ما يجري من تدخل خارجي في البلاد، وأن الجيش قد أوقف إطلاق النار، وانسحبت الحكومة من المشهد وأنَّ هذا التدخل غير المبرر لا يمكن إلّا أن يُنزل المصائب على أرض العرب، وكيف أن البنوك المسيطرة عالميًا بدأت بالفعل ترسم سياسات اقتصادية جديدة لأرض العرب تحاول فرضها من خلال هذا التدخل الذي بات مشروعًا أمام العالم باسم نشر الديمقراطية وحماية المدنيين، لكنّ عدنان كان مصرًّا على أنَّ هذا التدخل لمصلحة البلاد وكان يعيد

تمامًا ما كان يقال من قبل دول التعاون أمام مجلس الأمن حيث قال بأن أرض العرب الآن بحاجة إلى حماية من كل مَن تسوّل له نفسه اختطاف ثورتها، وإنَّ هذه الأرض بحاجة إلى خبرات تلك الدول وإلى التعلم من تجاربها، كان كلامه منمقًا وسلسًا ومقنعًا بطريقة طرحه، حتى أن بعض الجالسين شعروا بضرورة إعادة تفكيرهم بما يقوله عدنان، إلّا أن بعضهم الآخر تمسك برأيه تجاه ما يحدث. فما كان من عدنان إلّا أن بدأ بتلميع السلطة في أعينهم وهو يعدهم بأن كل واحد منهم سيكون ذا شأن عظيم في القريب العاجل وأن الناس تعرفهم حقّ المعرفة، وأن الانتخابات ستجمعهم جميعًا أمام الشعب الذي سيشعر بالامتنان لاجتماعهم معًا على أمر واحد يَعِد بدولة حرّة ديمقراطية، وأنهم بعد ذلك سيملكون الحق في رفض التدخل الخارجي من أي دولة كانت، هزّ الجميع رؤوسهم وقد ابتلعوا طُعمه جيدًا.

كانت قوات التعاون الدولي قد دخلت سماء البلاد منذ مدة، وطوال ذلك الوقت كان عدنان وحده تقريبًا إلى جانب بعض وسائل الإعلام الدولية يطمئِنون الشعب بأنها قوات صديقة جاءت تخلص الشعب من آثار النظام، وتقصف بعض الخارجين على أطراف البلاد، انقسم الشارع إلى قسمين، واحد لا يصدق أتباعه شيئًا مما يقال، وآخرون يهتفون للتعاون الذي سيجلب الديمقراطية إلى هذه البلاد، وانقسمت آراء الناس على وسائل التواصل الاجتماعي حول هذا التدخل الخارجي لكنّ الكثيرين وقتذاك اعتبروه تعديًا، حتى انضمت وسائل الإعلام المحلية -التي كان بعض رجال الثورة المؤمنين بعدنان

قد سيطروا عليها- وبذلت مجهودًا حقيقيًا بإظهار هذا التعاون صديقًا يريد أن يطهّر أرض العرب من الجهل وأن ينقل تجاربه الحضارية إلى البلاد.

الحقيقة أنَّ هذا التدخل الجوي كان قد بدأ في الصحاري والمناطق النائية، لكن مع القليل من الوقت بدأت هذه الطائرات تقصف كل المباني والهيئات التابعة للحكومة، وكان كثير من الناس يكبّرون ويهللون لذلك ظنًا منهم أن هذه الطائرات تدمر هذه الحجارة من روح الطغيان الشريرة التي سكنتها، ثم بدأت الطائرات تقصف كل ما له علاقة بالدفاعات العربية أو المواقع الأثرية وما تبقى من المتاحف وتدّعي أنها أخطأت الهدف المنشود فتعتذر، وأحيانًا تتحجج بأن إحدى العصابات المسلحة تختبئ فيها، وبعد ذلك امتدّت ما تسمى بالأخطاء إلى منازل المدنيين، وارتقت الأرواح بصواريخ طائرات لا تعرف أرض العرب كانت تابعة لمن، أو من سمح لها بالتعدي على الحدود الجوية للبلاد، سقطت البلاد بالمعنى الحرفي، وبقي عدنان يصرّح للشعب المخدوع بأن الأمر لا بد منه للتخلص من كل أعداء الثورة، وأن قوائم الانتخابات ستعلن قريبًا من قبل المجلس الشعبي الذي يترأسه عدنان لتشكيل حكومة ينتخب فيها الشعب رجلًا يريد أن يبايعه ليحمي البلاد.

-١٢-

توقف الكون حول خالد أو ربما غيمة انفجار كوني جديدة تكوّنت في رأس هذا الرجل، جنَّ جنونه ثم ما لبث إلّا أن دفعها وزجَّ بها إلى داخل الغرفة وهو يصيح بوجهها متهمًا إياها بالكذب والتدليس وأنها تتلاعب به لكي تحطمه، أقسمت سارة بأن ما تخبره به حقيقة لكنه صرخ بوجهها يردّ عليها بما لا يدري، استنتجت من فورته أنه كان شريكًا في الجريمة مع هؤلاء القتلة وصرّحت له بذلك، بل وأشارت بأن دماء الضحايا جميعهم معلقة في رقبته تمامًا كما هي في رقابهما، هنا فقد خالد سيطرته حقًّا، كيف تجرؤ وتتهمه بأنه قتل أغلى ما منحته الحياة! رفعها من شعرها و غاب في موجة غضبه حتى أيقظه صوتها وهي تصرخ به «توقف أنت تؤذيني»، وما إن أبصرت عيناه حتى وجد وجهها مضرجًا بالدماء على إثر ضرباته، إنه حقًّا لم يتنبّه إلى أنه قام بذلك لقد كان غارقًا في غضبه إلى الحد الذي منع حواسه من العمل، لكنّه رغم ذلك وبوجهه المشوّه نظر إليها كأنها فراغ، ثم غادر وأقفل الباب خلفه وسار لا يدري إلى أين، ابتعد بين الشجر باكيًا تدور به الدنيا وهي تمدّ في وجهه لسانَها تغيظه وتنفي ظنه أن اعتقد أنه ذاق منها ما

يكفي وأنه لم يعد يفاجئه شيء فيها، غاص في الأشجار الكثيفة بعيدًا جدًّا عن أعين أحد، رأى أطفاله يتنططون بين شجرة وشجرة يلتقطون أعواد الأغصان ليبنوا فيها بيتًا أو أي شيء آخر، رأى أمهم وهي تنهرهم خوفًا من أن يقعوا، متى دُفن كل هذا العذاب فيه ولمَ نفض عن نفسه التراب هكذا فجأة! أتراه كان يكذب على نفسه؟ ربما كان يقول لنفسه إن ما حدث كان عملية سرقة عادية وإن بطون أطفاله المبقورة لم تكن سوى جريمة في عملية سطو لم تأخذ معها من أعضائهم شيئًا، أو أنه كان مؤمنًا بأن بعض الفاسدين من الحكومة قد قاموا بذلك وهو بطبيعة الحال يسعى إلى إسقاطهم والانتقام، لقد وضع له عقله سابقًا كل السيناريوهات التي قد تُهدئ من روعه، لكن ليس هذا! أيعقل أن يكون هذا الوضيع عدنان ضليعًا في موت أهل بيته أيضًا! إنه لا يحبه بالتأكيد ويؤمن تمامًا بأنه أبعد ما يكون عن الرجل الوطني الصالح، إنّه رجل حاقد متسلق كل همه أن يصل إلى الحكم حتى ولو حشد رجال الدنيا ليفعلها، لا يمكن لعاقل أن يصدق أنّه يفعل شيئًا مما يفعل من أجل هذا الشعب المقهور، لكنه في النهاية يعمل لما يعمل له الشعب والوطنيون حتى ولو كان يهدف بعد ذلك إلى استبدال ديكتاتور بآخر ربما أشد قسوة وأكثر تعطشًا للعظمة، إن عليه ومن معه أن يسقطوا الحكم بأيدي عدنان ورجاله ثم سرقته من بين يده وردّه إلى الشعب مرة أخرى، هو فقط يعتبره جسرًا أو مرحلة عليه أن يجتازها قبل أن يحقق ومَن معه شيئًا حقيقيًا لهذا الشعب، لكنه لا يمكن أن يتخيل أن

كِلى أبنائه وقلوبهم مرت من هنا لتذهب بأرواحهم إلى آخرين دفعوا ثمنها ليستحقوا الحياة أكثر منهم.

إنَّه لا يتذكر ذلك اليوم بوضوح، وهو في الحقيقة لا يريد أن يتذكر، إنه يلتهم من النسيان ما يملأ به بطنه حتى أنه أصبح هزيلًا لا يتسع جوفه إلّا لأقل القليل من الطعام، لكنه الآن يريد أن يتذكر، أو ربما حضرت ذاكرته من دون استئذان، لقد دخل ذلك اليوم منزله بعد غياب أسبوع كامل في العمل، لم تكن عائلته تعلم شيئًا عما يعمله خالد، ولا عن حزب المعارضة الذي ينتمي إليه، كانت تعلم أنه يعمل في المنطقة الصناعية خارج المدينة وأن عمله يحتاج منه أن يبقى هناك لفترات طويلة متواصلة لا شيء آخر، يومذاك استخدم مفتاح شقته كالمعتاد، كان منزله عاديًّا فخالد لم يكن فقيرًا وكذلك لم يكن بالغني، كان بيته في منطقة شعبية، سكانها بين معدمين وفقراء ومتوسطي الحال وربما أعلى من المتوسط بقليل، لكنها أبدًا لم تكن تضم غنيًّا واحدًا، فهو يعلم أن الأغنياء لا يقتربون أبدًا من هذه المناطق، حين لفّ المفتاح في باب شقته ذلك اليوم اشتم رائحة ما، لكنه تناساها للحظات وما إن دخل منزله حتى هبت رائحة الموت في وجهه فما استطاع إلّا أن يخرج مسرعًا ليفرغ شيئًا مما في جوفة في الشارع ثم يلتقط أنفاسه ويلف وجهه بقميصه بعد أن خلعه ويعود، كان كل شيء مظلمًا وما إن أشعل النور حتى رأى ما لا يحتمله إنسان لعدوه فكيف وهم أبناؤه وزوجته، لم يكن يذكر الكثير بعد ذلك لكن الآن تحت أشجار الغابة وفي الهواء

الطلق أصبح حضور الذاكرة مهيمنًا ، الآن يذكر جيدًا كيف كانت البطون مفتوحة والعيون جاحظة وكل ما تبقى داخلهم مترامٍ حولهم، لقد كانوا كأكياس قمح مفتوحة بمشرط حاقد، إلّا زوجته كان رأسها يغوص في بركة من الدماء ورصاصة واحدة استقرت فيه، لا شيء آخر، هو حتى اليوم لا يعلَم ما الذي حدث بالضبط، إنه بالطبع يدرك أن أبناءه قُتِلوا لتُؤخذ منهم الحياة وتُمنح لآخرين، لكنه لا يزال لا يعرف كيف تم ذلك، هل قتلوهم في المنزل في أحد الغرف مثلًا ثم أخذوا ما أرادوا وذهبوا أم أنهم قتلوا الأم وخطفوا الأولاد وأخذوا منهم ما أرادوا في مكان آخر ثم عادوا بجثثهم إلى المنزل من دون حتى أن يتكلفوا عناء خياطة ما فتحوه عن آخره أو حتى تغطيته بأي طريقة؟ هو لم يدخل ذلك المنزل قطّ حتى هذا اليوم، لا يعرف ما يوجد في غرفه ولم يأخذ منه شيئًا، بل إنه حتى لم يدفن زوجته وأبناءه الثلاثة، فقد أخذته الشرطة وتم اتهامه بعد أقل من ثلاث ساعات بأنه قتل زوجته وأبناءه ثم تم تحويله إلى التحقيق فيما يريده منه الأمن حقًّا وهو بالطبع شيء لا علاقة له بزوجته وأولاده، لكنه كما قال الضابط له ذات مرة أفضل مِن خطفه قسريًا، سنوات مضت طوى فيها العقل صورهم وأسماءهم، كان عليه أن يفعل حتى لا يجنّ، حين عاد إلى المكان بعد ذلك وجده مهدّمًا عن آخره، وبرج تجاري كبير أقيم مكانه، في البداية كان يتمنى أن يموت كل يوم تحت التحقيق حتى يلحق بهم حيثما كانوا، لكن حديد كان بارعًا دومًا، كان يوصله إلى عتبات الموت ثم يعيده، وهذه

التي رافقته عيناها في زنزانته بدلًا من زوجته وأولاده تعيد إليه كل تلك الذكريات مرة واحدة، بل وتقتله بأن أخبرته أنّ أجزاء من أولاده مرّت من هنا وقَبَض هذا الرجل الذي يعمل تحت إمرته اليوم ثمن أرواحهم، آه كم يرغب بالموت، لقد جاء إلى الدنيا من دون أن يسأله أحد ذلك، ألا يحق له أن يرحل منها حين لا يستطيع احتمالها أكثر؟ لو كان هذا امتحانًا حقًا فما أصعبه من امتحان! رفع عينيه إلى السماء يستجديها ثم من دون أن يدري عاد إلى باب الغرفة حيث سارة في الداخل، سمع منها صوتًا لم يفهم منه شيئًا ولم يرد في الحقيقة أن يفهم، جلس أمام كوخها ثم اتكأ برأسه على جداره ونام.

**

هاج الناس في الحي وماجوا، وتصاعد الدخان والركام معًا في الهواء الذي امتزج بنور الفجر وغطّاه ليرتفع صوت الصراخ الذي صدر من كل بيت في الحيّ سواء أصابته الغارة أم لم تصبه، اندفعت أم أوس خارج منزلها الذي تهدم جزء من شرفته العتيقة وزجاجه المتهالك وهي تولول وتصيح: «إنه بيت انتصار، ماتت انتصار ومات أطفالها». كانت تركض هائمة بين الدخان لا ترى شيئًا، تتعثر فتقع تارة وتتوازن أخرى، المسافة بين بيتيهما قريبة جدًا إلّا أنها شعرت بها طويلة تحتاج دهرًا للوصول، وما إن وصلت حتى كان البيت قد وقع على رأس مَن فيه، فأخذت ترفع الحجارة وتصيح بالناس الذين تجمعوا بأن ينقذوا من هم تحت السقف الساقط، اندفع الناس في محاولات شبه يائسة لإزالة

شيء من الركام علّ أحدًا ممن تحته قد نجا، إلّا أن المفاجأة كانت حين سمعت أم أوس صراخ انتصار الآتية من بعيد، فتوقفت عما تفعله تكاد لا تصدق عينيها، جلست سيدة الخبز أمام ركام البيت وغباره تنوح وتلطم أطفالها الذين دفنتهم طائرات الديمقراطية إلى الأبد وأخذت ترمي بالتراب أمامها على رأسها ووجهها، كل ما دار برأس أم أوس في ذلك الوقت كان حيرتها بين فرحتها بنجاة انتصار وحزنها على ذلك، ربما كان أكثر رحمة لها لو دفنت مع أطفالها على أن تراها محترقة القلب كما تراها الآن.

مرّ النهار على الحي، ما بين محاولة إزالة أنقاض البيت وإصلاح ما حوله من منازل متضررة بالمواد المتوافرة، ومواساة لا معنى لها يقدمها الأقارب والجيران لانتصار المكلومة، وعندما حلّ المساء كان أهل الحي قد دفنوا اثنين من أبنائها وبقي ثلاثة تنتظر جثثهم أن يتم انتشالها من تحت الأنقاض، عاد أوس الذي لم يكن يعلم شيئًا عن الذي جرى فوجد السيدة انتصار في منزلهم وعلم من أمه بالذي جرى، بكى قهرًا ثم حاول مواساة السيدة وذهب ليلقي نظرة على المكان، وشعر أمامه بغصة في حلقه كادت تخنقه، ليس هذا ما أقاموا ثورة لأجله، إنّه يعلم أن ما يحدث ليس لمصلحة أرض العرب أبدًا، لكنه لم يكن يدرك أن هذه الطائرات تهدم بضغطة زر واحدة ما قد يحتاج النّظام السابق سنوات ليهدمه، بدا له ما يحدث كحريق جاء في وقت حصاد، هذه البلاد تستحق أفضل من هذا، لقد صبرتْ طويلًا و سارتْ

في الدهاليز المظلمة حتى كادت تنسى حقيقة الدفء والشمس، وحين وجدت نورًا بعيدًا تتبعته لتجده نارًا!

عاد إلى المنزل متعبًا مرهق الروح يفكر أن يتحدث إلى عدنان والرجال غدًا، توقف عند الباب الذي تظهر خلفه السيدة انتصار وهي تنوح كما تركها، تلفّت في الغرفة التي كانت مليئة بالنساء المعزيات المواسيات، بحث بينهن عن ليلى لكنها لم تكن في أي مكان، أشار إلى أمه أن تحضر قليلًا، أخذها إلى الغرفة الأخرى وما إن سألها عن ليلى حتى صاحت في وجهه: « لا أعرف ولا أريد أن أعرف، هل هذا ما تفكر فيه الآن؟ ليت الغارة أخذتها وأراحتنا من همها بدل أن أخذت هؤلاء الأطفال الخمسة». نظر إليها أوس بعتبٍ غاضبٍ ولم يقل شيئًا، إنما عاد إلى الغرفة الأولى ونادى أخواته وسألهن إن كنّ لمحنها أو يعلمن أين من الممكن أن تكون، لكنهن ما رأينها منذ الصباح، جنّ جنونه ودار حول البيت عدة مرات، إنّ الليل يكاد يهبط وهي لا تظهر في أي مكان، جلس على رأس الطريق الترابية التي تؤدي إلى الشارع الرئيسي من الحي قبل أن تظهر بعد ساعة.

وقف حين رآها، وحين اقتربت سحبها من ذراعها بقوة وهو يسألها عن المكان الذي كانت فيه، إلّا أنها نظرت إليه بتعجب قبل أن تقول: «قد تكون حررتني، لكنك لا تمتلكني ولا شأن لك بي وبالمكان الذي أكون فيه». أفلت ذراعها وشرح لها مقدار الهلع الذي أصابه عندما أدرك اختفاءها، وأخبرها بالذي جرى في الحي وأنه قلق

عليها، فأجابت بأنها كانت في استوديو الإذاعة والتلفزيون، لكنه بقي صامتًا أمامها ينتظر مذهولًا أن تقول شيئًا غير الذي يفكر فيه، لكنها قالت: «لقد قلت كل شيء، كنت قد تحدثت إلى صحفي ثم تقابلنا لتسجيل مقابلة». وضع كفيه على وجهه ثم مسح بهما شعره محاولًا أن يطفئ غضبه قبل أن يقول وقد جزَّ أسنانه حتى سمعت صريرها: «عليك أن تطلبي منه أن لا يذيعها، ألم نقل أن نتمهل على هذا الأمر حتى نتحدث فيه؟». إلّا أنها نظرت إليه بالتعجب السابق نفسه قبل أن تتجاهله وتمضي في طريقها.

**

استيقظ على طرقها الشديد على الباب خلفه وسمع هذه المرة ما تقوله بوضوح، كانت تصرخ تطلب ماءً قبل أن تهدأ تماما، لا يدري كم مرّ عليه من الوقت هناك ولم يحاول أن يعرف، تناول زجاجة كانت بجانبه ثم فتح الباب أخيرًا، كانت سارة تجلس متقوقعة على نفسها كعصفور خائف، دخل خالد ببطء وهو يحمل الماء يبحث عن كأسها المعدني ليصبّه فيها وحين فعل اقترب ليناولها إياه لكنها قالت بصوت خائف غاضب:

- أبقِ وجهك البغيض بعيدًا عني.

وضع الكأس وابتعد ببطء وهو ينظر إليها وهي تشرب بلهفة عطشة:

- أنا أعتذر!

كان وجهها مليئًا بالدم الذي جف فوق الكدمات المتعددة، وجزء من كمّ قميصها ممزق، وبالجزء الآخر منه مسحت به ما استطاعت من الدماء التي كانت قد سالت من أنفها وفمها، إنه يكاد لا يصدق أنه من فعل ذلك حتى لو شهدت نفسه عليه.

ضحكت بسخرية:

- كلكم أوغاد تضربون النساء ثم تعتذرون.

إنّه لم يضرب امرأة من قبل، ولا عذر ستفهمه يستطيع أن يقدمه لها:

- أنا حقًّا آسف، وأنا مستعد أن أقوم بأي شيء للتعويض عليك.

رفعت رأسها إليه ونظرت طويلًا إلى وجهه الذي يثير اشمئزازها:

- هل تعني ما تقول؟

هز رأسه مجيبًا وهو يؤكد:

- أي شيء.

- حسنًا إذًا! أريد أن أرى طفليّ.

كان واثقًا بأن هذا هو الشيء الوحيد الذي ستطلبه منه، بل كان يعلم أنه الشيء الوحيد الذي كانت ستطلبه من الدنيا كلها.

- سأفعل.

قالها ثم أغلق الباب بهدوء وأقفله من دون أن تعترض هي هذه المرة، وغادر ليحضر لها طعامًا وشيئًا نظيفًا تلبسه.

في المساء كان خالد يحمل أكوابًا من العصير وهو يمرّ متعمدًا

من أمام الكوخ الذي يحتوي على الطفلين مع مربيتهما، مرّ بهدوء قبل أن يلحظ أن الباب مشقوق، عاد خطوتين إلى الخلف ليبدو كأنه تذكر شيئًا أو كأن فكرة خطرت بباله فجأة، ثم دق الباب بهدوء، خرجت المربية مبتسمة وهي تحيي خالد عند باب الغرفة من دون أن تسمح له بدخولها، فقال خالد:

- كنت حضرت بعض العصائر للرفاق وحين مررت على كوخكم ووجدت بابه غير مغلق تمامًا قلت في نفسي فلتشرب السيدة شيئًا فهي أيضًا شريكة معنا في كل هذا.

أخذت المربية الكأس وشكرت خالد الذي ظلّ واقفًا أمام الباب قبل أن ترفع حاجبيها مستغربة بقاءه هناك، لكنه استدرك وهو يقول: لقد صنعت هذا المزيج بنفسي وأردت رأيك فيه، فأخذت المربية رشفة منه ووجهها يعكس تمام الرضا عن طعم ما ذاقت فابتسم لها ثم انطلق بهدوء متوجهًا كما بدا لها إلى الرفاق، وما إن أغلقت بابها بإحكام هذه المرة حتى عاد خالد من حيث أتى ورمى بكل ما تحتويه الكؤوس التي معه، ثم عاد إلى الكوخ الذي يحرسه وجلس خارجه على الأرض في الظلام من دون أن يدخل خيمته وبقي متيقظًا من دون أن يصدر صوتًا أو حتى يسمع واحدًا، كانت سارة كما يبدو غارقة في سبات عميق في الداخل فما أراد أن يزعجها، بقي ساكنًا لكنه لم يسمح لنفسه بالنوم، إنَّ عليه عهدًا لا بدّ أن يوفيه، بعد مرور بعض الوقت تسلل حيث غرفة المربية وطرق بابها بهدوء، ثم طرقه بقوة أكثر إلّا أن أحدًا لم يجب، دخل إلى الكوخ فوجد المربية قد نامت على أريكة مقابلة لسريرها

وسرير الطفلين النائمين. هزها برفق لكنها كانت قد دخلت في نوم عميق تحت تأثير ما وضعه في كأسها هذا المساء، حمل الطفل أولًا ثم مضى بهدوء إلى حيث توجد سارة، طرق الباب برفق ثم فتح الباب بهدوء، واقترب منها ونظر إليها بشيء من الذنب والشفقة، لكنه أخيرًا هزها بكفه المرتجفة وما إن فتحت عينيها حتى أفزعها وجهه القريب جدًا، فهبت متراجعة جالسة وما إن لمحت وجه طفلها حتى أعادت النظر إلى وجهه بامتنان فابتسم لها وناولها إياه:

- أفضل أن تبقي على «ضارب» نائمًا حتى أستطيع إعادته وإحضار الطفلة.
- ضارب؟! عدنان سمّى ابننا ضارب.
- ألم تعلمي بذلك!

نظرت إلى وجه طفلها وتحسسته وهي تضمه إليها:

- إنه يمنعني من رؤيتهما أكنت تظنه سيخبرني بأسمائهما.
- وماذا كنت لتسمينه؟
- أدهم. لقد أسميته ذلك قبل حتى أن ألده.

هزّ رأسه وهمس:

- سأتركك معه قليلًا لكن حاولي أن تنتهي سريعًا، نحتاج أن ننجز هذا الأمر على خير.

ثم غادر الغرفة وأغلق الباب تاركًا خلفه وجع الدنيا يحاور ابنه النائم بين يديه.

«آه لو تدري أيها الطفل الصغير كم أختنق حين تكون أنت بعيدًا

وأنا أجلس هنا وحيدة، لكنني أجد نفسي أختنق أكثر وأنت بين ذراعي نائمًا لا تدري عن الدنيا وغدرها، ولا تدري أن من أحضراك إليها كانا أول الغادرين بك رغم أنك لم تبدأ من عمرك شيئًا بعد، ليتني أستطيع حمايتك من كل هذا، أنا التي لا تستطيع أن تحملك وتطلق قدميها للريح وتهرب لا ترجو من هربها ولا تطلب من الدنيا إلّا أن تبقى معكما في مكان آمن لا يعلم عنه أحد غير الله، آه يا طفلي الصغير يا أدهم، أتسمعني، لا يليق بك اسم آخر ولا أريد لغيره بك أن يليق، ليتني أستطيع أن أرى عينيك، أن أفهم نظرتك حين تنظر، أتراها حادة قوية ستواجه هذه الدنيا بعزم وثقة كما هي عينا أخي، أم أنها كعينيّ أنا خائفتان من كل شيء ولا تمتلكان القدرة على الاختيار وصاحبتهما ما زالت حتى هذه اللحظة لا تدري ماذا تريد، لا أعلم ماذا سيحلّ بي هنا، إلّا أنني أريد منك شيئًا واحدًا، أريد أن تدرك قبل فوات الأوان أن أباك خائن وغد، وأن الوطنية التي يدّعيها ما هي إلا مسرحية يخدع بها الشعب ليصل إلى المنصب الذي سيحطم من خلاله أنوفهم جميعًا، عليك يا بني أن تكون ذكيًا لتعلم هذا مبكرًا، ثم حين تستطيع اهرب بكل ما أوتيت به من إرادة وابتعد، رائحتك زكية لن تغيب عن ذاكرتي ما حييت، وجلدك رقيق ناعم وكفك الصغيرة دافئة، إنني أشعر بك بكل حواسي لكنني رغم ذلك أريد أن أرى عينيك، أحتاج أن أراهما وصدقني لو فعلت لقرأت فيهما ما أحتاج أن أعرف.

لم تتنبّه سارة لدخول خالد الغرفة، كان يتحرك كريشة في الهواء، ثنى قدميه قليلًا مائلًا نحوها:

- عليّ أن آخذه الآن.

لكنها قبل أن تعترض لمحت الطفلة بين يده «خذيها ودعيني أعيد الصغير من حيث أتيت به». قبّلت طفلها برفق ثم مدت ذراعيها إليه تبادله الطفلة بالطفل: «أيتها الجميلة تعالي إلى أمك»، شمتها طويلًا وتأملت وجهها الملائكي الصغير، ثم نظرت إليه تسأله: «وهي، ما اسمها؟» هز رأسه إشارة إلى أنه لا يعلم. انتظرت خروج خالد بطفلها قبل أن تهمس لطفلتها:

«أنا أمك أيتها الصغيرة، أدعى سارة ماهر الكرواتي، وأنت «بيلا». نعم بيلا، كتلك الجميلة التي عاشت مع الوحش الأمير، أما أنتِ فستعيشين مع الأمير الوحش، وأنا أعني بذلك أباكِ عدنان الوالي، أعتذر أنني عرفت حقيقته بعد أن حملتك في رحمي، لكن وقد كان وها قد أتيت إلى الدنيا، فاعلمي أن هذا الوحش أبوك شئتِ ذلك أم أبيت، وهذا الوحش سينجح في الوصول إلى ما يريد، وعليه ستكونين ابنة أحد الكبار في أرض العرب. إياكِ يا بيلا إياكِ يا طفلتي أن تتركيه، لا تترك فتاة أباها إلّا واجترت الندم وداست على ألواح من الشوك والمهانة، اسأليني أنا يا بيلا، وحش يحميك خير من وحش يبتلعك لتعيشي في ظلامه إلى الأبد، إياك وأن تعطي لأحد الحقّ بأن يهينك أو يقلل من قدرك وإياكِ ثم إياكِ أن تخوني أباك يومًا أو أخاكِ، لا أدري ما الذي تحمله الأقدار لكنني أعلم ولا أدري كيف أفعل، إنني لن أكون إلى جواركما مجددًا، لهذا أريدك أن تعلمي أنني أحبك ولم أرَ عينيكِ يومًا، وما تحدثت إليكِ قطّ، ولو لم أشتم رائحتك ثانية، عندما

تصبحين أمّا ستعلمين أنني أحببتك حتى لو لم تتلاق أعيننا قطّ، ولو لم تتبادل ألسنتنا حوارًا واحدًا، ستعلمين حتمًا أنني أحببتكِ وأحببتكِ جدًّا يا صغيرة».

ثم ضمتها وانتحبت طويلًا، كان خالد قد دخل الغرفة يراقبها بصمت، وبوجوده هذا إنما كان يأمرها أن تنتهي وتمنحه الطفلة بهدوء ثم اقترب أكثر ومدَّ ذراعيه وانتزع طفلتها انتزاعًا هادئًا وأغلق خلفه الباب بقدمه بحركة هادئة وتركها تبكي مَن تظن أنها لن تراهم ثانية أبدًا.

**

التقى أوس عدنان وبعض رجال الثورة وهو يخبره بأن ما يفعله التعاون لا يمكن أن يكون في مصلحة البلاد، وأخبره عما رآه بأم عينه في حيّهم، إلّا أنَّ عدنان أصرّ على اعتبار ذلك خطأً ليس أكثر، كان أوس منذ التقى بعدنان شخصيًا للمرة الأولى قد شعر بأنه نرجسي، أما اليوم فإنه يكاد يرى أنانيته عارية أمامه عن كل ما يمكن أن يخفيها أو يجمّلها، إنه يتحدث عن الأخطاء التي تودي بحياة المئات على أنها أمرٌ عابر لا يستحق الالتفات، أما ما كان يذهله إلى جانب هذا كله أنّ رجالَ الأحزاب حوله كانوا ينجرفون إلى رأيه سواء اقتنعوا به أم لم يفعلوا، عَلِمَ بأن بريق السلطة أعماهم فقرر أخيرًا أن يتحدث إلى رجال الثورة الحقيقيين، إلى الرجال الذين رآهم يفترشون الشارع أيامًا طويلة، وأن يتعاون مع الأحزاب التي رفضت مشاركة عدنان في مشروعه الحالي لمحاولة تحريك الرأي العام العالمي والدفع بالقرار السياسي لوقف

المهزلة المميتة التي تنطلق نتائج قراراتها من سماء البلاد لتنفجر في أرضها فوق رؤوس أهلها، أظهر لعدنان رفضه لما يقوم به من دفاع عن هؤلاء وأعلن نفسه ورجالًا ممن معه منشقين عنه، ورافضين لأي تدخل خارجي أن يعتبر مساعدة من أي نوع لهذه البلاد، إلّا أن عدنان حاول استمالتهم إلى رأيه وكشف نفسه أكثر لأوس حين تحدث عن المال والسلطة، وما هي إلّا أيام حتى كانت الأحزاب المنشقة ورجال الثورة قد رفعوا صوتهم عاليًا للشعب الذي بدأ الكثيرون منه يصفون عدنان بالخائن المتواطئ مع دول خارجية وينتقدون الأحزاب التي تقدم له العون والدعم، فَقَدَ عدنان عقله، فكر بأن صوت أوس أصبح عاليًا وفكر جديًّا بالتخلص منه، إلّا أنَّه يعلم أن الصوت لم يعد صوت أوس وحده إنَّما صوت أحزاب تخالفه الرأي بل وصوت جزء لا يمكن إهماله من الشعب الغبي الذي ينجرف خلف أي معارِض يستعطفهم بالشهداء وبعض الركام! فكر بأن عليه أن يفعل ذلك أيضًا لكن كيف، عليه أن يجلس على عرش البلاد مهما كلفه الأمر! نعم مهما كلفه الأمر حرفيًّا، أخرجه أزيز هاتفه من غيمة التفكير تلك، أجاب فأخبره المتصل بأن الشعب قد قبض على ماهر الكرواتي وطلب منه أن ينظر إلى المقاطع في هاتفه، انتهت المكالمة وشاهد عدنان ما أرسله المتصل، وشعر بلذة عارمة طغت على قلقه، وازدادت الفكرة التي اتقدت منذ لحظات في عقله اشتعالًا، ركب سيارته وانطلق إلى الأحراش وهو يعقد العزم على أمرٍ قد حُسِم.

هناك في الأحراش كانت الأمور أكثر هدوءًا، الرجال يقومون بما عليهم القيام به وينتظرون عودة عدنان أو أوامره، أما خالد فقد كان يغيب كثيرًا عن سارة وعن خيمته، وكان هذا يعني المزيد من الوحدة لسارة، الكثير من الهروب والكثير من الكتب، دق خالد الباب قبل أن يزيح المزلاج ويدخل حاملًا طعامَ سارة التي لامته على غيابه طوال هذا الوقت، كان وجهه مكفهرًا وممتعضًا وفي عينيه شيء من حزن وشفقة، أخبرها بأنه مشغول بعمل ما يجبره على المغادرة كثيرًا، خرجت من باب الكوخ وقالت بشيء من عتب:

- منذ يومين لم يُفتح هذا الباب عليّ! نفد الماء لدي ولم يأت أحد بطعام.

ناولها الصينية:

- هاكِ طعامك، كنت قد أخبرت ريان بأنني مغادر وطلبت منه أن يأمر بإحضار الطعام إليك!

- على أي حال، ما الأخبار في الخارج؟

- الأمور متفاقمة والفوضى سيدة الموقف، الناس يهتفون لعدنان، ثم يهتفون ضده قبل أن يعود بعضهم للهتاف له مجددًا بعد أن أعلن عن انتهاء الكرو...

بتر كلماته بسرعة وبدا على وجهه الندم وظهر التلعثم على حروفه.

سألته وقد بدا الهلع على تقاسيم وجهها:

- هل وجدوهما؟

صمت خالد لا يعلم بمَ يجيب إلا أنها صاحت بنفاد صبر:

«والديّ هل وجدوهما»؟

- لقد وجدوهما.

- وماذا فعلوا معهما؟ هل اعتقلوهما أم ..

لم تستطع أن تكمل جملتها وقد أدركت ما آل إليه مصيرهما، وقد فقدت قدرتها على الوقوف فجلست ـ وما عادت قدماها تحملانها ـ على مقعد من خشب وقشّ كان بجانب الكوخ وأردفت:

«فقط أخبرني، أستطيع احتمال هذا».

تناول الصينية مجددًا من بين يديها المرتجفتين وهز برأسه ما أشار إليها بأنهما لم ينجوا، فسال من عينيها دمع ممتلئ بالحزن والندم، شعر أمامه بحرمة الموت وضرورة الصمت.

«كيف؟» سألت سارة.

عادت الذاكرة بخالد إلى تلك المشاهد الوحشية التي لم تتوقف قنوات التلفازعن عرضها، فبعد أقل من أسبوع واحد على اجتماع القوى الوطنية مع عدنان لإعلان خطوات تشكيل الحكومة المقبلة كانت الجماهير قد استدلت على ماهر الكرواتي وزوجته، لقد ضربوهما من دون رحمة وبكل ما طالته أيديهم، ثم سحلوهما فوق الرمل والشوك والحجارة على خيول قبيلة الدارسي التي اختبؤوا في حماها، وقيل إنه بعد ذلك قام بعضهم باغتصاب زوجة الكرواتي ثم

أطلقوا النار على رأسها، أما هو فذبحوه بسكين جيب صغيرة قبل أن يتركوهما في الصحراء للوحوش و الضباع.

أخرجه صوتها الباكي من شروده:

- قل شيئًا.

- لقد أطلقوا رصاصتين في رأسيهما على الفور ثم دفنوهما في الصحراء.

لكن صوتًا يعرفانه جيّدًا جاء من خلفهما وهو يقول بتبجح سعيد:

- شعب غاضب إلى هذا الحد، يجد جلاديه بين يديه وهذا فقط؟

تجمّد كلاهما في المكان، خائفين مما سيقول، إلا أن عدنان اقترب ووضع كفه وتحسس الكدمات على وجه سارة قبل أن يلتفت إلى خالد:

- أحسنت صنعًا، إنك تقوم بواجبك على أكمل وجه.

ثم التفت إلى سارة مبتسما:

- أتمنى أن الخدمة تعجبك يا سيدة القصور.

حاول خالد أن يغيّر مسار الحديث علّه ينسيه ما أتى ليقوله

- متى عدت من العاصمة؟

ظلّ عدنان ينظر في وجه سارة :

- لقد عدت لتوي، وأنا أحمل للجميلة الخائنة أخبارًا سارّة.

ثم اصطنع نحنحة وتابع: «إليك يا ابنة الكرواتي آخر الأخبار، لقد

نهش الشعب لحم أبويك كالذئاب تنهش فريستها وما أبقيا عليهما من لحم ولا دم، ولقد كان هذا الفعل بأمر مني أنا، وأنا جئت هنا لأحتفل مع رجالي بهذا وأخبرك به شخصيًا».

بدت له كصنم لا ملامح واضحة على وجهه ثم خرج صوتها مرتجفًا فيه شيء من عتب:

- لكنك عاهدتني أن لا يصيبهما مكروه، لقد أقسمت لي.

أطلق عدنان ضحكة عالية خبيثة، ثم قال و قد لبس وجهه الحزم:

- هو أيضًا أقسم لشعبه أن يصون البلاد ويخلص لها، لكنه نقض عهده وخانه، ولقد حان الوقت ليرد الشعب قسمه في وجهه وقد فعل.

نظرت إلى عينيه وقد فهمت الآن فقط معنى الغضب الذي كان يتحدث عنه طوال الوقت، إنه غضب ممزوج بقهر وذلّ وعجز، وهو بَدّ يطحنك ويعتصر قلبك ثم يشوّه روحك فلا تملك أمامه من أمرك شيئًا. قامت ودارت بجسدها نحو الكوخ ومشت خطوتين قبل أن تدخله وتغلق الباب في وجهيهما وتجلس على حافة سريرها كأنها تجلس على كرسي حيث بقيت هكذا حتى الصباح.

أما عدنان فالتفت إلى خالد آمرًا: «أمّا أنتَ فاتبعني».

**

-١٣-

هذه الفكرة الحقيرة لا يمكن أن تخرج من رأس إلّا كرأس عدنان الذي أحضر خالدًا وريان إليه في كوخه الخاص، ثم أغلق الباب خلفه ونظر إليهما وهو يقول: «الثورة تُسلب منّا، وأرض العرب تفلت من بين أيدينا، وكبار الثوار انقلبوا علينا مع بعض الأحزاب التي كانت محايدة في البداية، ونحن نحتاج أن نبقى لأنه إن نجح ما يظنه هؤلاء فلا حكم ولا علوّ للذين ظلمتهم هذه الأرض من قبل».

كان ريان يدعم ما يقول عدنان حتى قبل أن يعلمه، فقد كان كلبًا وفيًّا حقًا لهذا الوغد، أما خالد فقد كان لا يدري كيف تتكسَّرُ روحه إلى هذا الكم من الأجزاء من دون أن يشكو حتى، إلّا أن قلبه كان دائمًا يعرف إلى أين ينتمي، ويعلم ما تريده الروح في النهاية من كل هذا. لكنه يخاف أن يدفع كل هذا ولا ينجح! نظر إلى عدنان وسأل:

- ما الذي تقترحه إذًا؟

كان خالد يتخيل كل شيء إلّا هذا الذي سيقوله عدنان الذي أراد أن يقتل ابنته ثم يعرضها على شاشات التلفاز مقتولة على يد أعدائه، حتى يُظهر للشعب أن رجال الثورة المنشقين والأحزاب الموالية

لهم تعمّدوا قتل طفلته لكسر إرادته، وليثبت لهم بأنه مثلهم يضحي بالنفس والمال والولد من أجل هذه الأرض وأن ما يشاع عنه إنّما يحدث ليسلبه بعضهم حق الدفاع عن الثورة المشروعة التي قام بها هذا الشعب. سيقتل عدنان طفلته فقد كان منذ البداية يريد صبيًّا ولم تكن تعنيه الطفلة حقًا.

نظر ريان وخالد إلى عدنان بذهول تام، حتى أنه قال لهما:

- أغلقا فاهيكما المفتوحين واذهب يا ريان وأحضر لي الطفلة.

انطلق ريان والذهول لا يزال مرسومًا على وجهه، أما خالد فعاد يلوم روحه ويعاتبها متسائلًا كيف لها أن تتماسك أمام كل هذا الشر، كيف لقلبه الذي يغلي غضبًا أن يهدأ وكيف لعقله الذي يأمر جسده بالارتجاف أن يبدّل ذلك بالثبات! إن شعورًا بالغثيان انتابه أمام كل ما يحدث، ربما أيضًا أمام ما تحوّل هو إليه من قسوة وبرود.

دخل ريان يحمل الطفلة النائمة كملاك تاه في الأرض، أمره عدنان أن يضعها على السرير ففعل ثم أخذ سلاحه ووجهه إلى رأس الرضيعة قبل أن يتدخل خالد:

- لكنها ابنتك! لا بد من وجود طريقة أخرى للوصول إلى مبتغاك.

إلّا أن عدنان بقي ينظر إلى الطفلة وهو يصوّب سلاحه إليها قبل أن يلتفت إلى خالد:

- معك حق! حتى وإن كنت أوافق على ذلك فأظنني لا أستطيع أن أنفذّه.

كم أسعد خالدًا تراجعُ عدنان، شعر بالراحة وإن لم يبدها على وجهه أمامه، كم كان ما سيحدث وضيعًا ولا إنسانيًا وما كان ليستطيع وقفه حقًا رغم أنه مستعد ليدفع روحه ثمنًا لذلك، لكنه يعلم أن الأمر لا يسير هكذا، فقد كان عدنان سيطلق رصاصة في رأس خالد يتبعها بأخرى في رأس ابنته ويحكم البلاد كدكتاتور جديد بعد أن ينتصر، من الجيد إذًا أنه تراجع، وقبل أن يتنفس خالد الصعداء كان السلاح الذي بيدي عدنان أمام عينيه حين ناوله إياه الأخير:

- أريد منك أنت أن تفعل ذلك.

فتح خالد عينيه عن آخرهما وهو لا يصدق ما يسمع، ربما أخطأ ما سمعه إلّا أن يد عدنان وضعت السلاح في يده وهو يقول: «هيا، رصاصة واحدة في الرأس وينتهي كل هذا، تستطيع أن تغمض عينيك وأنت تفعل ذلك».

يا للقدر! عدنان ومَن معه قتلوا عائلته حتى وإن لم يكونوا يدركون ذلك تمامًا، وها هو القدر يعطي خالدًا السلاح بيديّ قاتل أبنائه ليقتل ابنته، شيء فيه يخبره بأنه إنْ لم ينتقم الآن فلن ترتاح روحه ولا أرواح المغدورين أبدًا، نظر في السلاح ونظر إلى وجه الطفلة، رصاصة واحدة ويأخذ بثأرهم جميعًا من عدنان وإنْ كان لا يدري ولا يمانع.

لكن هل سيفعلها! خذ بثأرك، إنَ العين بالعين، نظر إلى الطفلة مجددًا وإلى السلاح قبل أن يسمع صوت عدنان:

- هيا لا تفكر كثيرًا، إننا نحتاج أن نفعل هذا من أجل أن نحرر هذه الأرض.

أيها الوضيع! هذه الأرض أطهر من أن تنتظر الحريّة من أمثالك، لستَ إلّا طاغية آخر فلا تكذب عليها، اكذب علينا جميعًا لكن ليس عليها! إن هذه الأرض تعرف تمامًا كيف تفرّق بين من يضحي بأولاده لأجلها أو لأجل أن يحكمها، ارتجفت يده قليلًا، كاد يعيد السلاح إلى عدنان إلّا أنه مدّ كفه التي تحمل السلاح وأمرها بأن ترتجف بقوة، رجفت كفه وزادها ارتجافًا حتى تبدو للناظر أنها لا يمكنها أن تصيب أي هدف مهما اقترب، ثم أنزل كفه قبل أن يمد السلاح إلى عدنان:

- لا أستطيع، إنَّ كفي ترتجف بقوة كما رأيت.

- استخدم اليسرى إذًا!

نظر خالد إلى وجه عدنان حتى أنّه ظنّ بأن القدر هو مَن يأمره، هل هناك من عاقل يعطي الثأر لصاحبه بيديه؟ إلّا أنه هز رأسه وهو يقول كاذبًا:

- يدي اليسرى ضعيفة جدًا ولا أستطيع بعد التحكم بها تمامًا ولا أريد أن أعذب الطفلة بأكثر من رصاصة، إنني بالطبع أحاول أن أدربها بعد ما أصاب يدي اليمنى، لكنني حتى اللحظة لا أزال عاجزًا عن التحكم بها جيدًا.

نظر عدنان إلى وجهه ثم التفت إلى ريان: «افعلها أنت يا ريان ولا أريد أعذارًا». هنا اعتذر خالد متحججًا بأن لديه ما ينجزه قبل أن يغادر ويقف مراقبًا هو وهاتفه من خلف الباب، أما عدنان فقد قال بصوت ساخط:

- لم أكن أعلم أنه جبان.

وما إن انتهى من جملته حتى كانت رصاصة ريان تفجر رأس الرضيعة وتعلنها ضحية أخرى من ضحايا تجار هذا الوطن المغدور.

**

أن تحزن هو أن تفقد شيئًا تحتاجه، أما أن تُكسر فهذا يعني أن تتكئ على شيء بكل قوتك ثم ينهار بك، حين تُكسر فإنك تبقى ملقىً هناك في القاع، لا يدٌ تمتد إليك ولا صوت يناديك لتنهض، لا شيء سوى الفراغ، كل ركام حياتك جاثم فوق صدرك، لا رغبة لك بالنهوض حتى وإن زال جميعه وصار ريشة ستطير في الهواء بنفحة واحدة من فمك، عقلها يأمرها بأن تبكي، فهي مذ عرفت بخبر والديها وهي ساكنة تلتزم الصمت، لم تصرخ ولم تضرب شيئًا ولم تتحرك من مكانها، يصرّ العقل أن تبكي خوفًا على نفسه من الجنون لكن العينين تعصيان، والروح تختنق بالإجابة؛ من أين أبدأ بالبكاء من حيث خذلتُ عائلتي وقدتها إلى الموت، أم من حيث خذلت نفسي وانحدرت بها إلى الحضيض؟ أبكي زواجي من هذا الوغد ووجودي الآن في هذا المكان القذر إلى جانب رجل مسخ، أم ولديّ اللذين لم أرَ أعينهما حتى الآن؟ أو أبدأ حيث انتهينا بخراب أرض العرب. يقول العقل «ابكيها جميعًا» وتجيب الروح: «لا أستطيع! أتخاف أن تفقدَ صوابك؟ وهل تظنّ حقًا أنك تدرك ما الصواب لتفقده، حتى أكثر العقول غباوة لا يفعلون ما فَعَلْتَه بي وبعائلتي وبهذا الوطن».

**

ظل التلفاز يعيد ويزيد قصة ليلى، ومثله الإذاعة، كأنما يأمران الناس بأن يُبقوا أعينهم على الماضي لقبول الحاضر بالفوضى العارمة فيه؛ كانت ليلى تجلس على كرسي في الاستوديو الفاخر حيث يبدو جليًّا أنها لا تنتمي إلى ذلك المكان أبدًا، كانت تلبس ملابس رثة وإن كانت نظيفة، وتجلس على الكرسي لا يظهر إلّا نصف وجهها رغم أنها لم تمانع أن يظهر كله، وكان جسدها يميل إلى الأمام وهي تتحدث وكأنها تحتمي من شيء داخلها، كان المذيع يحاورها ببرود لا يعكس التعاطف الصادر من كلماته. لكنها على أي حال لم تكن تراه، فقد كانت تتحدث إليه كأنها تتحدث إلى نفسها، قالت كيف كذب رجال تابعون للحكومة عليها وعلى الأخريات حيث كانوا يخبرون الضحية بأنها ستعمل بالقصر أعمالًا منزلية وبراتب مجزٍ، وتحدثت عن رفيقات لها في الأسر، عن واحدة كانت قد استيقظت على صوتها بعد ليلة سوداء وكانت قد أصيبت بالجنون تمامًا حتى أنها لم تعد تعرف اسمها ولا أين تكون، وعندما أدرك رجال القصر هذا أخذوها حيث لا تدري ليلى إلى أين، وتذكرت رفيقة وجع أخرى كانت قد أصيبت بالصرع أو ربما كانت مصابة به منذ البداية لكنها أصبحت تصاب بنوباته بشكل شبه يومي فتفقد إدراكها تمامًا ولا تستيقظ إلّا ووجهها يسيل دمًا وجسدها مليء بالكدمات، ثم تسألها عن الذي حدث فتحدثها ليلى به وهي الشاهدة الوحيدة عليه، أما الأخيرة التي تحدثت عنها فقد قالت بأنها ماتت هكذا بلا مقدمات وبقيت جثتها في مكانها ولم تستطع هي

أن تصله لأنها كانت مقيّدة، وبعد عدة أيام حين حضر الرجال انتشلوها مثل كيس قمامة وألقوا بها في مكان لا يعرف أحد عنه شيئًا، كانت تتحدث بجرأة ووضوح في بعض الأحيان، وتنهار في أحيان أخرى، تتوقف برهة ولا تجيب إن سألها المذيع شيئًا وكأنها ليست هناك، قالت الأسماء الأولى لجلاديها الذين لم تعرف لهم كنية، حتى أنها لم تكن متاكدة مِنْ أن الأسماء حقيقية، قالت بأنها لا تفهم السبب الذي يدعو الحاكم أن يرغب بفتيات يعملن في الشارع لإعالة أهلهن، بينما يستطيع أن يستدعي أجمل فتيات الدنيا إليه مقابل القليل من المال!! تحدثت ليلى طويلًا وذكرت تفاصيل مزعجة وموجعة، لكنها كانت تتحدث بإصرار شخص لا يملك شيئًا ليخسره وحين سألها المذيع عن قصتها هي، ولمَ كانت الوحيدة التي تبقى بينما يتم استبدال الأخريات أجابت: «ببساطة لأنني الوحيدة التي بقيت كما هي عليه، لم أجن ولم أمرض ولم أمت». ثم صمتت قليلًا قبل أن تتابع: «جسدي لم يفعل على الأقل». إلّا أن المذيع عاد وسأل «أعني ما الذي جعلك تصمدين أنت بالذات من بين كل هؤلاء؟». حدقت إليه كأنها تنكر عليه سؤاله وقالت: «تستطيع أن تسأل الله». انتهى حوارهما بعد أن شكر المذيع المشاهدين بكلمات كانت تطير بالهواء ولا يصل شيء من معانيها إلى القلوب التي أوجعتها قصة ليلى ورفيقاتها.

عاد أوس إلى منزله، وهو غاضب يملؤه الحنق، لم يتحدث إلى أحد وإنّما جلس وحده يطالع هاتفه ويقلّب صفحاته يقرأ ما يقوله

الناس حول قصة ليلى، التي كانت قد تحدثت عن قصتها تحت اسمها الحقيقي، فار دمه وغلى، كان يود لو يضربها أو يخرجها من بيته قبل أن يعيدها إليه لتتأدب، جاءته أمه بكوب شاي: «كل أهل الحي يتحدثون عن ليلى، أكان على هذه المصيبة أن تفضح نفسها؟ قلت لك دعك منها وأن وراءها حتمًا مصيبة كبيرة». نظر أوس الغاضب إليها: «ليلى ضحية يا أمي! ضحية». إلّا أنها واجهته بالسؤال الذي كان يطرحه على نفسه طوال الوقت ولا يجد له إجابة: «إذا كانت ضحية لمَ لم تستر نفسها؟ أكان عليها أن تخسر شرفها مرتين؟». همّ بالوقوف للمغادرة إلّا أن أمه أشارت عليه بالبقاء: «ابقَ مكانك أنا سأذهب، لكن عليك أن تجد حلًا لهذه المصيبة التي حلّت علينا». عاد وجلس واتكأ برأسه على الجدار وهو يشعر بأن هم الدنيا كلها فوق رأسه، الثورة تُسلب من قبل عدنان ومن معه، والبلاد تحت رحمة طائرات الطامعين، وكل هذا في كفة وقصة ليلى في كفة أخرى ترى ما الذي يجعله متأثرًا إلى هذا الحد؟ لمَ تشغل هذا الحيز الكبير من تفكيره؟ لم لا يعتذر عن استمرار ضيافتها ويجعلها تغادر إلى الأبد، أو لمَ لا يتقبل أقله رغبتها في فعل ما تشاء!

دخلت عليه، ورأته مهمومًا مغمض العينين فسألته إنْ كان بخير وحين لم يجب همّت بالخروج فاستوقفها:

- أكان عليك أن تفعلي ذلك؟

التفتت إليه مجددًا وقد فهمت ما يرمي إليه:

- وما مشكلتك في ذلك؟

- إنَّ الناس هنا لا يفهمون مما قلت سوى شيء واحد.
- وهو؟
- أنتِ تعلمين ما هو.

اقتربت ببطء حيث يجلس ثم جلست أمامه على ركبتيها وتعمّدت النظر في عينيه بثبات:

- فليقل الناس ما شاؤوا، عليهم أن يعلموا ما حدث سواء أعجبهم ذلك أم لا، وأنا كان عليَّ أن أتحدث إليهم عن هذا، إنه الشيء الوحيد الذي أبقاني حية هناك.
- هذا الأمر لن يعود عليك بخير.
- وإنْ كان، ما كنت لأحتمل أن أخفي كل ذلك داخلي، إما أن أتحدث يا أوس وإما أموت، وأنا أريد أن أعيش.

**

دخل خالد على سارة الصامتة، أخذ طعامها القديم الذي لم تلمسه وعاد بآخر جديد:

- عليك أن تأكلي شيئًا من الطعام، أنتِ على هذا الحال منذ يومين.

كانت تجلس على سريرها كما جلست أول ليلة عرفت فيها بأمر والديها، ناولها الصينية الجديدة:

- هيّا خذيها.

لم ترفع كفها، ولم تتزحزح من مكانها إلّا أنها رفعت عينيها إلى خالد ونظرت إلى وجهه:

- كم أنتَ بشع! هل تعلم أنني لو وددت أن أتناول الطعام فإنَّ وجهك هذا سيمنعني، ولا تتعجب صراحتي، فأنا أشعر الآن بحرية خالصة أستطيع معها قول أي شيء لمن أريد من دون أن أضطر إلى تنميق ما سأقول.
- خذي الصينية إذًا لأغرب عن وجهك ولا أطيل البقاء.
- تقول الكتب بأن 'الاحتجاج علامة على أن الإنسان لم يجتز أي جحيم'، تراك لهذا لا تحتج على أي شيء يقوله؟ ألم تفهم بعد بأنه لا يملك معك شيئًا، فهو إمّا أن يعذبك كعذاباتك التي عهدت في السجن وإما يرحمك فتموت، ثم مالت بجذعها إلى الأمام تسأله:
- أيّ جحيم مررت به يرعبك إلى هذا الحدّ؟ ما الذي تبقى لك حتى تخاف عليه؟ انظر إليّ، قد يكون عدنان أخذ مني كلّ شيء إلّا أنني الآن أقوى من أيّ وقت مضى.

وضع الصينية على الأرض أمامها ثم رفع جذعه قائلًا:

- وما الذي تعرفينه عن الجحيم حتى تتحدثي عنها؟ انظري حولك؛ إنّك ترين الشمس كل يوم ويُقدّم إليك طعام جيد وتشربين ماء عذبًا وتتحدثين إلى شخص ما ولا يتم تعذيبك.

نظرت إلى الصينية و ابتسمت ساخرة:

- وهذا تعريفك للحياة! أم أن سجانًا مثلك لا يعرف شيئًا عن الحياة لأنه عاش على فتاتها؟

- وفتاة مثلك تركَتها خلفها أتذكرين؟ على أي حال لا يحتاج المرء أكثر من ذلك ليعيش.

- هذه حياة الأنعام.

- ومن قال إن الأنعام تستطيع العيش في سجوننا؟ صدقيني عدنان أكثر رحمة بكثير من حكومة والدك.

- أنت وغد.

أدار ظهره وهمّ بالخروج قبل أن يتوقف:

- تناولي طعامك، لا يمكنك هنا الإضراب عن الطعام، لست في سجن حكومي وعدنان لا يأبه بموتك.

ثم تابع خطواته نحو الباب مردفًا «وإن لم تأكلي فأقسم أنني لن آتِ لك بطعام غيره حتى تأكليه وإن كان فاسدًا».

كان يعلم أن شيئا من القسوة قد توقظها مما هي فيه، أما هي فبقيت على سريرها تنظر إلى الطعام على الأرض، تذكرت كيف كانت الولائم تقام في الحفلات التي لم تكن ترغب بحضورها، لقد فرّت حقًا من ذلك النعيم وإلى ماذا! ما أبأس الدنيا إذًا، كل أطرافها مقيتة ولا يدري أحد فيها عن أحد، كل شخص يظن أن تعاسته تعود إلى المكان الذي وجد فيه فيحاول صنع جسر يعبر فيه الى طرف جديد، استلقت على السرير وبكت طويلًا كما لم تبكِ من قبل، نعم لقد خسرت كل شيء،

وغدت اليوم وحيدة، بلا أهل ولا أصدقاء ولا حرية حتى، إلّا أن هناك شخصًا واحدًا يأبه لأمرها قد يكون لا يزال حيًّا في مكان ما؛ أدهم! تحتاج أن تعرف أين يمكن أن يكون، فمن المحتمل جدًا أنه أرسل لها شيئًا! قامت وقد عزمت أمرها على شيء، طرقت الباب لكنّ أحدًا لم يكن خلفه، انتظرت حتى صباح اليوم التالي قبل أن يفتح خالد الباب مجددًا، دار بعينيه في المكان، كان الطعام ناقصًا ولو لم يؤكل كله، أشاد بحسن تصرفها ودعاها أن تخرج إلى الشمس قليلًا. قامت تجرّ نفسها خارج الكوخ حيث الشمس القوية أوجعت عينيها الملتهبتين على إثر البكاء:

- ترى أين تغيب كل هذا الوقت؟
- إنني أعمل!
- أنت! وترى ما الذي يستطيع شخص مثلك فعله!

التفت إليها وابتسم: لست تعتقدين حقًا بأنني سأخبرك أليس كذلك؟

- لكنك حتى اللحظة تعمل إلى صف عدنان وأنت تعلم أنه يغرق البلاد.
- لنقل إنني قاصّ أثر.
- جهات خارجية؟

هزّ رأسه نافيًا:

- لا أحد يحفل بما يحلّ بنا إلّا نحن.

- قل لي يا خالد، هل تظن أنك رجل صالح؟
- لا أدري، لكنني أحاول.
- إذًا فهل من الصلاح في شيء أن تقبل احتجاز امرأة هنا كالمواشي وتحرمها من أطفالها!
- أنت تعلمين أنه لا يد لي في ذلك! إن حاولت أن أخرجك سينكشف أمري هذا عدا عن أنني حقًا لا أستطيع، إننا في وسط غابة مليئة برجال عدنان.
- أما زلت تبعث بهذه التقارير طوال الوقت؟ قلّي من أين تبعث بها!

نظر إليها بطرف عينه قبل أن تردف: «ليس تطفلًا لكنني أريد منك إلى خدمة». أنصت فتابعت: «أحتاج أن أفتح حساباتي، فقد أجد رسالة من أحد».

- ماذا لو كان هذا يشكل خطرًا عليكِ؟
- انظر إليّ! هل تعتقد حقًّا أن أمامي أيّة فرصة؟ إذا كانت النهايات واحدة فلمَ التأجيل!
- ستكونين بخير، القليل من الصبر فقط، عليك أن تقنعيه أنك عدتي إلى صفه، حينذاك قد يعيدك إلى أطفالك.

ابتسمت بأسى:

- وهل تظن أن عدنان يفعل بي ما يفعل لأنني حدتُ عن طريقه التي يسير فيها!

التزم الصمت وهو ينظر إليها وهي تشير إلى أوردة ساعدها الأيسر: «إنه أراد أن ينجب صبيًّا يحمل دمي، بعد أن دخل من خلالي إلى كل المناطق المظلمة والمستحيلة، واستغل صوتي للوصول إلى ما يريد سياسيًّا. لقد سلب عدنان قلبي غدرًا ثم دمر حياتي بعد أن سرق دمي».

أشفق عليها وقد بات يعلم أنها تدرك موقفها تمامًا:

- إنه لا بأس من اقتراف الأخطاء أحيانًا.
- هذا خطأ أودى بي إلى الهاوية.
- قد يكون خطأ لمصلحة القدر.

**

ضاق المنزل بأصحابه، انتصار التي هدم بيتها ومات أطفالها أصبحت اليوم في بيت أبي أوس، وليلى التي غدت حديث الحيّ لا مكان تلجأ إليه إلّا هناك واستحالت الحياة التي لا تطاق جحيمًا، أم أوس التي كانت تعامل انتصار بكل ودّ باتت تغار منها على زوجها الذي يعود آخر الليل متعبًا لا يرى زوجته حتى يرى غيرها، وصار لسانها لا يتوقف عن تجريح ليلى واتهامها بجعلهم سيرة على كل لسان، هكذا شعرت ليلى بضرورة المغادرة والعودة إلى العمل حيث بدأت، لملمت القليل من الأشياء التي أصبحت تعود إليها، وخرجت من باب الغرفة على مهل، وما إن قطعت الباب الخارجي للسور الآيل

إلى الانهيار حتى استوقفها صوت أوس الذي كان يجلس على برميل معدني خارج المنزل:

- إلى أين في هذا الليل؟

التفتت مذعورة حيث مصدر الصوت ثم بعد أن تعرفت عليه نظرت إليه وشيء من الذنب بدا في عينيها رغم الظلام:

- إلى حيث أنتمي.

كان عليها أن تعلمه، لربما كان سيبحث عنها طويلًا كما فعل في المرة الماضية.

- أنتِ تنتمين إلى هنا.

فكّرت كم هو شهم هذا الشاب، لكنه ما زال لا يدري بأن الأمور أعقد مما يظن:

- أنت تعلم أن هذا غير صحيح.

- فلنجعله كذلك إذًا.

نظرت إليه وهي لا تفهم ما الذي يرمي إليه إلّا أنه قطع حيرتها وهمس: «تزوجيني».

حملقت فيه طويلًا :

- أتعي حقًّا ما تقول!

هزّ رأسه مشيرًا إلى أنه يدرك تمامًا الذي يطلبه.

- ولمَ قد يرغب أي رجل بالزواج من فتاة مثلي؟ ألا ترى بأم عينيك! أنا شبهة لمن حولي.

- إذا كان كلام أمي يزعجك فهي لا تعني به شيئًا حقًا.
- بلى، وهذا ما يجمع عليه سكان الحيّ.
- تزوجيني إذًا لأقطع ألسنة الحيّ بأسره.

في الحقيقة ما كانت ليلى تظن بأن شخصًا سيقدم على الزواج بها يومًا بعد الذي أصابها، لكنها لو تمنّت زوجًا لما اختارت غير أوس! وها هو يحيل المستحيل ممكنًا تحت ضوء القمر.

في الصباح، استيقظ أوس باكرًا وأسرّ لأبيه بأنه سيتزوج بليلى وأنه سينضم إليه في العمل، وسيلحق به اليوم وقت الضحى. تهلل وجه الأب الذي كان يعلم تمامًا أن حاله وحال ابنه لا تسمحان له بخطبة أية فتاة أخرى وصار لزامًا على هذا الشاب أن يتزوج، ثم أن الفتاة كانت في منزلهم منذ فترة ولم يرَ منها شيئًا مسيئًا بل كانت هادئة خفيفة، بارك خطوة ابنه ومضى، أما أم أوس فقد صاحت وناحت كأن مصيبة حلّت بدارهم، حاول أوس تهدئتها قبل أن تأتي ليلى من محل البقالة التي أرسلها إليه وتسمع ما أبعدها عن البيت كي لا تسمعه، إلّا أنها صاحت تقول: «قدتَ الثورة وبماذا أتيتنا؟ بهذه!». أما أخواته فبقين صامتات رغم أن صدورهن كانت تغلي، فكيف لهذه أن تتزوج وكيف لهن أن يبقين بلا زواج في بيت أبيهن؟ أما انتصار فقد بدأت تهلهل ببعض الأغاني التراثية المفرحة، وتهدئ أم أوس، إلّا أن الأخيرة صاحت في وجهها واتهمتها هي الأخرى بالسعي وراء زوجها مما أسكت انتصار وأخرجها من منزل أم أوس سريعًا وإلى الأبد، أما أوس فقد طالب أمه

بتمالك أعصابها ونبهها بأنها تخطئ وتتمادى في حق مَن لا ذنب لهم لكنها أخيرًا خيّرته بين البقاء تحت سقف بيتها أو الزواج بتلك الوضيعة كما وصفتها.

قبل الظهيرة كان أوس في مقرّ أحد أقوى الأحزاب المنشقة التي يتواصل معها في مواجهة عدنان، طلب منهم مَسكنًا له ولزوجته وأمه بحجة أن يتسنى له البقاء قريبًا منهم أثناء متابعة أعماله معهم ضد عدنان وحلفائه، فمنحوه واحدًا فورًا، سكنه هو وليلى وانتصار، وفي المساء كانت زغاريد سيدة الخبز تملأ البيت ترحيبًا بالفرح الجديد.

**

وجد خالد الكثير من الرسائل على صفحات سارة الخاصة، لكنه كان يعلم أن واحدة منها فقط ستهمها حقًا، واحدة قد تعيد إلى قلبها القليل من الأمل، رغم أن بعض ما جاء فيها موجع، لكنّه لن يفكر في إخفائها فالرسالة تشير إلى أن أدهم بخير وأنها إن استطاعت أن تهرب من أرض العرب فإن هناك من ينتظرها ويؤويها، طبع الرسالة وأنهى أعماله، وحين عاد إلى المعسكر أخبرها بأنه وجد شيئًا وأعطاها الرسالة ثم وقف باب الكوخ يراقبها و هي تلتهم حروفها بصمت:

«أيتها الساذجة! كنتِ أقرب الناس إلى قلبي ولا تزالين، لكنك تخلَيتِ عن كل ما تملكين مقابل حياة التشرد والهروب مع العصابات الخارجة عن القانون، لطالما كان جزء ما بداخلك ثائرًا ومائلًا أن يجرب حياة الفقر والفوضى فكيف تجدينها؟ كم أنا غاضب منكِ يا

سارة، وكم أنا حزين! على أي حال إن قرأت هذه الرسالة فأريدك أن تعلمي أنني استطعت التسلل إلى إحدى الدول في الخارج، لدي الكثير من المال في البنوك هنا لكن بلا سلطة ولا أهل ولا شرف؛ لقد أصرّ أبي أن أخرج مبكرًا وأن أسحب كل الأموال من حساباتنا خوفًا من أن يتم احتجازها وهذا ما فعلته، لا أدري ما الذي سيحل بوالديك، سيكونان محظوظين إن نجيا من هذا الإعصار الذي أقامه الشعب الجاهل، هذا الشعب الذي قلبتِه ومَن معك على النظام ليملكوا هم السلطة، إنهم رعاع ألا تفهمين! وأنتِ سلّمتهم رقابنا وناولتهم السكين، إنهم حتى ليسوا بشعبك يا سارة لو تعلمين، أعلم أنك تجهلين ما أقول لكنني حاولت دائمًا أن أفهمك شيئًا من هذا، وكنت دومًا أنصح والدك بأن لا يبقيك مغيّبة عن الحقائق، لكنه أراد لك حياة مليئة بالهدوء والسكينة وانظري ماذا جنى، أما هذا العربي الذي تركتنا من أجل ثورته إنما أراد أن يجلس على كرسي الحكم، صدقيني يا سارة هو لا يختلف عنا كثيرًا في هذا سوى أنه جاهل وغير مستعد، وسوف يضيّع ثروات بلاده على نفسه بينما كنا نخدم بها بلادنا، وإن كنت تعتقدين أنه سيبقيك إلى جانبه فإنك أكثر غباوة مما يمكن أن أتصور، إن والديك سيحاولان الهرب إلى هنا إن استطاعا، وأنت إنْ استيقظت من حلمك الجميل فغادري إلى أقرب دولة تستطيعين الوصول إليها ثم راسليني بأي طريقة ممكنة حتى أستطيع أن ألتقيكِ، اشتقت إليكِ رغم كل شيء، صلّي حتى ينقذ الله والدينا، واستيقظي من وهمك حتى تلحقي بنا إن استطعت».

ثنت الرسالة و بدا الأسى على وجهها:

- إنه يظن أن والدينا لا يزالان على قيد الحياة. قالتها قبل أن تنظر إلى تاريخ الرسالة المرسلة منذ ثلاثة شهور. رفعت عينيها إليه بدهشة: «ما الذي يعنيه بقوله أن هذا الشعب ليس بشعبنا؟».

- لا أدري.

قالها وعيناه اللتان تقولان شيئًا آخر جعلاها تسأل:

- أنت تعلم شيئًا أليس كذلك؟

- ليس بالكثير، كانت هناك دومًا إشاعات تقول إن بعض من يعملون في السلطة ليسوا عربًا.

- ليسوا عربًا! لسنا عربًا؟ ماذا نكون إذًا؟

هز خالد رأسه على أنه لا يدري، وفي حين تابعت هي:

- كيف لا نكون عربًا، نحن نتحدث العربية ونحمل الهوية العربية ونعيش في أرض العرب منذ الأزل.

- لا بأس إذًا تستطيعين أن تعتبري نفسك كذلك، أعني إنْ أردت أن تكوني عربية فأنتِ كذلك.

- قل لي ماذا كانت تقول الإشاعات، مَن مِن المحتمل أن نكون؟

- تقول بأن بعض المسؤولين في النظام إنما هم أبناء دول معادية منافسة وطامعة بثروات أرض العرب لكنهم عاشوا وامتلكوا سلطة فيها تحت أسماء وأصول عربية، وإنهم في الحقيقة

يعملون لمصلحة تلك الدول، وأخذوا مقابل ذلك بالطبع امتيازات هائلة وأموالًا طائلة إلى جانب السلطة.

- لطالما لم أعرف مَن أنا، واليوم أنا حتى بلا هوية، ليته لم يقل شيئًا.

- كلنا كنّا نظن في لحظة ما أن لحياتنا شكلًا ثابتًا لا يمكن أن يتغير، لنجده بعد ذلك قد تبدّل أو اختفى.

قالت وقد اكتسى وجهها خيبة جديدة بدت واضحة عليه:

- إذًا فأنا أضعت نفسي من أجل شعب ليس بشعبي، بل إنني حتى اللحظة لا أعلم إلى أي شعوب الأرض أنتمي!

- أنت صنعتِ ما صنعتِ من أجل كرامة الإنسان، لا علاقة لهذا بحقيقة إلى أي الشعوب تنتمين.

وضعت كفّيها على وجهها ثم عادت وأخفضتهما وهي تقول:

- المهم أنه بخير، أدهم بخير.

هز رأسه موافقًا وهو في الحقيقة يشعر بالغيظ من كونه بخير، بل ويستشيط غضبًا أن استطاع أن يهرب بالمليارات من أموال هذا الشعب المنهوب، لكنه على أي حال كان ليرضى بصفقة كهذه في مثل هذا التوقيت مقابل أن تشعر سارة بشيء من التحسن وسط كل ما تمرّ به.

-١٤-

لا شيء أبشع من أن تخدع الناس لتكسب رأيهم، ثم تتسلق على أكتافهم وهم طائعون، يتغنّون بوجودك يظنون أنك سترفعهم فيتراقصون بك فوق ظهورهم بينما أنت في الحقيقة تعلم أنك لن تنزل من هناك أبدًا، وإنهم سيبقون تحت قدميك حتى تأتيهم لطمة توقظهم وتجبرهم على أن ينزلوك من هناك مقتولًا على الأغلب، لذلك تبقى تدوس على أدمغتهم تنهكهم بالحمل السمين. هذا تمامًا ما يفعله عدنان اليوم مع هذا الشعب المسكين؛ إن وسائل الأنباء لا تفتأ تنقل صورة طفلة زعيم المناضلين التي أطلق عليها معارضو الوالي النار في الرأس مباشرة، وينقلون مراسم دفن عدنان السرية لابنته في مقابر عائلته والدموع تنهمر على كفنها قبل أن يقبّلها وينزلها القبر!! الأدهى والأَمَرّ أن كل ذلك أُدمج مع صوت سارة ماهر الكرواتي وهي تتلو خطابها المشهور الذي أشعل الجماهير سابقًا وكسب تعاطفًا غير مسبوق.

التفت عدنان وهو يمسك بكأسه إلى خالد وريان:

- قلت لكما، هذا سيعيد الأمور إلى مجراها بل وسيدفعها ألف خطوة إلى الأمام وسينقذ موقفنا أمام الجمهور.

هزّ ريان رأسه مؤكدًا، بينما بقيت عينا خالد معلقتين في الشاشة الكبيرة يتابع المشهد المكرر الذي يقسم الشاشة إلى نصفين؛ نصف لردود فعل الشارع وآخر للمسرحية التي ابتدعها عدنان لكسب الجماهير، سأل وعيناه ثابتتان على الشاشة:

- والآن ماذا؟
- سننزل أنا وريان إلى العاصمة لنبدأ العمل على نجاح حكومتنا المرتقبة في الوصول إلى الحكم، عندها فقط نستطيع الاحتفال بنجاح ثورتنا.
- أودّ مرافقتكما.

كان هذا ما يريده حقًّا، إلّا أن عدنان أكد على ضرورة بقائه لمتابعة أمر المعسكر وإدارة من فيه، خصوصًا بعد غياب ريان هذه المرة. في الواقع فإن عدنان لم يكن يؤمن بقدرة خالد على الأعمال في العاصمة، فهو ضعيف في التواصل مع الآخرين و مظهره ليس مناسبًا ولا مقنعًا كريان للتعامل مع الثوار أو حتى قادة الأحزاب لكنه هنا يثق به أكثر من أي شخص آخر . سأله بشأن سارة، فالتفت إليه عدنان ونظر إلى عينيه طويلًا يفكر بالأمر، ثم عبَّ ما تبقى في كأسه وقد حسم أمره: «تخلص منها بالطريقة التي تجدها مناسبة، على أن يبدو ذلك أنه من فعل المعارضين لي ولثورتي، أو دعها بلا طعام، علّها تموت جوعًا تلك الخائنة». ثم ابتسم له بمكر: «وافعل بها ما يحلو لك، أنت أيضًا تحتاج إلى مكافأة».

في المساء وبعد أن غـادرا، كان صوت طائرات العدو فوق الأشجار الكثيفة يصمّ الآذان وينبّه إلى لعنة ستُصَب من السماء على البلاد وأهلها، تفقد خالد المعسكر للاطمئنان على أن أموره تسير كما يجب، ثم صنع كوبًا من الشاي وجلس في خيمته ينظر إلى كوخ سارة ولا يدري كيف عليه أن يتصرف، كم هي الأمور معقدة هناك داخل ذلك الكوخ، إنها ابنة الكرواتي عدو البلاد، وزوجة عدنان قالب الحكم، ولربما كانت المحرك الأول للثورة، إلّا أنها سجينة بيد الثوار والآن بيده شخصيًّا، لا يستطيع قتلها، ولا يمكنه المجازفة بكل ما فعل ويفعل خفية في سبيل تحريرها، و إن بقيت هنا سيقتلونها على أي حال. أي معضلة يواجه، لقد سكت عن قتل طفلة رضيعة أمامه، ورغم أن روحها ما زالت منذ ذلك الحين تلاحقه كل ليلة، إلا أنه بقي صامتًا لا يفعل شيئًا، لماذا إذًا لا يترك سارة للقدر ويسلم أمرها إلى أحد الرجال هنا ولتفعل بها الدنيا ما تشاء، إنّه يعلم أنّه لا يستطيع أن ينقذ الجميع، ولا يقدر على إصلاح كل شيء، عليه أن يركّز حيث يقف وحيث عليه أن يعمل بجدّ، لكنه يشعر بأنه مدين لتلك العينين بشيء، فربما لولاهما ما صمد حقًا في سجون الدولة بعد أن كان قد خسر كل شيء ووهن فيه الجسد عن آخره، غطى عينيه بكفّه وتنهّد راجيا أن تحدث معجزة أو أن ينزل على رأسه وحيٌ ما، بقي على هذا الحال حتى ليكاد من يراه أن يظنه نائمًا، برد كوب الشاي الممتلئ في كفه اليسرى قبل أن يضعه جانبًا ويرفع نفسه متوجهًا حيث هي، طرق بابها وأزاح المزلاج بعد أن سمع

إجابتها ودخل، كانت تقرأ كتابًا، نظر إليها دون أن يقول شيئًا، وهي نظرت إليه تنتظر منه أن يقول وحين لم يفعل عادت تنظر إلى كتابها:

- ظننت أن معك طعامًا.

بدا كأنه لم يسمع ما قالت:

- في السجن ربما أكون قلت شيئًا، لا أذكر!

رفعت عينيها عن الكتاب مجددا:

- ولمَ تفكر بهذا الآن؟ لقد رحل النظام القديم على أي حال، ولم يعد ما قلته أو لم تقله يعني شيئًا.

- ما أريد قوله هو أنك تتألم لفترة ثم تغيب في عالم آخر لا يشبه عالمهم أبدًا، تبقى داخله حتى تستعيد توازنك تسمع فيه أصواتا لا تعرفها وتشاهد فيه ظلالًا و أضواء. ثم نظر إلى عينيها من دون أن يذكرهما.

- أهذا ما أبدو لك عليه وأنا أحمل كتابًا الآن؟ امرأة حبيسة ووحيدة قُتل والداها وضاع منها أطفالها هاربة في عالم آخر خوفًا من الجنون. ثم صمتت قليلًا قبل أن تردف: هاتِ ما لديك، فلا أظنك أتيت إليّ لتحدثني عن العوالم الأخرى للتعذيب وما قد تكون أفضيت به للنظام السابق، في فمك كلام فتكلم.

أغلق الباب خلفه واتكأ عليه:

- منتصف هذه الليلة سأخرجك من هنا.

تهلل وجهها فرحًا واستبشرت، دارت حوله وهي تسأله كيف سيفعل ذلك، وازداد انفعالها وهي تسأله إن كان سيخرجها مع أطفالها، إلّا أن وجهه الجامد أصابها بالإحباط قبل أن يعتذر لها فهو لا يستطيع أن يتصرف بأطفالها، كل ما يقدر عليه هو محاولة إبعادها وحدها، هذا إن نجحت خطته كما يتمنى، انطفأ الألق في عينيها قبل أن تُؤكد له بأنها لن تذهب إلى أي مكان من دون طفليها، حاول أن يجعلها تدرك صعوبة الأمر إلّا أنها فضلت أن تبقى حبيسة الكوخ على أن تغادر دونهما، أمسك خالد بكتفيها ونظر إلى عينيها مباشرة وقال بجدية ونفاد صبر: «عدنان أمرني بقتلك، وإن لم تغادري الليلة سيأتي هو أو أحد رجاله الآخرين ليفعلوا ما لم أفعله، لا خيار لك هنا؛ إمّا أن تموتي وإما أن تخرجي ما دام الأمر ممكنًا». توسلت إليه فشرح لها أن عليه أن يوهم عدنان بأنه قتلها ودفنها في مكان بعيد. وأكد لها ضرورة ألّا يعلم أحد في الفترة القادمة أنها على قيد الحياة. ثم قال مهوّنًا: «عليك أن تذهبي إلى مكان آمن وهناك تستطيعين التفكير بكيفية استرداد أطفالك». طلبت منه راجية أن تراهما لكنه يعلم أنه وإن استطاع أن يريها الطفل فالطفلة تحت التراب، رفض تحت الأعذار نفسها ثم غادر وقد أمرها أن تكون جاهزة قبل الساعة الثانية صباحًا، وأعلمها بأنه سيحضر لها ثيابًا عسكرية، وطالبها بأن تهدأ وتفكر بالأمر مليًّا حتى لا تخسر حياتها وطفليها إلى الأبد.

بعد منتصف تلك الليلة، أتاها خالد كما وعدها، أمرها بأن تلبس الزي الذي أحضره ثم ناولها مالًا وسلاحًا ووضعهما في يدها:

- هذا سلاحك الذي سلبتك إياه من قبل، أخفيه في الثياب وعليك توخي الحذر فأنا سأخرجك من هذه الأحراش فقط، وبعد الشارع الرئيسي عليك أن تتدبري أمرك حتى تصلي إلى العاصمة، بعد ذلك ستدقين الرقم الوحيد الذي ستجدينه على الهاتف الذي سأعطيكِ إياه وسيأتي رجالنا لاصطحابك.
- لكن إلى أين سأذهب؟
- لا أعلم، لقد تحدثت إلى بعض الرجال هناك وهم سيقلّونك حين تدخلين العاصمة وسيجدون لك مكانًا آمنًا.

ثم أشار إليها بالاستعجال وبأنه سينتظرها في الخارج، إلّا أنها استوقفته :

- لو حدث لي شيء عدني بأن تعتني بطفليّ.
- إنهما طفلا الوالي فلا تقلقي عليهما وأعدك بأن أفعل كل ما أستطيع، لكن عليك أن تثقي بأنه لن يحدث شيء.

سارا معًا بحذر شديد حتى أخرجها بعيدًا إلى الطريق الرئيسي، وهناك توقف معها حتى مرّت سيارة نقل أعطى صاحبها الكثير من المال وأمره بإيصالها إلى العاصمة، وأخبره بأنه أخذ رقم السيارة، وأن رجالًا ينتظرونها هناك ولو تأخر سيجدونه حتى لو كان في آخر الأرض وأن البقية لديه، وافق الرجل الذي رأى من مرآته السلاح بيدها فسار بها إلى العاصمة من دون أن ينظر في مرآته ثانية، واستلمها رجال خالد عند الفجر كما كان متفقًا عليه.

**

قررت البقاء وحدها في إحدى الغرف الثلاث للمنزل لا تكلم أحدًا، تقرأ كتابًا أو تنظر من النافذة إلى أرض العرب الجديدة، شوارع العاصمة الجميلة باتت مكسرة ومليئة بالنفايات والأوراق المتطايرة، بل وتكاد تفرشها الحجار والأتربة، حتى هذا المطر الساقط بغزارة لا يمكنه غسلها، كيف وصلوا إلى هنا، وهل حقًا كان لها يد في كل هذا، أم أنها يد القدر مَن ساقت كلّ ما سيقت إليه الأمور كما يقول خالد! إنّها لتدفع ما تبقى من عمرها في سبيل أن ترى العاصمة كما كانت عليه يومًا واحدًا.

أما خارج الغرفة فقد همست ليلى إلى انتصار: «مَن تكون هذه المرأة يا ترى!». نظرت انتصار إلى باب الغرفة المغلق وهي تقول «الله أعلم أي مصيبة حلّت بهذه الفتاة، تبدو بائسة إلى حد كبير، وتبدو لي مألوفة جدًا». نظرت ليلى إلى حيث تنظر انتصار: «إنها لا تأكل ولا تتحدث ولا تخرج من باب هذه الغرفة! أخاف يا خالتي أن يرموا إلينا بالكثير من أمثالها، ونحن لن نستطيع أن نقول شيئًا فالمنزل ليس لنا». التفتت انتصار إليها وقد شعرت بأنها مقصودة أيضًا، وظنت نفسها ضيفًا غير مرحب به، إلّا أن ليلى تداركت ما افتعلته في عيني انتصار من توتر فاحتضنتها وقالت: «أنت أمي، وحيث أكون تكونين، لكن هذه الفتاة! نحن لا نعرف حتى من تكون». قامت انتصار، وقد عزمت الأمر أن تتحدث إليها في الداخل، طرقت الباب لكن سارة لم تجب، طرقته مرة ثانية وثالثة ولمّا لم تسمع جوابًا فتحت الباب بلطف ونظرت حيث

سارة تحدق إلى الشارع، دخلت انتصار وجلست على كرسي منجّد بجوار سرير سارة:

- مؤسف ما وصلنا إليه أليس كذلك!

هزت سارة رأسها وهي لا تزال تنظر من النافذة إلّا أن انتصار تابعت: «ستتحسن الأمور، هكذا يقولون فأنا لا أتابع الأخبار، لكنني سمعت بأن قائد الثورة سيتولى أمر البلاد وأن بلادنا ستغدو مثل بلاد الغرب الجميلة».

ابتسمت سارة بسخرية وهي تفكر في قائد الثورة المخادع، وتفكر ببلاد الغرب الجميلة التي تقصف بيوتنا وتقتل أولادنا كل يوم.

اقتربت انتصار من سارة ووضعت يدها على كتفها:

- أيًا كان ما مررتِ به يا ابنتي فلقد مررنا أنا وليلى بمثله أو أكثر، صدقيني. هيا الآن تعالي شاركينا الإفطار، أوس ليس هنا، إنه لا يأتي سوى مرتين كل أسبوع، قومي لأعرفك على زوجته ليلى، إنها سيدة لطيفة وأنا متأكدة بأنكما ستكونان صديقتين.

أمسكت يدها وأخذت بها إلى الطاولة، ودعتها إلى الجلوس حتى يجهز الطعام، إلّا أن سارة توجهت إلى الحمام وأخذت حمامًا ساخنًا وبدلت ملابسها بملابس جديدة تعود لليلى كانت انتصار قد ناولتها إياها، ثم خرجت لتجد طاولة إفطار بسيطة لكنها شهية؛ بعض الجبن والزيت والزيتون والفول والبيض واللبنة والجرجير والطماطم، وأخيرًا أكواب الشاي الساخنة التي تعطي المكان دفئًا عجيبًا، هي لا

تذكر بأنها اشتهت الطعام حقًّا منذ ولدت طفليها، جلست على الطاولة وأمسكت كوب الشاي بيديها، وأغمضت عينيها ثم التفتت حولها تبحث عن شوكة وسكين فلم تجد، ناولتها انتصار خبزًا وقالت: «سمِّ الله يا ابنتي». أما ليلى فقد كانت تنظر إلى سارة وتدقق في كل تفاصيلها، إنها جميلة حقًّا! وجه مضيء وإن كان ذابلًا، وجسد كالسيف فارع قويّ وفخور رغم كل الانكسارات في عينيها، إنها تجلس بقامة شامخة ليست متصنعة، وتأكل بهدوء ورويّة كأن أحدًا ما يراقبها بتمعّن، وتنظر أمامها ولا تقول شيئًا، كيف ستبقى هذه أمام عيني أوس! إنها ستخطفه من دون حتى أن تدري أو يدري، بقيت تنظر إليها ولا تأكل والنار المتقدة داخلها تزداد اشتعالًا حتى لمزتها انتصار: «مالك يا فتاة لمَ لا تأكلين؟». «لم أعد جائعة». قالتها وغادرت الطاولة بحنق فهمته انتصار ولم تلحظه سارة قطّ.

بعد عدة أيام، كان أوس قد أسرَّ إلى زوجته أن سارة هي ابنة الكرواتي، التي بلّغت عن مكان والديها لكنه لم يقل لها شيئًا عن كونها زوجة عدنان الوالي، وفي صباح اليوم التالي، وبعد أن تناول الجميع طعام الإفطار غادر أوس إلى مركز الحزب، وقامت سارة ونقلت بعض الصحون إلى المطبخ قبل أن تغادر، إلّا أن صوت ليلى استوقفها:

- إلى أين أيتها الأميرة؟ عليك غسل الصحون، نحن لم نعد خدمًا عند والدك.

قالت انتصار: اذهبي يا ابنتي سأغسلها أنا. لكن ليلى اعترضت:

- إنها لا تفعل شيئًا دعيها تمدّ يد العون أو تبحث لها عن مكان آخر.

عضت انتصار على شفتها السفلى وهي تستهجن القول الذي تقوله ليلى قبل أن تقول سارة بهدوء:

- إنني أرتب غرفتي، وأخرج من الحمام نظيفًا معطرًا، وأغسل ملابسي وأجففها وأمّا الطعام فإن السيدة انتصار هي التي تعده.

لكن ليلى بدأت التشويح بيديها:

- وهل تظنين أن هذا فقط هو عمل المنزل؟ هناك الأرض والغبار والستائر والنوافذ والمواعين وغسل الخضار والفاكهة والكثير من الأشياء الأخرى، وأنتِ تبقين في غرفتك تنظرين من شباك الغرفة أو تمدين برجليك على السرير وتمسكين كتابًا لتظهري لنا مدى ثقافتك!

كانت تعلم سارة أن فتاة كهذه لا تعلم شيئًا عن الهوّة التي تفصلها عن الحياة، وأنها لا يمكن أن تدرك كيف يتكوّن الإنسان الواعي، فتفكيرها كما يبدو لا يتعدى طعام اليوم والغبار على الطاولة وأوس على السرير، إنها حتى لا تطالع أخبار البلد ولا تمتلك تلفازًا!

- اكتبي لي قائمة بالأعمال التي يجب أن أقوم بها وأرجو أن تطلعي السيدة انتصار عليها وسلميها لي! ثم أدارت وجهها ومضت فاغتاظت ليلى من برودها وقالت بصوت بدا شامتًا جارحًا:

- تبدين لي بلا مشاعر يا ابنة السلطة، أتراكِ لهذا سلّمتِ والديْك إلى الموت؟

التفتت سارة إلى ليلى بحركة حادة وقد شعرت بأن خنجرًا حادًّا غرز في خاصرتها وهي لا تصدق أن ليلى تدرك من تكون، ثم اغرورقت عيناها بالدموع، فتدخلت السيدة انتصار:

- ما هذا الذي تقولينه يا ليلى! يجب عليك الآن أن تهدئي وكذلك البدء بِوَزن كلامك.
- وزن كلامي! يا سيدة انتصار هذه المرأة هي ابنة ماهر الكرواتي الطاغوت الذي دمر البلاد، إنها ابنة أقرب المقربين إلى الوغد الذي كان يحبسني و يعتدي عليّ.

بدت انتصار مذهولة أمام ما تقوله ليلى التي تابعت:

- عرفت أنها قذرة منذ اللحظة التي رأيتها فيها، إنها تحمل دمًا ملوثًا بالقتل والظلم ولحمًا تربى على خيرات البلاد المسلوبة.

سمعت منها سارة ما سمعت وعرفت أن الحرب التي تقيمها هذه الفتاة ضدها شرسة حقًّا وإن كانت لا تعنيها ولا تستحق الرد، إنها لو لم تكن جميلة بما يكفي ما كانت لتأخذ ليلى منها موقفًا مشابهًا حتى ولو كانت ابنة الحاكم نفسه؛ إنَّ حرب ليلى عليها بدأت منذ وقعت عيناها عليها، إنها حرب على أوس لا تشترك سارة فيها لا من قريب ولا من بعيد، يا لنقمة الجمال أحيانًا!

عادت وأدارت ظهرها لليلى وسمحت لدموعها بالانهمار وهي تمضي إلى غرفتها بهدوء.

بعد عدة ساعات دخلت انتصار إليها، ناولتها فنجان قهوة وجلست على حافة السرير:

- اعذريها يا ابنتي، إنّ الويل الذي رأته يجعلها تهذي، ليلى كانت جارية في بيت الحاكم، وقد أصابها هناك من الويلات ما كاد يدفعها الى الجنون و نظنها عاجزة عن الإنجاب أيضا، ما الذي تعتقدين أنها ستفعل حين تعلم أنك كنت من حاشيته؟

هزت سارة رأسها مظهرة تفهمًا لما تقول السيدة انتصار التي ربتت كتفها وغادرت، لو تعلم ليلى أن الرجال في حياة سارة جميعهم كانوا موجعين إلى الحد الذي لم تعد تستطيع معه أن تفكر برجل آخر مجددًا، ولو تعلم عن النار في قلبها على طفليها ما حزنت على عدم قدرتها على إنجاب طفل إلى هذا العالم ولا خافت على زوجها البائس هذا منها، إنَّها لو قدمته إليها على طبق من ذهب ما كانت لتلتفت إليه، لكن ترى مَن يقنعها بهذا وهي تظن أنها امرأة ناقصة سيبحث زوجها حتمًا عن غيرها، كم تود إخبارها بأنه لا أحد كاملًا في هذه الحياة، وأن الفرق يكمن بالإحساس تجاه أنفسنا فقط.

**

انتظرت سارة ثلاثة أيام كاملة وهي تتحاشى التحدث إلى ليلى أو مقابلتها، كانت إذا احتاجت شيئًا طلبته من السيدة انتصار، وكانت تحاول البقاء في غرفتها طويلًا، إلّا أنَّها في تلك الليلة التي كان من المفترض أن يأتي فيها أوس قبيل الفجر بقيت منتظرة بعد أن نام

الجميع، وما إن أدار مفتاحه في باب الشقة حتى وقفت أمام الباب لتلاقيه، ظهر وجهه حين أشعل نور الصالة شاحبًا متعبًا، سألها عن السبب الذي يبقيها مستيقظة حتى هذه الساعة، إلّا أنها طلبت منه الجلوس لتتحدث إليه في أمر هام، وأثناء حوارهما الهامس فُتح باب غرفة ليلى التي خرجت على عجل وهي تربط حزام ردائها و تقول: «هذا تمامًا ما كنت قد حسبت حسابه، ما الذي تفعلينه مع زوجي قبيل الفجر هنا؟». حاول أوس أن يوضح الأمر، إلّا أن ليلى كانت قد فقدت أعصابها تمامًا وبدأت تصيح وتقدمت وأمسكت شعر سارة وأخذت تلوح به يمنة ويسرة، قبل أن يخلصها أوس من بين يديها، ويصرخ في وجهها طالبًا منها أن تهدأ: « كانت تتمنى مني أن أطلب منك الصمت تمامًا حول معرفتك بأنها ابنة الكرواتي لأن عدنان الوالي يبحث عنها يريد قتلها». نظرت ليلى إلى سارة مشككة: «ولماذا لم تخبريني هذا بنفسك؟». أجابت سارة: «لأنني ببساطة لا أستطيع التحدث اليك أبدًا فأنتِ دائمًا ما تفتعلين المشاكل». بدأت ليلى تبرطم بعض الكلمات إلّا أن سارة استأذنت وهي تقول: «تصبحون على خير».

في اليوم التالي، دارت سارة في الصالة كمن أضاع شيئًا، دخلت غرفتها ثم خرجت مجددًا، و كانت انتصار التي تحّضر طعام الغداء تراقبها بصمت؛ من أين تعرف هذه الفتاة يا ترى! ربما رأتها في أحد الصحف أو على أغلفة المجلات في محلات البقالة، لكنها تشعر أنها قابلتها شخصيًا. قاطع تفكيرها هذا صوت سارة:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لم لا تملكون تلفازًا هنا؟

ضحكت انتصار بأسى:

- ومن له نفس على التلفاز؟ على أي حال هذا ما يريده أوس!
- وهواتف ذكية؟
- نملك أنا وليلى هاتفًا صغيرًا قديم الطراز، يقول أوس إنه أكثر أمنًا لنا وله.

تساءلت سارة بعد ذلك عن ليلى فأخبرتها السيدة انتصار بأنها ذهبت لشراء الملح سريعًا من دكان قريب، ثم استفسرت منها عن جلبة ليلة أمس فأجابتها سارة باقتضاب أدركت معه انتصار بأنها لا تريد أن تبوح بالمزيد فتابعت إعداد الطعام بصمت. بعد قليل من الوقت دخلت ليلى من الباب وهي تنظر إلى سارة الجالسة في الصالة على غير العادة فجلست إلى جانبها بحذر ووضعت كفها على كتف سارة:

- لا تغضبي مما حدث ليلة أمس، لا أدري ما الذي أصابني لكنني حتما أسأت التصرف.

أدركت سارة بأن أوس لا بد وأن تكلم مع ليلى كلاما حازما حتى أصابها هذا التحول الكبير. أومأت برأسها:

- لا بأس وأرجو أن تحتفظي بسرّ من أكون حتى يأتي أمر الله.
- بالطبع! هذا الأمر سيبقى طيّ الكتمان حتى يأخذ الله أمانته. لكن قولي لي، لم يلاحقك عدنان الوالي؟
- لأنني ابنة ماهر الكرواتي!

- لا أفهم الاختلاف حول هذا الرجل، أسمع من الناس في الشارع ومراكز الشراء أنّه مناضل شريف وأن الثورة ما كانت لتنجح لولاه، ثم أسمع من أوس بأنه كاذب ويريد أن يستولي على الحكم وأنْ يسلّم أمرنا إلى دول أخرى.

تدخلت انتصار:

- ما دامت الثورة لم تكن لتنجح من دونه، فهو حتمًا رجل شريف، وأنا أحبه وسأنتخبه حاكمًا لأرض العرب.

ثم نظرت إلى سارة وتابعت: «لا أظن رجلًا كعدنان من الممكن أن يؤذيك، لكن الاحتياط واجب يا ابنتي».

تنهدت سارة وهي تخفي في صدرها ما تخفي قبل أن تسمع ليلى وهي تتابع:

- إن الشعب مغرمٌ به جدًّا، المشكلة أن أوس يؤكد لي كل مرة بأنه وغد، وأن بعض الأحزاب ورجال الثورة مختلفون معه تمامًا فاتهمهم زورًا وبهتانًا بأنهم قتلوا ابنته.

هوى قلب سارة وهي تلتفت إلى ليلى وتقول: «ابنته؟!».

- نعم! يقول أوس إنهم لم يصلوا يومًا إلى مخابئ عدنان ثم إنهم لا يؤمنون بالعنف و الاعتداء، ولو فعلوا ما كانوا ليقتلوا طفلة رضيعة بهذه الطريقة المتوحشة.

لم تدرِ سارة عن نفسها لكنها انهالت على ليلى بالضربات:

- أنت هي المتوحشة! أنت تكذبين في محاولة إخراجي من

هنا، وأنا سأخرج أيتها الوضيعة، سأسافر مع أطفالي عند أخي وأترك لكم بلاد العرب بمصائبها لكن أرجوك قولي لي إنك تكذبين.

هرعت السيدة انتصار تفصلها عن ليلى التي قالت باستياء وغضب:

- وَلِمَ قد أفعل هذا؟ وما شأن عدنان الوالي بما تقولين؟

إلّا أن سارة جلست على الأرض بين ذراعي سيدة الخبز تبكي بحرقة الدنيا كلها طفلتها التي فقدت.

**

بعد يومين، أخرجت سارة خاتم والدها و ساعة أخيها و قدمتهما إلى السيدة انتصار:

- أحتاج مالًا وهذا ما لدي، إنها مقتنيات تعود إلى عائلتي وهي ثمينة حقًّا، امنحيني بعض المال، وخذي هذه كرهان في حال لم أستطع أن أرده إليك، وأنا واثقة بأنني سأفعل.

نظرت انتصار في عيني سارة الذابلتين، وابتسمت بحزن:

- و من أين لي بالمال يا ابنتي؟ لو كنت أمتلكه لمنحته لك من دون مقابل، لكننا نعيش هنا من صدقة هؤلاء الذين يعمل أوس لديهم، وأوس لم يترك إلا مبلغًا صغيرًا من المال مع ليلى وهو لأكون منصفة غير مقصر معنا ويحضر لنا كل ما نطلب.

- أريد ذلك المبلغ الصغير.

- أتطلبين مني أن أسرقها؟
- لا أبدًا كل ما أسال هو أن تخبريها عن هذه المقتنيات، وأنها ستكون ملكها إن لم أرده إليها.
- لم لا تطلبين المال من أوس نفسه؟
- لا أستطيع، أوس يعرف رجلًا لا أريده أن يعلم بخطواتي.
- بم تفكرين يا ابنتي؟ لست بحجم هؤلاء فدعي الأمر وابدئي حياتك هنا من جديد.
- هلا أخبرتها رجاء بما قلته لك، وخذي هذه معك اعرضيها عليها.
- قومي لتأكلي شيئًا، لا يجوز أن تبقي هكذا.
- أحضري لي ذلك المال وسأكون ممتنة لك طوال العمر.

بعد ذلك جلست سارة في غرفتها أيامًا لا تخرج أبدًا، وتأكل أقل القليل بعد إلحاح كبير من انتصار، وتفكر في أمر لا يعلمه إلّا الله، كانت انتصار قد جاءت إليها بالمال، لكنها رغم ذلك لم تفعل به شيئًا، أخيرًا قررت سيدة الخبز أن تخبر أوس إلّا أن ليلى منعتها من ذلك، واحتجت بأنها فتاة مصابة باكتئاب، فما الذي قد يفعله أوس لها، وأكدت بأنها ستكون بخير مع مرور الوقت. بقي الأمر هكذا حتى مرت أربعة أيام، وفي صباح اليوم الخامس كانت سارة قد اختفت من المنزل تمامًا وظهرت في الأدغال الموحشة التي بنى عدنان في قلبها معسكره، مشت بالملابس نفسها التي منحها إياها خالد في الليلة التي أخرجها فيها، ومضت إلى كوخها فوجدته فارغًا من أي شيء،

وتوجهت إلى خيمة خالد فلم تجد فيها أحدًا، ولم يكن هناك شيء في خيمته سوى الفراش وبعض الملابس والأدوات الشخصية الاعتيادية، جلست داخلها وأغلقت الخيمة على نفسها تنتظره، كان الدم متجمدًا في عروقها بردًا وخوفًا وقلقًا، أما القلب فكان عويله مستمرًا لا ينتهي، ونار الانتظار التي تُحرق ولا تُدفئ فلم تنطفئ حتى بزوغ الفجر، وما إن رفع خالد ستار باب الخيمة ورأى وجه سارة حتى رفع حاجبيه بدهشة ثم عقدهما وقد احمرّ وجهه غضبًا، قبل أن يدخل الخيمة وينزل الستار وهو يوبخها هامسًا: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟». إلّا أن سارة أمسكت كفه بيديها وهي تقول له: «جئت لتصدقني القول أريد أن أعرف إن كانت طفلتي قدْ ماتت حقًّا، ومَن قتلها؟». نظر إليها وهو يتساءل عمّا سيقوله لها، إلّا أنه وجد نفسه يقول: «هل تدركين مقدار الخطر الذي وضعت فيه نفسي كي أخرجك من هذا المكان الذي عدت إليه بقدميك؟ ماذا لو رآك أحد هنا! إنَّ عدنان يظنك ميتة وقد بذلت مجهودًا لا يستهان به حتى أقنع رجاله أنني قمت بدفنك في مكان بعيد وأنتِ هكذا تظهرين من العدم!». تركت كفَّه وقالت: «إذًا أخبرني من قتل طفلتي حتى لا أخرج إلى كل هؤلاء وأخبرهم كيف خدعتهم». نظر إلى عينيها وشعر كأنما تأمرانه أن يفعل ما تطلب منه أن يفعل، نعم هكذا من دون تهديد فهو لم يشعر يومًا بأنهما حقًا تهددانه وإنْ كانتا أكثر من مرة أصرّتا على ذلك، ترى كم تعكس العينان من الروح حتى تمتلكا تلك السلطة على من يستطيع قراءتهما والغوص فيما وراءهما طوعًا أو كرهًا «رجل هنا قتلها خطأ وعدنان استغل ذلك في اتهام معارضيه

ليربح الانتخابات». قالها وهو يعلم أنها لو عرفت الحقيقة فلن تصمد أمامها هذه المرة! ماذا يقول لها، بأن والد الطفلة وَأَدها خلف رصاصة مسدسه عامدًا متعمدًا؟ قالت كأنها تحدث نفسها: «الوغد يستغل حتى موت ابنته التي لم يقدر على حمايتها في سبيل تحقيق ما يريد!». ثم نظرت إليه مجددًا تسأله: «وأين ذلك الرجل؟». رفع كفيه كأنه لا يعرف عن هويته شيئًا: «قال الرجال بأن عدنان قتله ورمى بجثته إلى وحوش الغابة»، «وأين عدنان الآن؟». «في العاصمة! أنت تعلمين أن غدًا هو موعد الانتخابات المقررة». لم تكن قد استمعت إلى أخبار البلاد منذ شهور، فكيف ستعلم أن غدًا هو موعد الانتخابات! «أريد شيئًا أخيرًا يا خالد. أريد أن أرى ابني، ولن أقبل بالرفض وإلا مشيت بين الطرقات في وضح النهار وذهبت لأبحث عنه في كل كوخ وكل خيمة». كان هذا طلبًا لا يستطيع تحقيقه لها، فالأمر حقًّا سيعرضه للخطر، لم يقل شيئًا وهو يفكر بطريقة يستطيع فيها صدها بهدوء إلّا أنها استشعرت عجزه فقالت: « لا بأس دلَّني على مكانه وحسب، وسأستمع إلى صوته من خلف الباب الموصد»، وهذا ما كان.

**

استيقظت أرض العرب في اليوم التالي على أنغام حرية وانتصار، على آمال تلوح في الأفق البعيد وتقترب، وخيالات بغدٍ أجمل، يكون كل شيء فيه ممكنًا، الناس كانوا كالنحل يحومون بفرح وانتظام، وكأنهم يبرمجون أنفسهم لعهد جديد في أرض العرب وعالم يشبه ذلك العالم

الذي يتحدث عنه الناس خارجها، بعض مسؤولي الأحزاب ومن انضم إليهم من رجال الثورة قاطعوا الانتخابات تمامًا ولم يشاركوا بانتخاب أي من الرجلين المنافسين لعدنان، إذ أنهم إن كانوا يؤمنون بفساد عدنان فإنَّهم يدركون أيضًا ضعف منافسيه، اجتمع الناس في مراكز الاقتراع التي توزعت في جميع البلاد، وأظهروا صبرًا لافتًا في صفوف الانتظار؛ إن الصبر ليبدو ذا جدوى إن كان الرجاء في الأمل حاضرًا.

استيقظت انتصار صباحًا، حيث كان أوس خارج المنزل وليلى كانت نائمة في غرفتها لا تنوي الاستيقاظ، إذ إنها قررت أن تتبنى قرار أوس بعدم المشاركة، أما سيدة الخبز فقد قررت أن تشارك في رسم الواقع الجديد، حتى لا تشعر بأن دماء أبنائها الخمسة ضاعت هباءً! عليها حين تقابلهم يومًا ما أن تخبرهم بأنها أكملت ما بدأت دماؤهم بسقايته، وأنها اختارت رجلًا قويًا شجاعًا صنعت يداه ثورة الحرية. لبست ملابسها بهدوء وتسللت خارجًا إلى أقرب مركز اقتراع إلى بيتها.

مشت في الشارع وهي تشعر بأنها تستنشق هواء نقيًا لأول مرة منذ أشهر، شعرت برائحة الياسمين الذي يفوح من بعض المنازل، كادت السيدة التي أثقل الدهر ظهرها بالفقر والموت والتشرد تتراكض راقصة في الشارع، لكنها وعلى خفة خطواتها ثبتتها في الأرض ومشت برزانة حتى وصلت إلى المركز، وهناك وقفت بهدوء وقلبها يخفق بقوة، فهي على بعد أمتار قليلة من الحلم الذي طال انتظاره وغلا ثمنه، وحين وصلت أخيرًا لم تنظر إلى أي اسم أو صورة في الورقة عدا اسم البطل،

صاحب الوجه الوسيم السمح، وضعت بالقلم المثبت على الطاولة الصغيرة إشارة تحت صورته وتمنت لو أنها تكشف ذلك الستار الموضوع أمامها ليرى الناس كلهم أكثر مَن تجده يستحق أن ينتخب علّهم يفعلون مثلها، ثم ثنت الورقة ووضعتها في الصندوق وتمّ وضع إشارة حمراء على كفها حتى تضمن اللجنة عدم عودتها للانتخاب مرة أخرى، ثم غادرت واشترت بعض اللحم والخضار وقد قررت في نفسها صنع طبق خاص بهذه المناسبة وإن لم تعلن عن ذلك.

حين عادت إلى المنزل وجدت ليلى قد استيقظت وكادت تنتهي من أعمال المنزل، قبل أن تسأل انتصار أين كانت كل هذا، فأشارت انتصار إلى الأشياء في يديها: «استيقظت باكرًا فقلت أحضر بعض احتياجات المنزل»، نظرت ليلى إلى كف السيدة انتصار، وفهمت تمامًا الذي حدث، ضحكت وقالت: «ذهبت للانتخاب إذًا، لا بأس لكن لا داعي أن يعلم أوس بذلك». قالت انتصار براحة من ألقى حملًا عن كاهله: «لا بأس هو لن يعود قبل ليلة بعد غد، وحتى ذلك الوقت سأكون أزلت الإشارة تمامًا» ثم تمتمت: «أكاد لا أصبر حتى تظهر نتائج الانتخابات، سيكون ذلك اليوم يوم شروق شمسنا بعد ظلام طويل». ضحكت ليلى وهي تقول: «دعك من السياسة وتعالي لنشرب فنجان قهوة معًا، وقد أستطيع أن أخبرك بقراءته إذا ما كانت الشمس ستشرق قريبًا أم أن الليل لا يزال أسودَ والفجر بعيدًا».

**

-١٥-

بقيت سارة في الأحراش ثلاثة أيام، لم تغادر فيها خيمة خالد قط ولم تبدل ثيابًا ولم تأكل إلا قليلًا من الطعام، كان قد تركها خالد خلفه قبل أن يغادر لأمر لا تعلمه، وفي فجر اليوم الرابع عاد خالد وفي يده طعام ساخن دسم أحضره من خارج الأحراش ليطعمها، أكلت بنهم وهو ينظر إليها حتى انتهت:

- الآن ماذا؟ من حسن حظك أنني أعلمت الرجال بمغادرتي وأن أحدًا لم يحضر إلى خيمتي، عليك أن تغادري وأن تبدئي من جديد بعيدًا عن هذا المكان.
- سأفعل، سأغادر الليلة ولا داعي للقلق أستطيع أن أتدبر أمري، لكن عليك أولًا أن تحدثني عن نتائج الانتخابات وأخبار البلاد.
- ستعلن نتائج الانتخابات غدًا ويبدو أن عدنان قد اكتسح الأصوات ضد منافسه حتى اللحظة فقد تم إحصاء أكثر من ثلاثة وتسعين بالمئة منها، عدنان سيكون حاكم هذه البلاد دون منافس.

- تقولها بحماسة وكأنك لا تعلم من يكون عدنان.
- لا أحد يمهد طريق الصالحين كما يفعل الطالحون.
- لا أظن هذا صحيحًا، لا يمكن لرجل مثل عدنان أن ينفع هذه البلاد بشيء.
- أنا لا أطلب إليك أن تؤمني بما أظن، فلا شيء في بلاد العرب مضمونًا، ولا نتيجة مؤكدة فيها لأي شيء، قد تسلك كل الطرق الصحيحة ولا تصل، في هذه البلاد كل شيء ممكن.
- ولماذا تظن أنك تسير على الطريق الصحيح؟ أليس من الممكن أنك موهوم.
- يكفي أنني أمنح كل شيء في سبيل ما أؤمن به، وأن أكون مخلصًا للمبدأ لا لأصحابه، ولا أقول إنني سأنجح إنما أنا أحاول.
- أليس هذا ما فعلته أنا أيضًا، وانظر إلى ماذا وصلت، إنني الآن حتى عاجزة أن أبكي على ابنتي، أشعر بأنني قد فقدت مشاعري ولم يتبقّ في هذا الصدر سوى حجر من صوان.

بدا له صوتها يائسًا باردًا فيه من هدوء الموت أكثر مما فيه من نغم الحياة، فقال مواسيًا:

- عليك أن تعلمي يا سارة بأنك كنت أحد المؤثرين في صناعة هذه الثورة، التي غيّر فيها الناس نظامًا ظلوا تحته عبيدًا لعشرات السنين.
- أنا ثرت على نفسي وحطمتها، هذا كل ما فعلته.

في مساء ذلك اليوم، خرج خالد على وعد أن يعود قبيل الفجر ليصطحب سارة خارج الأحراش إلى الشارع الرئيسي، إلّا أنَّ سارة تقدمت عند منتصف الليل حيث الكوخ الذي استمعت خلف بابه إلى صوت ابنها مع خالد، وأخرجت مسدسها ودخلت الكوخ على المربية وهي تشير إليها تأمرها بالصمت، ثم أخذت الطفل معها بعد أن أوثقت المربية في السرير وأغلقت فمها بقطعة قماش ورشت في وجهها كما في وجه ابنها شيئًا ليناما، ثم خرجت من حيث دخلت في تلك الليلة قبل خمسة أيام وتوجهت إلى العاصمة حيث بيت أوس، بعد عدة ساعات كانت سارة في المنزل مع طفلها، فتحت السيدة انتصار لها الباب والذهول يملؤها والتساؤلات تبدو في وجهها وعينيها، إلّا أن سارة وعدتها أن تشرح لها كل شيء صباحًا، ثم دخلت غرفتها وبقيت تتحدث إلى طفلها أدهم وتنظر بتمعن إلى عينيه تحاول أن تقرأ خلالهما شيئًا من شخصيته، هي تريده آمنًا قويًا لكنها لم تكن أمام موجة الحب في قلبها تدرك أن هذ الطفل إنَّما هو مشروع رجل يلبي عقله كل ما يحتاجه من الإصرار والقوة والدهاء كأبيه، ويحمل قلبه من الرحمة التي يحتاجها الصالحون كأمه، طفل أتى من رجل ذاق الحرمان والوجع وعرف الظلم ومرارته، وعُجن بمن عرفت معنى الرخاء ومعنى أن تُمنح كل شيء لكنها تخلت عنه أمام الحقيقة حتى ولو كان الثمن حياتها، لم تكن سارة تدري وهي تحتضنه بلوعة أنها تحتضن رجلًا قويًا يجري في عروقه دم ثوار الوطن ودم أعدائه.

في صباح اليوم التالي، استيقظت سارة مبكرًا وقد نَوَت أن توقظ

السيدة انتصار بعد أن تطعم ابنها شيئًا لكنها وجدتها في المطبخ تعد القهوة، وكأنها كانت تنتظر أن يشق النور طريقه عبر الظلام لتفهم أين كانت سارة ومَن يكون هذا الطفل الذي أتت به إلى هذا البيت، فأخبرتها سارة بأن هذا الطفل ابنها، وأنها تريد منها مرافقتها إلى التجمع الجماهيري حيث سيتم إعلان نتائج الانتخابات، وأنها بعد ذلك ستحدثها قصتها كاملة، تهلل وجه انتصار فرحًا وأسرّت إليها -كأنها تفضي باعتراف ما- أنها انتخبت عدنان الوالي قبل خمسة أيام حيث استيقظت صباحًا قبل أن تفعل ليلى، وأخبرتها حين عادت بأنها كانت في السوق تشتري الخضار، كانت سارة تنظر إلى السيدة انتصار وهي لا تدري ما الذي تشعره تجاهها، إنّها تتذكر هذا الوجه ولا تدري مَن يكون، لكنه ساذج يفتخر بانتخابه للوالي، لكن وقبل أن تتمادى في تفكيرها هذا، تذكرت أنها باعت كل شيء في سبيله، وأن سذاجة هذه السيدة لا تقارن بكم السذاجة الذي كان يسكنها يوم تركت منزلها وهربت إليه، أخذت حمامًا ساخنًا وتزينت بكامل زينتها وخرجت مع ابنها والسيدة انتصار إلى حيث سيتم إعلان نتائج الانتخابات والاستماع إلى خطاب الفائز بعدد الأصوات الأكبر والحاكم الأول المنتخَب للبلاد.

**

بعد مرور خمسة أيام على العمل الدؤوب في فرز أصوات أرض العرب في كل مناطقها، حانت اللحظة الحاسمة والتاريخية التي

ينتظرها كل إنسان حيّ فوق هذه الأرض، كثيرون كانوا خائفين من فوز مَن سيقطع طريق أعمالهم ومصالحهم، إذ إنهم يودون أن ينجح مَن له علاقات ليست بسيئة مع أذناب النظام القديم، أو مع مَن هو أضعف من أن يوقف تلك المصالح المتجذرة منذ عشرات السنوات في أرض العرب، لكن الأغلبية الساحقة كانت تحتاج إلى الحرية وتتوق إلى الكرامة، إنَّهم جميعًا جائعون إلى قليل من العزة والفخر، واليوم هو اليوم الذي سيتحقق لهم ذلك أخيرًا.

أما مقرّ حملة عدنان فجلس فيه مسؤولو الحملة جنبًا إلى جنب مع الصحفيين، بعضهم متفائل بشكل واضح لكن لهفة التأكد بادية على وجوههم، وآخرون يعتريهم القلق فيكتّفون أيديهم كأنهم لا يصدقون بأن الدلائل تشير إلى شيء قبل أن يقع أو كأنهم لا يصدقون أن حلمًا بهذا الحجم قد يصبح حقيقة، أما عدنان الذي كان في غرفته داخل المقرّ فقد فتح شاشته للاستماع وحده إلى النتيجة، كان ريان يتردد بينه وبين رجاله في القاعة، وأخيرًا طلب منه عدنان ملازمة الرجال وتركه وحيدًا، بدأ رئيس لجنة الانتخابات بذكر الأسماء وعدد الأصوات لكل مرشح وكان أولهم قد حصد نسبة ثلاثة عشر بالمئة من أصوات أرض العرب، أما الثاني فقد حصل على نسبة ستة وعشرين بالمئة من الأصوات، وعندما سمع عدنان الرقمين عرف بأنه حصد واحدًا وستين بالمئة من أصوات أرض العرب، وسمع رجاله في القاعة يهللون احتفالًا بفوزه، إلّا أنه جلس على الكرسي وقلبه يخفق بشدة، إنّه يكاد لا يصدق استنتاجه البسيط فأراد أن يسمع ذلك بأذنيه، ظل جالسًا على

حافة الكرسي حتى سمع اسمه يتردد كفائز في الانتخابات وكحاكم لأرض العرب، عندها فقط ذرف دموعه بسخاء، لقد سمح لنفسه أن يبكي بعد أن منعها من ذلك سنوات طويلة، كان بكاؤه لذيذًا مليئًا بالنشوة والنصر، اليوم فقط يقبل لذكرياته السوداء أن تدخل عالمه بكل ترحاب، اليوم غفر لها حيث أوصلته إلى ما وصل إليه، اليوم سيتوقف عن الخوف من الشارع، وسيبتسم كلما رأى مشردًا، وسيترحم على والديه من دون أسى، اليوم يا عدنان صار الحكم لك وملكت أرض العرب كلها، اليوم أسقطت الأعداء وجلست على عرشهم، كفكف دموعه ووقف وملأ صدره بهواء النصر ورفع رأسه بعزة وكرامة، ورأى ريان قادمًا نحوه، عانقه بقوة، ريان رفيق العمر وصانع الدرب معه، هذا الانتصار له أيضًا وسيبقى ساعده الأيمن إلى أن يفنى أحدهما، أمسك ريان بكتفيه: «خطابك جاهز، اخرج إلى شعبك وجيشك وأرضك أيها الحاكم وألقِهِ عليهم».

**

تجمهر الملايين بانتظار اللحظة التاريخية وإعلان النتيجة عبر التلفاز الرسمي من قبل الهيئة العليا للانتخابات. وحين صدرت النتيجة معلنة اسم عدنان الوالي صاح الناس مهللين فرحين وتراقصوا وتعانقوا وبكى بعض الرجال وملأت الزغاريد الشارع من أوله إلى آخره، السيدة انتصار عانقت سارة وقالت: «أنا مؤمنة بأن هذا الرجل صالح وأن عهده سيكون شيئًا آخر، الآن حين يخرج لإلقاء خطابه انظري إلى وجهه؛ إنه

وسيم وسمح». ثم بكت فرحًا ممزوجًا بحزن عميق: « هذا الرجل لن يضيّع دم أطفالي سدى، ولا دم مازن ابن أم أوس، ولا دم كل الشباب الذين سقطوا في الثورة وفي التفجيرات الإرهابية التي اجتاحت البلاد أيام الكرواتي، هذا الرجل هو رجل البلاد، لست وحدي من أقول هذا، انظري إلى كلّ هؤلاء إنهم يؤمنون به تمامًا كما أفعل، أنا لا أدري لم لا يحبه أوس، لكن ربما كان الأمر بعض الغيرة أن أخذ منه الشهرة نهاية الثورة،أما عدنان الوالي فلم يكن ينوي أن ينزع أوس ومَن معه مِن حاشيته المقربين، والله يا ابنتي أوس مخطئ، ما كان عليه أن يترك يد هذا الرجل أبدًا». هزت سارة رأسها وهي تنظر إلى الملايين المحتفلة وعقلها يحاول أن يفهم! فإذا كان كل واحد هنا يفكر كما تفكر هذه السيدة فأي خدعة سقطت فيها البلاد، وها هو ذا، بكل جبروته وخداعه يظهر للجماهير، كامل الأناقة وسيم الوجه حلو اللسان كما عرفته أول مرة، سمعت انتصار تقول: «انظري إليه، ثائرٌ وابن ناس».. آه يا سيدة الخبز، لو كانت الملابس تصنع الناس لما عرفنا أشرارًا. كانت سارة قد تعمدت الحضور باكرًا لتكون قريبة من منصة الخطاب، بعد قليل من الوقت ناولت سارة الطفل إلى انتصار وصعدت إلى المنصة ثم أخذت الطفل مجددًا واستقامت قبل أن يستوقفها الرجال حول عدنان، إلّا أنها أخبرتهم بأنها زوجته وبأن هذا الطفل ابنه، ونادت على عدنان الذي توقف عن إلقاء خطابه الحماسي الحارّ ولمعت عيناه لمعة تعرفها تحمل التعجب والغضب، قالت بصوت عالٍ أمام الجماهير: «جئت أنا وطفلك لنحتفل معك». علم أنها وضعته في فخ محكم، فالناس

يعلمون أن ابنة الكرواتي زوجته وهم يعرفون شكلها من خطابها الذي بثّه عدنان لها سابقًا، إذًا فقد خدعه خالد! لكن لماذا؟ على أي حال ما كان أمامه سوى أن يبتسم لها أمام الناس ويفتح ذراعيه لاستقبالها هي وطفلها، بعد ذلك سيجد لها حتمًا الطريقة المناسبة، كانت انتصار مصابة بذهول تام! هذه الفتاة التي يلاحقها عدنان الوالي هي زوجته! حاولت أن تفهم فلم تستطع أما عدنان فقال للشعب: «بصفتي اليوم حاكم البلاد المنتخب، فاسمحوا لي أن أقدم إليكم زوجتي ورفيقة الدرب النضالي الصعب «سارة الوالي» وابني «ضارب عدنان الوالي».

ثم أمسك بكفها ورفعها إلى السماء في صورة بدت للشعب الذي كان يصفق ويصفر لهما من أجمل ما يكون، واستمر الشعب يهتف لها على اعتبارها بطلة هذه البلاد حتى شكرهم عدنان واستوقفهم، أما هي فظلت تقف إلى جواره وهو يتابع خطابه الطويل ثم ابتعدت عنه قليلًا وتوجهت لتناول انتصار الطفل مجددًا وهي تقول لها: «اعتني به جيّدًا لأجلي»، ثم رفعت ظهرها ملتفة تمشي ببطء حَذرعائدة إلى عدنان، ووقفت إلى جانبه ملتصقة به هذه المرة قبل أن تضع كفها برفق داخل حقيبة يدها الصغيرة وبخفة وهدوء أخرجت مسدسها الذي وهبها إياه يومًا وأصابت عدنان في خاصرته، فوقع صائحًا متألمًا ثم تبعتها بسرعة وثبات بطلقة أخرى في الرأس وهي تقول وصدى صوتها المارّ في مكبرات الصوت يدقّ في الأرجاء ويبلغ عنان السماء : «أنا ابنة الكرواتي أيها المجرم وهذه من أجل ابنتي»، هاجمها رجال عدنان وأمسكوا بها، وآخرون تفقدوا عدنان الذي بدا جليًا أنه فارق الحياة، أما

الناس فهاجوا وماجوا وتدافعوا إلى المنصة التي لم يرَ البعيدون إلّا أنها انهارت على الأرض من تدافع الناس فوقها، أما انتصار فلا تدري كيف استطاعت أن تخرج بالطفل سليمة من بين هذه الجموع المتجهة نحو المنصة، ووقفت بعيدًا وقد أصابها الذهول مما رأت، كيف تكون هذه الفتاة زوجة الوالي، ولمَ قتلته! كيف لفتاة مثل سارة أن تخون بلادها هكذا وتغتال أول حاكم منتخب للبلاد! كل هذه الأسئلة دارت في رأس سيدة الخبز وهي تنظر إلى الجموع من أبعد نقطة استطاعت أن تصل إليها.

تجمّع الناس حول سارة التي أصابها اندفاع الناس عليها بالاختناق الشديد، وأوجعتها بشدة اليدان اللتان أوثقتا يديها بقوة خلف ظهرها، حتى أنها شعرت بأن رسغها قد كسر، وكان من الناس رجال ونساء يَدفعون بها أو يضربونها أو يبصقون في وجهها، وكانت الملايين جميعها تهتف بـ«خائنة»، قبل أن يصيح أحدهم قائلًا: «أعدموها». وفي أقل من دقيقة كانت الملايين تصيح مطالبة بإعدام ابنة النظام القديم الخائنة، أما سارة فقد كانت تشعر بنفسها تطفو فوق الجميع، بعد انتهائها من عدنان لا مانع لديها بأن تنتهي، لم يبقَ لديها شيء، وهي تتمنى أن يستطيع خالد وأوس أن يوصلا أدهم الصغير إلى أدهم الكبير، وإن لم يفعلا فإنها تعلم اليوم أنهما من خيرة رجال أرض العرب وأن أدهم الصغير لن يجد أفضل منهما ليعتني به وسط هذا العالم الجاهل القذر، بعد ذلك تبدّل كل شيء؛ هكذا الموت إذًا! تتحول فيه الوجوه

المفترسة إلى أخشاب، وأنت إذ تودّ الهرب تنكسر قدماك وترتعش يداك وينعقد لسانك، فلا هم يضرّوك ولا أنت تنجو.

**

كان خالد في مقرّ حزبه خارج العاصمة يتابع كما كل أرض العرب إعلان نتائج الانتخابات وخطاب عدنان الوالي، وكان منذ اللحظة التي رأى سارة فيها مع الطفل على المنصة قد أصيب بالتوتر والذهول. فخروج سارة إلى عدنان يكشف خالد إليه ويعطل خططه القادمة جميعها وهذا آخر ما يحتاجه الآن، لكنه كان يظن بأن سارة تفعل ذلك لتفرض نفسها وطفلها على عدنان أمام الجمهور ظنًّا منها أنها تحمي نفسها بهذه الطريقة، لكنها حين أطلقت النار على عدنان أصابته بنوبة من الذعر الحقيقي الكامل، فهي برصاصة واحدة دمرت كل شيء، فقد وصل ورجال حزبه إلى رأس الهرم بعد جهد وعناء لا يمكن شرحهما، وكان من المفترض أن يسحبوا الكرسي من تحت عدنان ومن معه بذكاء وحنكة لتسليمه إلى رجال أحرار صادقين يستحقونه ليبدأوا بناء هذه الأرض من جديد يدًا بيد مع شعبهم الذي سيكون له الحق بمحاسبتهم، وهذا وحده كان طريقًا طويلًا آخر في ظل وجود حاكم مغرور ومخادع كعدنان، وشعب لم يعتد الحرية، وها هي ابنة الوالي تدمر هذا بجزء من ثانية، دار في الغرفة وهو لا يصدق ما جرى هل أخطأ حين أخرجها! هل يمكن أن يكون كل هذا نتاج خطئه هو، لكنه يعلم أنه ما كان ليستطيع أن يتركها تموت وهو يستطيع إنقاذها، يكفيه

عذابًا أن حمل ذل شعوره بانحطاط أخلاقه كونه لعب دور السجان معها وتفرج على اغتيال ابنتها لكنه ما إن رأى تدافع الجماهير عليها حتى أمر أحد رجاله أن يطلب أوس فورًا، وما إن أجابه حتى طلب منه خالد أن يفعل هو ورجال الحزب شيئًا لإخراجها من بين أيدي الناس، إلّا أن أوس الذي بدا فخورًا بما فعلته سارة قال بأن الأمر مستحيل، لكنه سيذهب بنفسه مع بعض الرجال إلى هناك في محاولة لتخليصها.

الغريب في الأمر أن أفراد الشرطة والجيش لم يفعلوا شيئًا وكأن أرض العرب خلت منهما تمامًا؛ لطالما كانوا حاضرين في ممارسة القمع والاعتقالات، أما أيام الثورة فكانوا هناك هم وأسلحتهم التي فتكت بالكثير من الأرواح البريئة. نظر خالد إلى الرجل بجانبه ثم قال له: «انشر مقطع عدنان والطفلة». تراجع الرجل في مكانه يسأل: «الآن؟». صاح فيه خالد: «الآن. الرجل مات وانتهى أمره، على الشعب أن يعلم أنه لم يكن شهيدًا لشيء». في الحقيقة فإن خالد كان يتمنى أن يرى أحدهم المقطع وتحصل معجزة في منع هؤلاء من أذية سارة أكثر، لكن القدر كان أسرع، فالذي رآه على الشاشة كان أمرًا تقشعر له أبدان أعتى الأقوياء؛ فقد جاء أحد الشباب بحبل طويل يبدو أنه حصل عليه من أحد مواقع الصيانة في المنطقة، وناول طرفه إلى شخص معه وهو يشدد عليه ضرورة ألّا يفلته قبل أن يصعد على أحد أعمدة النور في الشارع ويمرّ فوقه الحبل ثم ينزل ممسكًا بطرفه الآخر، وأخذ يعقده وهو يصيح بالناس ويشير إليهم بأن يحضروا إليه ابنة الكرواتي، وفي ذلك الحين وأمام كاميرات التلفاز الرسمي وغير الرسمي، جرّ أحدهم

ابنة النظام السابق وقاتلة رمز الثورة فوضع الرجل العقدة فوق رقبتها، وبصق في وجهها وأمر الشخص الذي كان قد أعطاه طرف الحبل بأن يشدّه لكي يرفعها. لم يغطوا عينيها ولم يكبلوا يديها، كان المتجمهرون يصيحون مطالبين بقتلها، ويرفعون كاميرات هواتفهم بفخر ليحتفظوا باللحظة التاريخية، رفعها الرجل واختنق الهواء في حلقها وأحكمت يد الموت عليها وبدت تحاول بكفيها رفع الحبل الذي أُغلق على عنقها، وانتفضت قدماها كما انتفض قلب خالد وانطفأ، وبعد أن سكنت سارة تمامًا انطلقت من بعيد رصاصة حياة تحاول عبثًا أن تمنع الموت رغم أنها صديقته، قطعت الحبل وأسقطت الجثة تحت أقدام ذابحيها.

**

فتحت انتصار باب الشقة، وبيديها المرتجفتين تحاول حمل الطفل الذي كان يصرخ جوعًا وعطشًا. كانت ليلى في المطبخ وما إن رأت انتصار حتى قالت بتوتر وتعجب: «أين كنت يا خالة؟» ثم نظرت إلى الطفل بيديها وسألت: «ومن هذا الطفل؟». إلا أن انتصار ناولتها الطفل وبدأت تحضر له شيئًا من الفاكهة ليأكله إلى جانب زجاجة من الحليب الذي كانت تحمله سارة حين أتت إلى المنزل في الليلة السابقة، نظرت ليلى إليها ولاحظت ملابسها المغبرة المجعدة والتي تعكس الفوضى التي مرّت بها، ويغلب على وجهها ذهول يشبه ذلك الذي رأته على وجهها يوم مات أطفالها تحت قصف قوات التعاون، ناولتها كأس ماء، أما انتصار فقالت كرجل آلي: «خذي ملعقة وصبي

الماء في فمه حتى يرتوي». وما إن انتهت من هرس بعض الموز له حتى جلست وأمرت ليلى أن تجلسه في حضنها وأخذت تطعمه من دون أن تقول شيئًا، وليلى خائفة من أن تسالها سؤالًا واحدًا آخر، بعد قليل من الوقت دار مفتاح في باب الشقة التي دخلها أوس على عجلة ونظر إلى انتصار وإلى زوجته التي تحمل طفلًا فتباطأت العجلة فيه ووقف كالصنم مكانه، قالت زوجته: «تعال يا أوس، لا أدري ما الذي جرى للسيدة انتصار جاءت بهذا الطفل قبل قليل وهي منذ ذلك الحين على هذه الحالة لا تتكلم». فنظر إلى انتصار وإلى الطفل الذي عرف فورًا من يكون «كنتِ مع سارة إذًا!». لكنها لم تقل شيئًا، إنّما بقيت تطعم الطفل بهدوء كأنها لا تسمعه ولا تراه، أخذ أوس الطفل ووضعه بين ذراعي انتصار وأخذ زوجته جانبًا وقال لها: «الدنيا مقلوبة في الخارج، سارة قتلت عدنان الوالي بعد أن أعلن حاكمًا للبلاد». فغرت ليلى فاها في دهشة قبل أن يكمل أوس قائلًا: «والشعب أعدم سارة وهذا الطفل طفلهما». شهقت ليلى بصوت عالٍ غير مصدقة الذي يقول إلّا أنه تابع: «سآخذ بعض ملابسي ولا أدري متى أعود». انفجرت ليلى باكية وهي تقول: «إلى أين تذهب؟» ناولها أوس بعض المال وهو يقول: «خذي هذا المال واعتني بنفسك وبالسيدة انتصار وبالطفل ولا تفتحي الباب لأي شخص عداي مهما كانت الظروف، البلاد الآن على كف عفريت والفوضى في كل مكان»، ثم همَّ بالخروج من باب الشقة قبل أن تناديه ليلى وهي تنظر إلى الطفل وتسأل: «هل لنا أن نتخذه ولدًا؟». نظر أوس إلى الطفل طويلًا و هزّ رأسه مجيبًا وابتسم لها بلطف وقال: «لا بأس».

إلّا أن سيدة الخبز قاطعتهما وقالت: «ابن سارة ابني أنا»، ثم نظرت إلى ليلى: «أو على أقل تقدير أنا من ستعتني به، إنه أمانة برقبتي أنا». هزّ أوس رأسه موافقًا قبل أن يخرج من البيت وهو يفكر بأن الطفل أمانة في رقابهم جميعًا، هو وخالد والسيدة انتصار.

**

في النهاية ينتهي كل شيء فقط إذا نخره شيء من الداخل، كل شيء؛ الحق والباطل لا فرق، الخطر الحقيقي لا يكون أبدًا ومطلقًا من الخارج، لا يمكن أن يصيب الخطر هدفه إلّا إذا انقلب شيء من الهدف على نفسه، أما السهام الخارجية فهي صورة للهزيمة لاعلاقة للحقيقة بها، وفي النهايات تخون الأشياء نفسها بطريقة أو بأخرى، عندها صدق أو لا تصدق، كل الذين وقعوا بالأمس سيقفون على أقدامهم مجددًا، وكل الواقفين على جراح الأمة سيقعون يومًا كما لم يقع أحد من قبل، وكل الذين انتفضوا من أجل حقوقهم وما طالوا لأنفسهم شيئًا سيدركون حيثما وُجدوا أنهم كانوا يبنون وطنًا حرًا للأجيال القادمة وهكذا فقط تُرفَع أمم وتنهار أخرى.

وضع أوس كفه على كتف خالد الشارد بعيدًا:

- لا داعي لكل هذا القلق، ذهب الزبد عن السطح ليس إلا، والآن علينا أن نعرف خطوتنا القادمة.

نظر خالد إليه من دون أن يقول شيئًا لكنه كان يعلم أنها أبدًا لم تكن زبدًا؛ سارة كانت معدنًا ذهبيًا أصيلًا وكانت من جنود الحق وإن لم

تكن تعي ذلك، ربما يكون كل هذا الحق قد قام بقيامها، بجرأتها على قول «لا» مرة في وجه ظالم وبمدّ كفها إلى امرأة مسكينة تبيع الخبز في الشارع وأنها من دون أن تدري كانت يد القدر في كثير من الأمور الأخرى، إنّها فعلت ما فعلت في سبيل الوطن وما قدمته له لن يذهب سدى، سارة لم تمت، إنّما غابت وأحيت خلفها ألف جنديّ دون أن تدري.

أخرجه من مواساته لنفسه صوت أوس الذي أشار إلى الشاشة:

- انظر يا خالد، إنهم كالسيل الهادر لا يدري أين عليه أن يسير.

نظر خالد إلى الجماهير التي تسير في الشوارع هائمة على وجهها تشيّع عدنان وتتوعد لأمثال ابنة الكرواتي :

- إنّهم إنما يحتاجون إلى قائد وحسب انظر إليهم، إنهم جاهزون لتقديم أرواحهم فداءً لشخص يخلصهم من أشباح ماضيهم.

- ومن سيخرج إليهم؟

- لا أحد! إلّا إذا فعل ريان الذي يبدو أنه قد فرّ من المكان.

- والآن ماذا؟

- لا أدري، لكن لن يتركنا أعداء أرض العرب الحائمون في أجوائنا كالنسور التي تنتظر جيفتها من دون أن يتدخلوا بشؤوننا، ولسنا من القوة بأن نردعهم.

- يقول القائد بأن هناك ضابطًا منشقًّا عن النظام السابق ولديه من الحنكة ما تحتاجه المرحلة، فهل تظن أن البلاد الآن ستخضع إلى حكم عسكري؟

هز خالد رأسه وقال:

- لا أحد يدري ما الذي يمكن أن يحدث، إلّا أنه سيقدم نفسه على أنه ضابط منشق عن الجيش أيام الثورة ولن يسمح للجيش بالتدخل في الحكم تحت أي ظرف من الظروف، قد يتم تقديمه إلى الجماهير على أنه ضابط أخذ صف الثوار فيحبونه، وهو سيبدو لأعدائنا شيئًا من بقايا النظام السابق وهم سيحاولون حتمًا التوصل معه إلى تسويات ترضيه وترضيهم.

- أعداؤنا ليسوا ساذجين، ثم ماذا لو أن الرجل كان خائنًا؟

- أعرف ذلك، المهم الآن أن تقبله الجماهير، حتى نعيد ترتيب أوراقنا وبعدها لكل حادث حديث.

- وأنت ماذا ستفعل الآن؟

قام خالد من مقعده وضرب بكفيه على ساقيه:

- سأعود إلى المعسكر وأحاول أن أجعل رجال عدنان يلتفون حولي.

- وهل سيصدقونك بعد أن انكشف أمر عدنان واحتياله؟ لا تنسَ أنك كنت أحد رجاله، هذا عدا أن بعض الرجال سيعيدون التفكير في مسألة البقاء في المعسكر أو ربما قد لا يقبلونك قائدًا لهم حتى وإنْ صدقوك.

هذا حقيقي فوجه الحق دائمًا بشع وثقيل، لكن يبقى هناك مَن يؤمنون به ويبحثون عنه وهذا ما يظنه الصالحون. فكر بأنه لا يمكن لرجال تركوا بيوتهم وأهلهم واختفوا من دون سابق إنذار أن يستسلموا

أمام أول عقبة وأول خيانة، نعم سيحاول، وإنْ فشل فسيبدأ من جديد كما بدأ عدنان يومًا لكن من دون خيانة للشعب ولا عمالة مع أعدائه.

**

أصابت الفوضى أرض العرب مجددًا، هذه المرة على الأرض وفي نفوس الناس، فقد كان فيديو عدنان الوالي وهو يحرّض صديقه لقتل ابنته قد انتشر في كل مكان، ورغم ذلك فقد ظلّ الناس يعتقدون أنه وبرغم الأخطاء كان أفضل فرصة للبلاد، وظلوا مؤمنين بأن ابنة الكرواتي كانت مموّلة كما والدها من جهات خارجية دفعتها لقتل الوالي كي لا تستقر البلاد أبدًا، وانقسم رأي الناس في الشارع وعلى منصات التواصل حول هذين الأمرين فقط، أما مصير أرض العرب فقد كان القليلون فقط يأبهون للتطلع إليه، ويقلقون حقًا من المرحلة القادمة، تم إعلان حالة الطوارئ في البلاد، وعادت تحكم أرض العرب حكومة انتقالية تضم ما ترسب من النظام القديم ولا يدري أحد حقًا مَن خَوّلَهم لذلك أو متى، وازداد تدخل قوات التعاون الدولي في أمر البلاد، وصارت أرض العرب حديث الوكالات الإعلامية العالمية التي بدأت تعرض أرض العرب على أنها أرض غريقة تحتاج إلى منقذ ماهر، وما هي إلا أيام قليلة حتى أعلن رسميًا حاجة البلاد إلى تدخل حقيقي يكون سريعًا وفوريًا، وما كذبوا خبرًا ففي أقل من أسبوع كانت قوات التعاون الدولي تحاصر الدولة وتقف على أبواب عاصمتها، واشتعلت النيران في كل مكان، من ذخيرة الطائرات التي تحوم في

الأجواء تضرب طوال الوقت، ومن فوهات الدبابات التي وقفت على أبواب المدن، ومن المدافع التي كانت في أيدي الجنود الذين يطلقونها بشكل مفرط، قبل أن يتحركوا خطوة واحدة إلى الأمام. احترق النخيل واشتعلت الحقول وبلغ اللهب السماء، سقطت أرض العرب في أيدي التعاون المحرِّرين، وما سُمع من صوت أسلحتها إلا بنادق الثوار المشتتين هنا وهناك؛ تقدمت الدبابات أولًا ثم الشاحنات فالسيارات الحربية، دخلوها صفًا واحدًا وما رأوا على حدودها إلّا المزارعين ونساءهم وأطفالهم.

كان لا بدّ لليلى وانتصار أن تحضرا تلفازًا، فقد بدا ما يحدث هذه المرة مخيفًا بحق، وكان الناس لا يفارقون أرائكهم، يتطلعون لا يعلمون إن كان هذا غزوًا أم تحريرًا، شفقةً أم طمعًا، هكذا بقيتا في الأيام الأولى كما الجميع لا يغلقونه أبدًا، ويغلبهم النوم أمامه في محاولة تتبع ما يجري، ثم أصابهما الإحباط فصارت الواحدة تتشاجر مع الأخرى إن رأتها تتابع الأخبار، فقد كانوا يظنون بأن أرض العرب أقسى وأقوى من أن تسقط بيد هؤلاء في غضون أيام لكنها سقطت في يوم وليلة، أما أوس فكان لا يتصل إلّا نادرًا ليطمئنهم عن نفسه ويطمئن عليهما، وهما كانتا تشعران بوحدة وخوف ولا تغادران المنزل إلّا لحاجة ملحة ولا تجرؤ الواحدة الخروج من دون الأخرى.

بعد أقل من عشرة أيام على الغزو، سمعتا صوت طرق شديد على الباب، كان طرقًا مخيفًا يدلّ على أن الطارق خائف من شيء يلاحقه أو معتدٍ جاء يريد شرًّا بأهل الدار، فتحت ليلى الباب يملؤها الفزع وإذا

بجنود لا تعرف من هيئتهم شيئًا يتحدثون معها بلغة لم تفهمها فبقيت تنظر إلى وجوههم خائفة لا تقوى على الحوار قبل أن يطلّ رجل من بينهم ليقول بعربية واضحة فصيحة: «أين سيّد هذا البيت؟». نظرت إلى العينين اللتين فضحتا عروبة الرجل الخالصة، ترى ما الذي يفعله عربي من أرض العرب بين هؤلاء؟ قالت بثبات: «لا أدري؟». لكنه قال: «أوس أين أوس؟». هزّت رأسها تنفي أنها تعرف شيئًا عن مكانه فما كان من الرجل إلّا أن دفع الباب برجله ودخل المنزل ولحقته القوة التي يرافقها، توزعوا في المكان وقلبوا كل شيء، قبل أن يسمعوا صوت طفل صغير في غرفة مغلقة، فدفع بابها أحد الجنود بقدمه قبل أن يجد انتصار بقميص نوم يكشف ذراعيها اللتين لم تتذكر أن تسترهما وهي تحتضن بهما أدهم الصغير متجمدة يملؤها الرعب وسط سريرها، تبع الجنديَّ ذلك العربي وهو ينظر إلى الطفل قبل أن يسأل ليلى: «أنت زوجة أوس؟». هزت برأسها مجيبة من دون أن تنطق بكلمة. تابع يسأل: «وهذا الطفل ولدك؟». إلا أن انتصار صاحت: «لا إنه طفلي أنا، إنه أصغر أطفالي الذين ماتوا تحت القصف، ليلى لا تنجب تستطيعون أن تتحقّقوا من ذلك، أوس ليس لديه أطفال».

قال أحدهم شيئًا لم تفهمه أي منهما، إلّا أن العربي أمسك بليلى بعنف وكتّف ذراعيها خلف ظهرها وهو يقول: «أنت ستأتين معنا». خفق قلب ليلى وانتفض الرعب كله داخلها وحاولت عبثًا أن تفلت نفسها من بين ذراعيه القويتين وهي تصيح وتطلب من السيدة انتصار أن تخلصها، أما انتصار فقد وضعت الطفل في سريره وجرت خلفهم

تجذبهم وهي تصيح: «إلى أين تأخذونها؟»، إلّا أن أحد الجنود دفعها بقدمه بقوة ألقت بها إلى الحائط في حين ظلت ليلى تصيح باسم انتصار التي استقرت على الأرض وعلا صوتها بالنحيب مع غياب ليلى خلف الباب قبل أن يتبعه صوت الطفل الواقف على سريره خائفًا، يبكي مناديًا سيدة الخبز المنهارة على الأرض وهي تنظر إلى عجلة الزمن التي عادت تدوسهم من جديد كأنها تزورهم للمرة الأولى. لطالما ظنَّت سيدة الخبز أن حوادث الدهر تمر على الإنسان مرة واحدة، ثم تنتقل إلى آخرين، فما الذي أعادها إليهم مسعورة هكذا! أكان ينقص أرض العرب ظلام فوق ظلام! مشت زاحفة إلى حيث الصغير، قامت بصعوبة مَن يحمل فوق كاهله حملًا ثقيلًا، وأمسكت بالطفل وضمته إليها وهي لا تدري أين عليها أن تذهب ولا مع من تتصل، شعرت بأنها مقطوعة من كل أحد إلّا هذا الصغير الذي مسح بكفه الصغيرة دمعها من دون وعي منه أو بوعي، وضحك لها ضحكة دوّت في جوف الروح كأنها تقول: «امسحي الدمع يا أمي فالطريق طويل والمصاب جلل يحتاج إلى صبر عظيم، كفكفي الدمع يا سيدة المآسي، كفكفيه يا سيدة الخبز».

تمت

تشرين الثاني

٢٠١٩

مكتبة
t.me/soramnqraa